دكتورة سامية عامر

الصليبيون فى فلسطين

بلاد الشام

الصليبيون فى فلسطين

« جبيل - لبنان »

تاليف
دكتورة / سامية عامر
كلية التربية ببور سعيد - جامعة قناة السويس

الطبعة الأولى
٢٠٠٢م

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
ËIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

بسم الله الرحمن الرحيم

التصدير

ترجع أهمية الدراسات التى تناولت تاريخ الحركة الصليبية، أنها تناولت موضوعا لاتزال آثاره واضحة بشكل أو بآخر على صفحات تاريخنا الحديث والمعاصر. إذ أن الصراع الصليبى الإسلامى ما هو إلا حلقة من سلسلة ممتدة الحلقات من الصراع الذى عانت منه البشرية منذ القدم وحتى اليوم. وتمثل تلك الدراسات أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ دول إسلامية ثلاث حكمت مصر والشام هى : الدولة الفاطمية فى أخريات عهدها ، ثم الدولة الأيوبية، ودولة المماليك الأولى فى بدايتها . لقد عاصرت هذه الدول فترة الحروب الصليبية المبكرة التى شغلت قرنين من الزمان هما القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلادى السادس والسابع للهجرة .

وتمكن الصليبيون أثناء الحملة الصليبية الأولى وبعدها بسنوات معدودات من إقامة إماراتهم الثلاث وهى: الرها فى أعالى الفرات، وأنطاكية فى أعالى الشام، وطرابلس على الساحل الشامى ، ومملكة بيت المقدس فى قلب فلسطين. واحتوت المملكة والإمارات الكبرى على الكثير من البارونيات والكونتيات والاقطاعيات الثانوية، ومن بينها مدينة جبيل التى لم تنل حظها الكافى من الدراسة والتمحيص ، سواء من المؤرخين العرب أو الأجانب . فلا نجد فى كتب المؤرخين المعنيين بتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى بصفة عامة، وتاريخ الحركة الصليبية فى وجه الخصوص، سوى شذرات متناثرة هنا وهناك لاتشفى غليل الباحث ، فضلا عن أن معظم المؤرخين الأجانب اعتمدوا على شق واحد من أصول البحث دون الشق الآخر، فجاءت دراساتهم من زاوية واحدة ومعبرة عن وجهة نظر واحدة فحسب. ولم يظهر للآن كتاب علمى مستقل قائم بذاته عن جبيل ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى يغطى كل جوانب الموضوع . لذا تعتبر هذه الدراسة هى أول دراسة متكاملة تتناول الموضوع من كل زواياه ، وتعبر عن مختلف وجهات النظر فيه ، اعتماداً على أصوله العربية والأجنبية على السواء. وهدفنا هو إبراز ملامح الصراع بين الصليبيين والمسلمين حول مدينة جبيل ودور المدينة فيه، سواء كان بالسلب أم بالإيجاب. ويلاحظ أن المصادر الأجنبية من لاتينية وفرنسية

قديمة وغيرها لم تتحدث عن جبيل فى العصور الوسطى بما فيه الكفاية، على الرغم من أن اللاتين قد فرضوا سيطرتهم على المدينة طوال الفترة موضوع البحث باستثناء سنوات قلائل عادت فيها المدينة إلى حوزة المسلمين، كان هذا مدعاة لاسترسال الكتاب القدامى فى الكتابة عنها . ولكن على العكس من ذلك، لم تنل مدينة جبيل وغيرها من المدن الساحلية الصغيرة المتناثرة على امتداد الساحل الشرقى والجنوبى الشرقى للبحر المتوسط أى اهتمام من قبل أولئك الكتاب ممن عاصروا الحركة الصليبية أو كانوا شهود عيان لها . وما يقال عن المؤرخين القدامى يقال عن المؤرخين الحديثين، مما جعل الكثير من صفحات الحركة الصليبية بحاجة إلى المزيد من الدراسة والبحث. ويرجع هذا إلى أن المؤرخين، من قدامى وحديثين ، وجهوا اهتمامهم إلى المملكة الصليبية نفسها والإمارات الكبرى الثلاث التى أنشأها الصليبيون فى الأراضى المقدسة. أما باقى المدن والمعاقل والحصون فقد أدمجت ضمن الإطار الصليبى العام. مثال ذلك مدينة جبيل محور هذا البحث. فقد استخلصنا تاريخها أثناء الفترة الزمنية موضوع الدراسة مما كتب عن كونتية طرابلس أو مملكة بيت المقدس، حيث كانت جبيل تابعًا لكل منهما على فترات غير متصلة .

وترجع أهمية جبيل بالنسبة لطرفى الصراع الصليبى الإسلامى إلى وقوعها على ساحل البحر المتوسط ما بين كونتية طرابلس جنوبا ومدينة بيروت شمالا. أى أنها كانت فى مقدمة المدن التى عبرها الصليبيون منذ وطأت أقدامهم منطقة الشرق الأدنى . لذا بذلوا قصارى جهدهم للاستيلاء عليها، والاستفادة من مينائها العريق، ليكون نقطة اتصال بين افرنج الشام وغرب أوروبا، ونقطة ارتكاز يوجهون منها الضربات إلى المدن الإسلامية فى المنطقة. ومن هنا برز دورها الحيوى العام فى هذا الصراع .

ولانغالى إذا قلنا أن جبيل أسهمت بدور لايقل أهمية وخطورة عن الدور الذى قامت به الإمارات الكبرى فى الصراع الصليبى الإسلامى، إن لم يزد فى بعض الأحيان. ومهمتنا هى إبراز هذا الدور، وتسليط الضوء عليه، ومحاولة الإجابة عن كثير من علامات الاستفهام التى واجهتنا .

حقيقة إننا لم نبدأ من فراغ ، فقد استعرضت المراجع الأجنبية الحديثة المعنية بتاريخ الحركة الصليبية، لمحات من تاريخ جبيل ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى. وهى فى الغالب تعبر عن وجهة نظر غريبة بحتة فيها الكثير من التحيز للاتين دون إظهار الحقيقة

التاريخية . وأشارت بعض المقالات إلى أن حكام جبيل من أسرة امبرياتشى الجنوية دون الخوض فى تفاصيل الصراع الصليبى الإسلامى أو دور جبيل فيه، أذكر من بينها دراسات بيرن Byrn، وريى Rey وقد اكتفى بعضهم بحصر حكام المدينة من اللاتين فى ظل الاحتلال الصليبى لها، كما تعرض البعض الآخر للمصاهرات التى تمت بين أفراد أسرة امبرياتشى وباقى أمراء الشرق اللاتينى تحقيقا لمصالح خاصة. ومنهم من تناول تاريخ القناصل الجنوية ببلاد الشام وعلاقاتهم بجنوة الأم . وقد أعاننا هذا على التعرف على طبيعة العلاقات التى ربطت بين جبيل وجنوة طوال مراحل الصراع الصليبى الإسلامى ، والتى تفاوتت بين الحرب والسلام، وبين العداء والصفاء ، وفقا لمقتضيات الظروف والأحوال .

مقدمــــة

- المسرح الجغرافى لمدينة جبيل، وأهميته بالنسبة لموضوع البحث. الخلط بين [جبيل] محور هذا البحث ، وبين غيرها من المدن التى كانت تحمل نفس الاسم، واللبس بينها وبين [جبلة]. - جبيل كما وصفها الرحالة العرب أمثال ابن بطوطة وابن شاهين. - جبيل فى مؤلفات المؤرخين الحديثين أمثال بروس وكندر . - نبذة تاريخية سريعة عن جبيل والشرق الأدنى الإسلامى حتى قيام الحركة الصليبية.

لاشك أن المسرح الجغرافى لمدينة جبيل جعل لها مركزًا ممتازا وجعل منها فى نفس الوقت مطمعا لأهل الغرب اللاتين فى عصر الحروب الصليبية. ومن هنا اكتسبت أهميتها ، فكانت موضع أخذ ورد، وشد وجذب بين المسلمين والصليبيين، كل منهما يسعى بكل السبل للسيطرة عليها واستخدامها كقاعدة فى صراعه ضد خصمه. وهذا يستلزم القاء الضوء على موقعها ، وجغرافيتها، وطبوغرافيتها ، وتضاريسها ، ومواردها الطبيعية ، لما لذلك من أهمية بالنسبة لموضوع البحث.

تقع مدينة جبيل على الساحل الشرقى لحوض البحر المتوسط، فيما بين طرابلس جنوبا وبيروت شمالا ، على بعد عشرين ميلا من بيروت، وأحد عشر ميلا من البترون، وعشرين ميلا من طرابلس . وتعتبر تلك المدينة من أقدم المناطق السكنية الفينيقية . وقد بدأ البحث المنظم عنها العالم الأثرى بيير مونت Pieere Monte منذ عام ١٩٢١م وواصل التنقيب والبحث عنها العالم موريس دانوند Maurice Dunand [١]. ومدينة جبيل هذه اتخذت لها أسماء متعددة عبر العصور فهى [بيبلوس] فى العصور القديمة، وقد وردت فى التوراه أنها من أملاك بنى عمـــون [٢]. واختلف المؤرخون حول تحديد موقعها فيشير البعض أنها تقع شرقى بيروت،

١- The New Encyclopaedia Britanica , t. II, p. 414 ; Cambridge Encyclopaedia , t. II, p. 712 .

٢- بنيامين التطيلى . رحلة بنيامين ، ص٨٩-٩٠ .

فى حين ذكر البعض الآخر أنها شمالى بيروت. كذلك اختلفوا حول المسافة بينها وبين بيروت[١]. فيذكر البعض أنها على بعد ثمانية عشر ميلا من بيروت، بينما ذكر البعض أنها على بعد عشرين ميلا منها، ويرجع هذا الخلط بين جبيل وبين غيرها من المواقع التى كانت تحمل نفس الاسم ببلاد الشام والجزيرة العربية.

لقد فتحت مدينة جبيل فى العصر الإسلامى على أيدى يزيد بن أبى سفيان أوائل عام ١٨هـ / ٦٣٨م. وبقيت بأيدى المسلمين حتى فتحها الصليبيون عام ١١٠٤م/ ٤٩٧هـ ، باستثناء فترة قصيرة خضعت خلالها للبيزنطيين حين فتحت على عهد نقفور فوقاس.

وكانت مركزا حيويا لإنتاج أوراق البردى وصناعة السفن، حتى إن اسم (بيبلوس) اشتق من كلمة Bible أى كتاب، مما يدل على شهرتها فى هذا المجال. فمدينة جبيل هى أول المدن التى عرفت الأبجدية والكتابة بحكم انتاجها لأوراق البردى. فاسمها باللغة اليونانية هو «بيبلوس» وكلمة «بيبلوس» تدل على كل مجلد أو تأليف بل أطلقت على الكتاب مطلقا .

ولقد سميت جبيل بأكثر من اسم على مر العصور، فتاريخها موغل فى القدم والدليل على ذلك الآثار المتراكمة فى طبقات عدة من أرضها [٢]. فقد سماها المصريون القدماء (كبنة) وسماها الإغريق (بيبلوس)، وهو تحريف لكلمة البردى "Papyrus" ، كما كانت تسمى «جبيلت» Giblet ، وقيل أنها سميت بذلك نسبة إلى Evaea «ايفاى» الابن السادس لكنعان الذى ينسب إليه نشأة هذه المدينة. كذلك سميت باسم «زيبليت» Ziblet [٣]. و«جبيال» Gibal فى التوراه. أما فى العصور الوسطى والحديثة فيطلق عليها اسم «جبيل» أو «بيبلوس»[٤]. وجبيل هذه ترجع إلى كلمتين هما: «جب - ايل» أى بيت الله فى اليونانية، ولاتزال كلمة «جب- ايل» مشهورة لدى اللبنانيين بمعنى جبيل .

١- ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ص١٠٩-١١٠ ، المؤيد عماد الدين اسماعيل، تقويم البلدان، ص٢٢٧، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١١٨ .

وأيضًا : John Poloner's , Description of the Holy land , in , P.P.T.S., vol . 6, p. 33 .

٢- الأب أميل أده : جبيل مهد الأبجدية ص١٩ .

٣- Marino Sanuto, Secrets for true Crusaders to help them to recover the Holy Land , trans, by Amury Stewart, London, 1890 in , P.P.T.S., p. 6 ; Fetellus, Descripiton of Jerusalem and the holy Land , in P.P.T.S., vol . 12 , p. 52 .

٤- Bruce , Byblos, p. 15 .

لقد أثرت مدينة جبيل فى الكتابة اليونانية إلى أبعد الحدود باعتبارها أكبر منتج ومصدر لأوراق البردى منذ أقدم العصور، فقد ذاع صيتها وأصبحت مركزًا ثقافيا هاما على مدى العصور، وبخاصة فى عصرها الإسلامى، فمنذ أن فتحت تلك المدينة أعتبرها المسلمون مركزا حيويا للكثير من الدارسين والباحثين(١).

ولقد تزايدت شهرتها نظرا لوقوعها على ساحل البحر المتوسط من أقصى الشمال، أى أنها كانت طريقا أساسيا عبرت عليه كل الحملات الصليبية التى قدمت إلى الشرق . ومن ثم زادت أطماع الفرنج فيها، خاصة وأنها كانت تتمتع بميناء عظيم الشأن. وكان يعد المرفأ الوحيد منذ أقدم العصور لتصدير الأخشاب التى كانت تستعمل فى بناء الدور والقصور. وقد استخدم الفرنج أخشابها لبناء القلاع والحصون الخاصة بهم داخل مدن بلاد الشام(٢). ويقع ميناء جبيل على مسافة قريبة من المدينة نفسها، وترجع شهرته إلى تصديره لكافة أنواع المحصولات التى كانت تنتجها جبيل من الموالح والكروم وغيرها من المحاصيل الأساسية التى كانت تعد دعما اقتصاديا هامًا للفرنج فى عصر الحروب الصليبية (٣). ولهذا اشتهرت باستقرارها وثرائها ورخائها.

وقد وصف ناصر خسرو المدينة أثناء زيارته لها أنها مثلثة الشكل، تطل زاوية منها على ساحل البحر(٤)، ويحيطها سور حصين شاهق الإرتفاع . وحولها الكثير من الأشجار والنخيل وبالقرب منها الميناء والسوق الضخم الذى كان يشمل كافة أنواع المعاملات التجارية (٥). كما شاهد العديد من الآثار القديمة والكنائس والمساجد والأسوار العالية التى كان الهدف منها

١- The Encyclopaedia of Islam, vol. I, p. 1057 .

٢- Jacques de Vitry, Bishop of Acre, Subsequently Cardinal Bishop, Tuscubusm Legate in France and Germany , in P.P.T.S., vol . II, p. 19 .

٣- Ludolph Von Suchem's Description of the Holy Land and the Way Thither in P.P.T.S., vol . 12 , p. 49 .

٤- ناصر خسرو علوى: سفر نامه ، نقله إلى العربية وعلق عليه دكتور يحيى الخشاب ص١٤٠ وأيضًا :
William of Tyre, History of the Deeds done beyond the Sea. t. 11, p. 476 .

٥- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٥، ص١١١ .

دفاعيا بحتا. ورغم هذا، فلم تذكر المصادر العربية أن المسلمين أثناء فتحهم لها لم يجدوا أى مقاومة من جبيل بل أن يزيد بن أبى سفيان لم يجد صعوبة تذكر فى الاستحواذ على المدينة بعد أحكام حصاره حولها. ويرجع هذا إلى القوة والسطوة التى اتسمت بها الدولة الإسلامية آنذاك. وقد ثار كثير من الخلاف بين المؤرخين حول تاريخ فتح مدينة جبيل. فقد انفرد ابن تغرى بردى بأنها فتحت عام ١٧هـ / ٦٣٧م ، بينما أجمع باقى المؤرخين المعاصرين أنها فتحت عام ١٨هـ / ٦٣٨م. ولعل ابن تغرى بردى يقصد هنا مدينة جبله وليس جبيل ، حيث أشار بعد ذلك إلى أنه فى عام ١٧هـ توجه عبادة بن الصامت وفتح المدينة التى تقع بالقرب من اللاذقية وهى من أعمال حلب والتى تسمى جبيل [1]. وهذا يوضح اللبس الذى وقع فيه المؤرخون الذين كتبوا عن جبيل فمن المعروف أن جبلة هى التى تقع بالقرب من اللاذقية ، أما جبيل فهى بين طرابلس وبيروت، وهى من أعمال طرابلس وليست من أعمال حلب. ويرجع هذا إلى أن هناك أكثر من موضع حمل اسم جبيل أو جبلة حسبما أسلفنا .

فمدينة جبلة اسم لأكثر من موضع . فهناك جبلة الشام على بعد أربعة عشر ميلا جنوبى اللاذقية وهناك جبلة أخرى من أعمال حمص، ومدينة تسمى جبلة بالحجاز وتقع فى وادى الستارة بتهامه ، وقيل أنها أول قرية بنيت بتهامه، وبها حصون منيعة لايرد منها أحد. كما وجدت جبلة أخرى وهى قرية لبنى عامر بن القيس بالبحرين، وجبلة خامسة باليمن وتسمى ذات النهرين وهى من أحسن مدن اليمن وأطيبها . كما وجد موضع آخر يسمى جبيل وهو اسم لجبل بالكوفة[2]. كما يوجد مدينة تسمى الجبيل على ساحل الخلية العربى وقرية أخرى تسمى جبيل فى منطقة الإحساء، وكلاهما بالمملكة العربية السعودية حاليا.

وعلى الرغم من هذا ، فاننا نجد أن فريقا من المؤرخين العرب واللاتين المعاصرين لتاريخ الحركة الصليبية والمتأخرين عنها زمنيا ، قد أطلقوا اسم جبلة على كافة الأحداث السياسية التى عاشتها كل من مدينة جبيل وجبلة، وخاصة «جبلة الشام» . لذا كانت مهمتنا عسيرة للبحث عن أى جبلة من بين هذه الأسماء هى التى يقصدها المؤلف. وفى كثير من الأحيان

١- البكرى الوزيرى : معجم ما استعجم ، جـ١ ، ص٢٢٩ ، ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٢ ، ص٢٥-٢٧ .

٢- ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ٢ ، ص١١٠ .

وجدنا أن كافة الأحداث السياسية التى كتبت عن جبيل وردت تحت اسم جبلة، غير أن بعض مؤرخى الحركة الصليبية من اللاتين حرصوا على ذكر أحداث جبيل تحت اسم «ببليوس» وقد ساعدنا هذا على إزالة الغموض واللبس اللذين وقع فيهما كل من كتب عن تاريخ جبيل، خاصة وأن الأحداث السياسية التى عاشتها جبيل محور هذا البحث بعيدة كل البعد عن تاريخ جبلة فى عصر الحروب الصليبية، ولذا أشار كل من المؤرخ لويس بربييه L. Brehier ورينيه جروسيه R. Grousset إلى أنه من الضرورى عدم الخلط بين جبيل الواقعة بالقرب من اللاذقية ، وجبيل التى كانت تسمى ببيلوس فى العصور القديمة (١). وهكذا وجدنا فى مصادر البحث ومراجعه أكثر من موضع يحمل اسم «جبيل» وكان علينا تحديد «جبيل» التى نعنيها (٢).

وقد قام عدد كبير من الرحالة العرب بزيارة المدينة، من بينهم ابن بطوطه الذى ذكر أن مدينة جبيل ذات أنهار مطردة وأشجارها غزيرة، وهى تقع على البحر وبها قبر الولى الصالح الشهيد إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه (٣). كما وصفها المؤرخ الحديث كندر Conder فقال أنها اشتهرت بالحدائق المرصوفة على الجانبين، والزهور الرائعة ، وأشجار البردى، وقصب السكر والبرتقال والموز(٤). واستمر هذا الحال طيلة الحكم الإسلامى لها إلى أن تعرضت المدينة للغزو الصليبى عام ١١٠٤م / ٤٩٧هـ، فلم يؤثر فيها الوجود الصليبى إلى أسوأ ، بل زادت شهرتها وازدهرت اقتصادياتها . كذلك ذكر بروس Bruce أن الزائر لمدينة جبيل فى العصر الوسيط كان يشاهد بها القلعة القديمة المخربة التى بناها الصليبيون، والكنائس المتعددة ، وميناءها الضخم، والأسوار العالية الشاهقة ، بالإضافة إلى الكثير من الآثار الفينيقية. ويذكر أيضا أنه كان يوجد بها جسر صغير بناه الصليبيون فوق مجرى مائى يعبر فوقه الزائرون للمدينة، ويصل هذه الجسر بالسوق الضخم الذى اشتهرت به المدينة كما أشار

١- Bréhier , Histoire de la Premiere Croisade , p. 187 ; Grousset Histoire des Croisades, t. 2, p. 498 .

وأيضًا : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص٣٥٩ .

٢- المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص٢٧ ، ٥٤ ، أبوالفداء: تقويم البلدان، ص٢٩ ، ١٠٥ ، ابن حوقل : صورة الأرض ، ص١٥٣ .

٣- ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص٧٨ ، ٢٨٣، ابن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك، ص١٣٣ .

٤- Conder , the Latin Kingdom of Jerusalem , p. 13; Bruce, Op.cit., p. 13 , 78 .

إلى حرص آل امبرياتشى أصحاب المدينة الجنويين إلى بناء الاستحكامات العسكرية والتى كان من أهمها «قلعة اللوردات» الخاصة بحاكم جبيل الصليبى، وتعد تلك القلعة من أقدم المنشآت العسكرية الصليبية على الساحل لبنان على الاطلاق ، كذلك أشار إلى وجود برج ضخم بناه بنو عمار أصحاب جبيل فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى «بداية القرن الخامس الهجرى» قبل استيلاء الصليبيين عليها، كانت مهمة هذا البرج استكشاف الخطر الصليبى أثناء تقدمه على الساحل.

ولقد ظلت مدينة جبيل بايدى المسلمين حتى عام ٣٥٧هـ / ٩٦٨م حين شكل البيزنطيون خطرا كبيرا على الخلافة العباسية التى كانت تعانى ضعفا شديدا من جراء الاضطرابات الداخلية فيها ، وتمكنت بيزنطة من فتح الكثير من ثغور المسلمين وذلك على عهد الإمبراطور نقفورفوقاس[١] الذى نجح فى أخذ معرة النعمان وكفر طاب وشيزر وحماة وجبيل ، وكان ذلك بعد وفاة سيف الدولة حاكم جبيل . واستمرت جبيل بايديهم حتى عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م، حين قام القاضى أبومحمد عبدالله بن منصور التنوخى المعروف بأبى ضليعه، وكان قاضيا لجبيل ، فأنقض على من بها من الروم وأخرجهم من المدينة واستعان فى ذلك بالقاضى جلال الدين بن عمار صاحب طرابلس ونادى بشعار المسلمين مرة أخرى، فانتقل من كان بها من الروم إلى طرابلس ولم يسئ إليهم ابن عمار الذى تمكن من وضع يده على المدينة[٢]. إلا أن الصراع المتجدد بين السلاجقة والعباسيين قد أثر على الظروف السياسية لمدينة جبيل . فقد تمكن البويهيون من السيطرة على أمور الحكم فيها، وأضحى الخلفاء العباسيون مجرد العوبة فى أيدى البويهيين. ومما زاد من تعقيد الأمور ظهور حركة البساسيرى التى كانت ترمى إلى نشر الدعوة الفاطمية فى العراق[٣]، يضاف إلى ذلك تزايد الخلافات المذهبية والسياسية العنيفة داخل الخلافة العباسية مما أدى إلى نجاح الحركة السلجوقية. فقد تمكن طغرلبك

١- السيد عبد العزيز سالم : البحرية الإسلامية فى عصر الضعف الفاطمى ، فى تاريخ البحرية المصرية، ص٤٨٢ .

٢- ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج٢ ، ص٢٥-٢٦ .

٣- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٦٨-٧٠ ، وأيضًا : محمد مرسى الشيخ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، ص٦٢ .

السلجوقى (١٠٣٧-١٠٦٣م / ٤٢٩-٤٥٦هـ) من استغلال هذا الضعف العباسى ودخل بغداد، واستطاع أن يكسب الكثيرين إلى جواره . وظهرت أطماعه بجلاء فى السيطرة على مدن الشام التى كان يحكمها الفاطميون الذين لم يكونوا أسعد حالا من العباسيين . فقد أحاطت بهم المشاكل الاقتصادية والسياسية مما أثر على القوة العسكرية الفاطمية، وأدى إلى ضعف سيطرتهم على مدن الشام. وقد أعطى هذا الوضع الفرصة لكثير من تلك المدن من رفع راية العصيان والخروج عن طاعة الفاطميين كما أعلن محمود بن صالح المرداسى صاحب حلب الولاء للسلطان السلجوقى ألب أرسلان (١٠٦٣-١٠٧٢م / ٤٥٦-٤٦٥هـ) . وتمكن أتز التركمانى السلجوقى من فتح الرملة وبيت المقدس عام ٤٦٣هـ / ١٠٦٩م. وقد حاول السلاجقة الاستيلاء على مصر ولكن باءت محاولتهم بالفشل[١]. وكانت مدينة جبيل من المدن التى رفعت راية العصيان ضد الفاطميين إلا أن الوزير الفاطمى بدر الجمالى قام بتوجيه جيوشه إلى بلاد الشام بعد محاولة السلاجقة الفاشلة لأخذ مصر. وقد تمكن من إخضاع ساحل فلسطين. ومن المدن التى أخضعها صيدا وجبيل وعكا وكان ذلك عام ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م[٢]. وعلى الرغم من هذا، فقد ذكر ابن تغرى بردى أن بدر الجمالى لم يتمكن من إعادة جبيل إلى حظيرة الفاطميين، وإنما استعاض عنها بمدينة بعلبك ولكن باقى المصادر، من عربية وأجنبية، اجمعت على أن مدينة جبيل ظلت تحت الحكم الفاطمى حتى عام ١١٠٤م / ٤٩٧هـ حين قدم الصليبيون إليها واستولوا عليها، وكان حاكمها آنذاك فخر الملك بن عمار وهذا يعنى أن مدينة جبيل كانت تحت السيادة الفاطمية حتى الغزو الصليبى لبلاد الشام فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى (أخريات القرن الخامس الهجرى).

وردا على هذا، فقد قام أتز التركمانى بطلب المساعدة من تاج الدولة تتش السلجوقى وبالفعل قدم تتش إلى دمشق لمساعدة أتز، فلما علم بدر الجمالى بذلك عاد مسرعا إلى مصر، الأمر الذى أتاح الفرصة لتتش من إعادة أحكام قبضة السلاجقة على معظم مدن الشام مرة أخرى. إلا أنهم لم يتمكنوا من اخضاع طرابلس أو جبيل للحكم السلجوقى.

١- محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطمين الخارجية ، ص١٥٢ .

٢- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٢٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨، ص١٣٠ .

ويتضح مما سبق أن مدينة جبيل شاركت مشاركة فعالة فى الصراع القائم بين السلاجقة والفاطميين ، وأن بنى عمار حرصوا على فرض سيطرتهم على المدينة نظرا لموقعها الاستراتيجى الهام على الساحل الشامى وكان هذا من الأسباب التى عجلت بسقوط تلك المدينة فى قبضة الصليبيين الذين لم يغفلوا عن أهمية هذا الثغر الساحلى الهام الذى كان له أكبر الأثر فى توطيد دعائم الوجود الصليبى ببلاد الشام. وقد حرصوا على أن يظل تحت سيطرتهم طوال العصر الصليبى، باستثناء سنوات قلائل عادت فيها إلى السيادة الإسلامية بعد استعادة صلاح الدين الأيوبى لها .

الفصل الأول
استيلاء الصليبيين على جبيل
(١١٠٤م / ٤٩٧هـ)

- دور جبيل، فى ظل السيادة الفاطمية، فى أحداث الحملة الصليبية الأولى - الصليبيون وفخر الملك عمار صاحب طرابلس وجبيل وجها لوجه أثناء الحملة الأولى -اختلاف الآراء حول تاريخ سقوط جبيل فى قبضة الفرنجة - ظروف استيلاء ريموند الصنجيلى على جبيل عام ١١٠٤م / ٤٩٧هـ ، ودور الجنوية فى ذلك -امتيازات الجنوية فى جبيل، وحصول أسرة امبرياتشى عليها كاملة -منشآت الصليبيين داخل جبيل، نشاطها الاقتصادى، وأهمية ذلك - العناصر التى تألفت منها جبيل.

تعتبر الحركة الصليبية التى قام بها الغرب الأوربى من اقصاه إلى اقصاه ضد العالم الإسلامى، وبخاصة فى منطقة الشرق الأدنى، والتى شغلت القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن للهجرة) من أبرز سمات العصور الوسطى الأوروبية . ففيها احتك الصليب بالهلال احتكاكا سياسيا واقتصاديا وثقافيا ، وفيها تقابل العالمان المسيحى والإسلامى وجها لوجه، واحتكا ببعضهما وتعارفا على بعضهما ، الأمر الذى تمخضت عنه نتائج بالغة الأهمية تركت آثارها على سير مجرى الأحداث لقرون عديدة تالية.

وعلى الرغم من البحوث والمؤلفات التى تناولت بعض جوانب هذه الحركة، سواء من الناحية السياسية أو الحضارية ، إلا أن هناك جوانب أخرى عديدة لم تنل حظها من الدراسة، ولاتزال بحاجة إلى مزيد من البحث والاستقصاء ، ومن بينها مدينة جبيل ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى.

وجبيل إن كان لها من أهمية، فذلك باعتبارها ثغرا ساحليا أطمع فيها الفرنج الذين كانوا يسعون إلى تكوين مراكز ساحلية متعددة على حوض البحر الشرقى للبحر المتوسط، ليتم لهم الاتصال بالغرب الأوربى من أجل الحصول على الامدادات الاقتصادية والعسكرية ، ولتكون جبيل وغيرها بمثابة قواعد لمزيد من الانتشار على ساحل الليفانت ، ولمزيد من السطوة العسكرية.

ولعل من أهم العوامل التى أسهمت فى سقوط مدينة جبيل هى تداعى القوة الفاطمية بقيادة فخر الملك بن عمار صاحب إمارة طرابلس وكانت جبيل تابعة لها آنذاك[١]. ولم يكن لفخر الملك بن عمار أى ميل تحو الحرب، بل كان يؤثر السلم، خاصة وأنه لم يكن لديه سوى جيش صغير متداع، اضطره إلى محاولة الاحتفاظ بقدر من الاستقلال الداخلى المضطرب [٢]. فى وقت لم يكن ينتظر فيه من الخلافة الفاطمية فى مصر أية مساعدة جدية، لأنها هى نفسها كانت تعانى من التدهور والانحلال . ففى نهاية عهده واجه الأمرين من جراء هجمات الفرنجة فى حملتهم الصليبية الأولى بقيادة ريموند Raymond ولم يكن له من معين سوى جهوده الذاتية وحتى حينما استنجد بمصر، فإن النجدات المصرية وصلت إليه فى وقت متأخر، ولم يكن لها دور فعال فى صد الهجمات الصليبية على طرابلس وجبيل.

وفى الواقع، لقد شهدت جبيل العديد من الضغوط السياسية، ومن بينها الخطر السلجوقى قبيل مجئ الصليبيين إلى الشرق. فقد كان ميزان القوى وقتها فى صالح اللاتين، ولم تقف آمالهم وأطماعهم فى الشام عند حد معين. ففى عام ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م فرضوا سيطرتهم على العديد من مدن الشام مما أدى إلى تقلص النفوذ الفاطمى فيها بصفه عامة وفى صور وجبيل التابعة لامارة طرابلس على وجه الخصوص [٣].

وقد حاولت تلك الإمارة المحافظة على استقلالها فى ظل أوضاع متغيرة. واعتبر الخطر السلجوقى وهجماته المتتالية على الممتلكات الفاطمية بمثابة بداية النهاية للقوة الفاطمية فى

١- السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، ص٧٦ .

٢- Runciman , A Hisory of the Crusades, vol , II, pp. 11-12 .

٣- Nanté , Histoire Du Liban., p. 55 .

مصر والشام. بل لقد كان هذا الخطر من أهم العوامل التى أثرت فى نجاح الحملات الصليبية، بما واكبه من ضعف الفاطميين الذين أصبحت دولتهم فى طور الإحتضار .

وإذا كان قد خصصنا هذا الفصل لسقوط مدينة جبيل فى قبضة الصليبيين عام ١١٠٤م / ٤٩٧هـ أى بعد انتهاء الحملة الأولى بسنوات قلائل فإن ذلك لايعنى أنه لم يكن لها دور فى أولى حملات الصليبيين على الشرق الأدنى الإسلامي. وهنا يثور تساؤل هام هو : لماذا تأخر سقوط جبيل حتى ذلك التاريخ ؟ فهى بحكم موقعها الجغرافى الهام على الساحل كانت مطمعا للصليبيين ولكنهم كانوا آنذاك أمام هدف أكبر ألا وهو بيت المقدس، بالإضافة إلى أن تبعية جبيل لإمارة طرابلس القوية جعلها تنعم بقسط من القوة العسكرية. فلقد قاومت طرابلس الهجمات الصليبية المتتالية عليها هى وتوابعها من قبل ريموند الصنجيلى فى الفترة من ٤٩٥ إلى ٥٠٢هـ / ١١٠٢ إلى ١١٠٩م . فكأن مقاومة جبيل إنما كانت تحت راية طرابلس نفسها باعتبارها تابعا صغيرا من توابع الإمارة . ومقاومة طرابلس هذه لاتعنى شيئا سوى أنها لم تكن فريسة سهلة للصليبيين.

ولقد ذكرت جميع المصادر المعاصرة للفترة موضوع البحث والمتأخرة عنها زمنيا، أن جبيل إبان مسيرة الصليبيين نحو بيت المقدس كانت ضمن المدن التى مروا بها دون أن يمسوها فقد آثروا اتخاذ الطريق الساحلى المار بطرابلس وجبيل وبيروت [٢]. على الرغم من وعورته إلا أنه كان له فائدة كبرى للصليبيين ، إذ هيأ لهم امتلاك مدن هامة مثل قيسارية ويافا وغيرهما من المعاقل الساحلية الواقعة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط[٣]. ولقد روت هذه المصادر أن جبيل لعبت دورا بارزا فى أحداث الحملة الأولى. ذلك أن فخر الملك ابن عمار صاحب طرابلس التقى بالصليبيين على الساحل فى اليوم العاشر من شهر مايو ١٠٩٩م / ١٦ من جمادى الآخرة ٤٩٢هـ . وعقد معهم اتفاقا تم بمقتضاه منحهم ١٥ ألف بيزنط

١- Gesta Tancredi In Expeditione Hieroslymitane, Auctor Radulfo Codomensi, R.H.C., - H. Occ.t, III, p. 683 .

أنظر أيضًا العليمي: الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل، مخطوط ، ورقة ١٥٥، السلامي: مختصر التواريخ ، مخطوط ، ورقة ٥٤ .

٢- Runciman , Op. cit., vol . II, p. 74 .

و١٥٠ من أجود أنواع الجياد والحمير، كما أطلق سراح ٣٠٠ من رجال الصليبيين كانوا لدى المسلمين [١]. وكان واضحا أنه ليس بوسعه الصمود أمام القوة الصليبية الزاحفة. ولم يضيع الصليبيين أية فرصة للحصول على بيت المقدس أو أية مدينة ساحلية، خاصة وأن هذا الوقت من العام كان يتفق وجنى محاصيل المدن الساحلية ومن بينها القمح، مما يسهل عملية تموين جيوشهم التى قاربت مؤنها على النفاذ [٢].

ونظرا لأن جبيل كانت من توابع طرابلس فى ظل حكم بنى عمار، فقد ذكرت المصادر أن الصليبيين بعد أن رحلوا عن طرابلس تقدموا تجاه جبيل دون أن يمسوها هى الأخرى بسوء[٣].

وثمة روايات أخرى عن بعض شهود العيان المعاصرين لسيرة الحملة أوردها كافارو Caf-faro الجنوى الأصل، إذ قال «إن حاكم طرابلس ، تلك المدينة ذات الثروة والمجد، حين وجد القوات قد أخذت مواقعها أمام أبواب ولايته، أرسل للجيش الأول بقيادة جودفرى وريموند وروبرت الفلمنكى وروبرت النورمانى يطلب الاتفاق معهم على أن يبذل لهم العطايا أيا كانت وحيثما يقدرونها، على أن يحصل على أرضه سلما وأن يحصل أيضا على مدينة جبيل . كما ذكر أنهم بعد أن وصلوا قبالة طرابلس لم تقاوم حاميتها إلى أن بلغوا مدينة جبيل. وأن دل هذا على شئ ، فإنما يدل على مدى اهتمامه بالحفاظ على جبيل .

فقد توسل أميرهم إليهم ألايعيثوا فسادا فى المدينة. وقد أمضوا ليلتهم بحذاء البحر ذى المياه العذبة[٤]. والمقصود هنا نهر الكلب. ويفهم من هذا النص أن الفرنج ربما يكونوا قد استولوا على مدينة جبيل ، وأنه نتيجة لذلك كان اتفاقهم مع ابن عمار صاحب طرابلس الذى

١- Guberti Abbatis, Gesta Deiper Francos , R.H.C.- H. Occ., t . IV, p. 222 .

٢- Gesta Francorum Expugnatium Iherusalem , R.H.C.- H. Occ., t. III, p. 507 ; Roberti Monachi , Histoire Iheruslimitona, R. H. C.- H. Occ., t. III, pp. 807 , 857 ; Baldrici, Histoire Jeruslimitana, R.H.C.- H. Occ., t. IV, p. 94 .

٣- Anonymous, Gesta Francorum, t. III, p. 158 ; Abberti Aquensis, R.H.C.- H. Occ., t. IV, p. 530 , Cf. also ; Roberti Monachi, Op. cit., t. III, p. 858 , Narrationionises Minores, R.H.C.- H. Occ., t. V, p. 384 .

٤- Caffaro , Liberatio Civitatium, R.H.C.- H. Occ., t.V, p. 407 .

بذل لهم ما أرادوا من العطايات مقابل الرحيل من المدينة، ولكن اطلاق سراح أسرى الفرنج من قبل ابن عمار والهبات التى منحها لهم، لايعنى بالمرة أنهم قد استولوا على إحدى المدن التابعة له، ولكنه ربما يكون قد هادنهم حتى يضمن رحيلهم عن حدود إمارته، ولكى يتمكن من تنظيم جيوشه فى محاولة يائسة منه لإبعاد هذا الخطر الصليبى المفاجئ . ويعزز ذلك أن مدينة جبيل، باجماع المؤرخين اللاتين المعاصرين ، لم تسقط فى عام ١٠٩٩م / ٤٩٢هـ، ولكنها سقطت فى ١١٠٤م / ٤٩٧هـ أى بعد سقوط بيت المقدس بحوالى خمس سنوات. وعلى الرغم من رواية كفارو التى أومأت إلى وجود صليبى داخل جبيل أو بالقرب منها، فإن هذا نفس ما أكده روبرت الراهب من أنه فى اليوم الرابع من شهر مايو ١٠٩٩م / ١٠ من جمادى الآخرة ٤٩٢هـ خرج الفرنج من أمام طرابلس وسلكوا طريقا جبليا ووصلوا إلى مدينة جبيل فى اليوم التالى ولم يجدوا فيها ماء مما جعلهم يواجهون عطشا شديدا هم وجيادهم ، وكان الصيف قد حل والجفاف قد اشتد ، ثم وصلوا بعد ذلك إلى نهر الكلب وتلقى هذه الرواية الضوء على قضية هامة واجهتنا وهى: هل المقصود بذلك جبيل محور الدراسة أم جبلة ؟ وما هو الفارق بين جبلة وجبيل وموقفهما من تلك الأحداث ؟ إذا كان يعنى جبلة فإنها جغرافيا تقع على بعد ١٤ ميلا من اللاذقية، أما جبيل موضوع بحثنا فهى جنوب طرابلس . ولعل الأمر قد التبس على بعض المؤرخين القدامى والحديثين فلم يفرقوا بينهما.

ففى أثناء مسيرة الصليبيين على الساحل تجاه بيت المقدس قاموا بمحاصرة جبلة مما جعل حاكمها من قبل الخليفة الفاطمى يسرع بالتودد إليهم ومهادنتهم مقابل مبلغ من المال والعديد من الهدايا النفيسة [١].

وهذا ما يوافق ما ذكره كافة المؤرخين السابقين من أن المقصود هنا جبلة وليس جبيل ، وكلتاهما تتبعان إمارة طرابلس أثناء حكم فخر الملك بن عمار. أما بشأن ما كان بين فخر الملك والصليبيين آنذاك، فثمة رواية أخرى مفادها أنه فى محاولة منه لإبعاد الصليبيين عن إمارته ، وعدهم باعتناق الديانة المسيحية إذا ما نجحوا فى الحصول على بيت المقدس، وإن إمارته سوف تكون فى أمانتهم[٢] وهذه الرواية موضع شك ولايقبلها العقل. وربما يكون قد وعدهم

١- مصطفى الكنانى : العلاقات بين جنوة والفاطميين ص١٠٤ .

ويقع نهر الكلب بين وصيدا وهو من سواحل عواصم الشام أنظر ياقوت الحموى: معجم البلدان ، المجلد الرابع ، ق٢ ، ص٨٣٣ .

٢- Baldrici Episcopi, Op. cit, p. 94 , cf . also , Gesta Francorum, Op. cit, p. 158 .

بذلك بغية الخداع وكسب الوقت لحين وصول النجدات الإسلامية التى كان قد بعث فى طلبها ، وبخاصة من مصر، ولكن الصليبيين لم يقتنعوا بتلك المهادنة أو بتلك الوعود .

فقد كان هدفهم هو فرض سيطرتهم الكاملة على كل مدن الساحل بل كانوا يحلمون إذا ما حصلوا على بيت المقدس فإن طرابلس ستكون لهم (١). ولو كانت قد سنحت الفرصة فى امتلاكها هى أو غيرها عند نهاية حملتهم، لاقدموا على ذلك بصرف النظر عن أى مهادنة أو اتفاق .

هذا وقد اختلف بعض المؤرخين الحديثين بشأن اليوم الذى عبر فيه الصليبيون مدينة جبيل، وموقفهم من المدينة. فيذكر شالندون Chalndon أنهم وصلوا قابلتها فى ١٩ مايو ١٠٩٩م / ٢٥ من جمادى الآخرة ٤٩٢هـ أثناء سيرهم نحو بيت المقدس وأنهم عبروا الطريق المؤدى إليهم(٢). فى حين لم يحدد لويس بريبه Louis Brehier يوم وصولهم أمامها، واكتفى بقوله أنهم وصلوا فى شهر مايو ١٠٩٩م / جمادى الآخرة ٤٩٢هـ إلى الطريق المؤدى إلى المدينة المعروفة باسم بيبلوس فى التاريخ القديم وجيبلون Gibelon فى العصر الوسيط وجبيل فى العصر الحديث(٣). وقد ذكر ستون Setton أنه فى مارس ١٠٩٩م / جمادى الآخرة ٤٩٢هـ (٤). سار الفرنج بحذاء الساحل ، وعبروا طرابلس فجبيل بالقرب من بيروت(٥) وعندما بلغوا يافا مكثوا هناك، وكان ذلك التحديد الزمنى من قبل ستون غير ملائم للظروف الجغرافية التى أشار إليها المعاصرون من أن الحر كان قد اشتد وأنهم واجهوا العطش الزائد فى هذه المدينة لقرب دخول فصل الصيف وهو وقت جمع المحاصيل ، وأكد رينيه جروسيه ذلك، إذ ذكر أنهم بلغوا نهر الكلب وهو الحد الأدنى الجنوبى لطرابلس يوم ١٦ مايو ١٠٩٩م / ٢٢جمادى الآخرة ٤٩٢هـ ثم وصلوا إلى جبيل ومنها إلى بيروت (٦). والرأى الأرجح أن وصولهم أمام جبيل كان فى شهر مايو وليس مارس ١٠٩٩م/ جمادى الآخرة وليس جمادى الأولى ٤٩١هـ للأسباب التى أوردناها .

١- Guberti Abbatis, Op. cit., p. 222; Tudelodus Imitatus et Continuatus; Historia Peregrinorum R.H.C.H. Occ., t. III, p. 212 .

٢- Chalndon, F., Histoire de la Premiere Croisade Jusqual', election de Goodefroi de Bouillons , p. 266

٣- Brehier , L. Historre de la Premiere Croisade , p. 191 .

٤- Setton, K.M., A History of the Crusades, vol ., I, p. 364 .

٥- Grousset, Op. cit., t. I, p. 142 .

٦- Gesta Francorum , Op. cit., t. III, p. 158 ; cf. also ; Grousset, Op. cit., t. I, p. 142 .

وهكذا، فإذا كانت الحملة الأولى قد واجهت الأمرين أثناء سيرها، فقد اضطرت جبيل لمساعدة الفرنج إما رغما عنها أو رغبة منهم فيها وذلك أثناء مسيرتهم الشاقة من أجل الاستيلاء على بيت المقدس، فامدتهم بالخيل والرجال والأموال عن طريق الاتفاقيات التى تمت بينهم وبين ابن عمار . بل أن تلك المساعدات أفادت القوات الصليبية باعتراف الصليبيين أنفسهم. هذا، بالإضافة إلى وجود مرشدين من إمارة طرابلس نفسها ساروا مع الفرنج وهم من مسيحى لبنان، بحيث لم يبق ثمة شئ يخشونه بفضل أولئك المرشدين عندما عبروا الممر الضيق بين الجبل والبحر من طرابلس إلى بيروت .

وهكذا، فاذا كان سقوط بيت المقدس قد تم عام ١٠٩٩م / ٤٩٢هـ[١] وجبيل لاتزال تحت السيادة الإسلامية ، فإنها سوف تكون تابعًا غير مباشر لملك بيت المقدس اللاتينى بحكم تبعية كونتية طرابلس له فيما بعد . وسوف تسهم بدور بارز فى جميع الأحداث السياسية التى كان الشرق الأدنى مسرحا لها طيلة الحروب الصليبية، وذلك بقيادة حكامها الجنوية الممثلين فى أسرة امبرياتشى .

وإذا كنا قد اعتمدنا فى سرد الأحداث الخاصة بجبيل أثناء تقدم الصليبيين نحو بيت المقدس على المصادر والمراجع الأجنبية دون العربية، فلم يكن هذا إلا لأن الأصول العربية من معاصرة وغير معاصرة لم تسعفنا بأية اشارات عن تلك الحقبة الهامة من تاريخ جبيل، وبعد التنقيب فى تلك المصادر لم نعثر على ما يدعم ما روته المصادر الأجنبية أو العربية أو ينفيه. ولم يكن أمامنا إلا الاعتماد على ما ورد فيها بعد تمحيصه وبعد المقارنات والموازنات التاريخية التى عقدناها.

وكيفما كان الأمر، فاذا كان سقوط بيت المقدس قد دعم القوى الصليبية فى الشرق ، ومنحها مزيدًا من النجاح فى سبيل الاستيلاء على مدن الساحل، فإن جبيل كانت من تلك المدن التى لم تجد من يساندها لكى تقاوم هجمات الصليبيين التى حدثت فى وقت كانت فيه القوة الإسلامية الحاكمة فى منطقة الشرق الأدنى غاية فى الضعف. ولذا فسوف يتضح أن سقوط جبيل ارتبط إلى حد بعيد بمقياس القوة والضعف داخل طرابلس نفسها.

١- السيوطى : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد أبو الفضل ص٤٧٩؛ البغدادى : عيون الأخبار ممن مضى من سالف العصر والأزمان، ج٢ ، ورقة ٣٨ .

لقد تعرضت مدينة طرابلس بعد تأسيس امارتى الرها فى أعالى العراق وأنطاكية فى أعالى الشام ومملكة بيت المقدس فى قلب فلسطين، لهجمات مستمرة من قبل الصليبيين بقيادة ريموند الصنجيلى فى الفترة من عام ١١٠٢م / ٤٩٥هـ وحتى عام ١١٠٩م/ ٥٠٢هـ . وصمدت المدينة فى البداية بما لديها من قوة ضد هذه الهجمات، ولكن ذلك لم يدم طويلا أمام أصرار ريموند على تكوين امارة خاصة به، بعد أن فشل فى الحصول على أنطاكية لنفسه مما أدى إلى صراعه مع بوهيمند النورماندى ابن روبرت جيسكار أحد زعماء الحملة الأولى والذى استأثر بانطاكية لنفسه. وقد دفعه هذا إلى السير نحو مدينة حلب بهدف الحصول عليها، ولكنه وجد معارضة من جانب القادة الفرنج الآخرين ، فضلا عن أنه لم يكن من السهل الحصول على المدن الإسلامية الداخلية، فاستغل ريموند بقايا الصليبيين القادمين من الحملة الأولى وكانوا غير منظمين، للإقدام على عمل عسكرى ضخم يحقق له هدفه فى تأسيس امارة له إسوة بباقى زملائه الصليبيين . وكان ريموند محظوظا إلى حد بعيد ، حيث اعتمد على الأساطيل الجنوية التى وصلت إلى المياه الشامية آنذاك، وكانت مدعمة بكافة الاحتياجات العسكرية والاقتصادية ولم تكن المدينة قد سقطت بعد فى قبضة الفرنج. واستطاع أن يستولى على انطرطوس من ابن عمار عام ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م، وجعل منها مركزا لامارته التى يحلم بها. ولم يشأ ريموند الصنجيلى أن يضيع عليه فرصة غزو طرابلس. وبالفعل هاجم المدينة. ولكن أولئك الجند الذين لم يقفوا إلى جواره بل تركوه واتجهوا إلى بيت المقدس فى حين استعان فخر الملك ابن عمار بصاحب دمشق طغتكين وصاحب حمص جناح الدولة، ودخل الجميع فى اشتباك مع ريموند انتهى بهزيمتهم . واحكم ريموند حصاره حول المدينة بمساعدة الموارنة (١). ولكنها صمدت مما اضطره لرفع الحصار عنها. وكانت هذه إحدى مراحل اصراره على أخذ طرابلس (٢).

وإذا كنا سنتعرض لهذه المحاولات المتكررة من قبل ريموند للاستيلاء على طرابلس، فإن هذا ليس سوى انعكاس للحالة السياسية التى عاشتها مدينة جبيل باعتبارها احدى توابع امارة طرابلس آنذاك. وهذا يعنى أن جبيل، وهى محور هذا البحث ، سوف ترتبط بشكل أو بآخر بامارة طرابلس فى الفترة المبكرة من تاريخ الحركة الصليبية . فقد كانت مقاومة

١- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ١٠ ، ص٤١١ .

٢- السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص٩٠-٩٢ .

طرابلس المستمرة قبل سقوطها فى قبضة اللاتين، ما هى إلا مقاومة ضمنية من قبل جبيل ضد أولئك الدخلاء، إلى أن انتهت محاولاتهم بسقوط جبيل ثم طرابلس من بعدها فى قبضتهم.

ففى عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م عاود ريموند حصاره حول طرابلس بمساعدة الجنوية. وكانت جنوة إحدى المدن الإيطالية التى لايهمها مع من تتعامل سياسيا، بقدر ما يهمها من تحقيق المكاسب التجارية بمساعداتها لريموند وغيره من القادة اللاتين ، فالجنوية تجار أولا وأخيرا . ولذا لم يبخلوا على ريموند بالمساعدات مقابل وعوده بالامتيازات التى سوف يحصلون عليها داخل أية مدينة تسقط فى أيديهم . ففى العام المذكور ضربوا حصارا شديدا برا وبحرا حول مدينة جبيل، ولم تكن جبيل فى الواقع هى الهدف الأول من قبل ريموند . بل بدأ أولا بحصار طرابلس ولكن استطاعت طرابلس أن تقاوم الحصار نظرا لمناعتها بحكم وقوعها على الساحل إلى أن وصل الأسطول الجنوى الذى أسرع ريموند إليه وبالكثير من الوعود لمعاونته فى فتحها . ولكن محاولاته باءت بالفشل، ولم يتمكن من الحصول عليها مما اضطره إلى رفع الحصار عنها والتوجه إلى جبيل .

وهنا نجد أنفسنا أمام قضية أخرى هامة تناولها بعض المؤرخين. إذ ذكروا أن مدينة طرابلس سقطت أولا ثم سقطت بعدها مدينة جبيل. ولابد من وقفه لمناقشة هذه الآراء. فمن المعروف أنه بعد أن حاصر ريموند مدينة طرابلس وجد أنها من المنعة بحيث لم يقدر على أخذها ، فسار عنها إلى جبيل كان هذا فى عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م. وكانت هذه احدى محاولات ريموند المتكررة للحصول على طرابلس والتى انتهت بالفشل. فكان البديل هو محاولة الحصول على جبيل أولا ومنها يسعى لامتلاك طرابلس. وعلى الرغم من هذا ، فقد ذكر العينى «أن الفرنج ساروا عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م وقصدوا الشام، وقد وصل الصنجيلى مددًا فحاصر مدينة طرابلس واستولى عليها بالأمان (١).

أما ابن تغرى بردى فيذكر أنه «عام ٤٩٦هـ/ ١١٠٣م لما علم الفرنج بحال طرابلس وتحققوا أمرهم حملوا حملة رجل واحد فى يوم الاثنين الحادى عشر من ذى الحجة ٤٩٦هـ / ١٥ سبتمبر ١١٠٣م وهجموا على طرابلس وأخذوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم»(٢). يلاحظ أنه أورد سقوط طرابلس تحت أحداث عام ٤٩٦هـ / ١١٠٣م ،

١- العينى: عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، جـ١ ، ق٢ ، لوحة ٥٨٣-٥٨٤ .

٢- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ٥ ، ص١٨٠ .

بينما عاد ابن تغرى بردى وذكر فى نفس المصدر، ولكن تحت الأحداث عام ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م، «أن الفرنج قصدوا طرابلس فى العام المذكور وأخذوها بعد أن اجتمع عليها ملوك الفرنج مع ريموند الصنجيلى»(١).

بينما أورد ابن الفرات «أنه عام ٥٠٣هـ/ ١١١٠م لما نزل الفرنج بطرابلس ، صار طنكرى صاحب أنطاكية إلى حصن بانياس وتسلمه بامان...»، ثم أخذوا طرابلس وكان بها فخر الملك بن عمار مقيما عند الأمير أسامة بن منقذ . ثم خرج إلى حصن جبيل وأقام فيه بعد أن حصنه بالميرة والسلاح فسار إليه صاحب أنطاكية .. إلى أن تسلم منه حصن جبيل وخرج ابن عمار منه سالما فقصد شيزر، وأكرمه صاحبها الأمير سلطان بن على ابن منقذ وملك طنكرى حصن جبيل (٢). ويؤيد ابن خلدون رواية ابن الفرات، إذ ذكر تحت أحداث عام ٥٠٣هـ/ ١١١٠م «أن طنكرى صاحب أنطاكية وبغدوين ملك بيت المقدس ... تمكنا من محاصرة طرابلس ونصبوا عليها الأبراج، فاشتد بهم الحصار وعدم القوت وملكوها وكان النائب فيها قد استأمن إلى الفرنج قبل ذلك بليال ثم نزلوا على مدينة جبيل وبها فخر الملك بن عمار وملكوها (٣). وهكذا نجد اختلافًا بينًا بين المؤرخين القدامى حول تاريخ سقوط طرابلس وجبيل، وأيهما سقطت أولا فى قبضة الفرنج(٤).

كما أورد كفارو ضمن أحداث عام ١١٠٩م / ٥٠٢هـ أن برتراند Bertrand ابن ريموند الصنجيلى الذى قدم من أوربا ليرث ممتلكات أبيه، حضر مع بعض السفن الجنوية وقوموا بحصار طرابلس حصارا محكما . وبعد جهد عظيم بواسطة آلات الحرب والرجال الأشداء سقطت المدينة (٥).

١- ابن تغرى بردى: المصدر السابق ، جـ٥ ، ص١٧٨ .

٢- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، المجلد الأول، لوحة ٣٩ .

٣- ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأعظم ، ص٤٠٨-٤٠٩ .

٤- السلامى : مختصر التواريخ ، مخطوط، ورقة ٥٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص٧٦ .

٥- Caffaro , Op. cit., pp. 70-72 ; cf also : Foucher of Charter , pp. 159-196 .

ولم تكن هذه المرة الأولى التى خلط فيها المؤرخين بين مدينتى جبلة وجبيل فقد حدث نفس الشئ عندما مر الصليبيون أمام جبيل فى طريقهم إلى بيت المقدس فى الحملة الأولى واستولوا على جبلة ثم تنازلوا عنها لابن عمار باتفاقية أبرمت بينهما وتصور العديد من المؤرخين أنها جبيل وليس جبلة (١)، فذلك نظرا لارتباط جبيل إلى حد بعيد بامارة طرابلس فى كافة الأحداث السياسية التى مرت بها إبان الفترة الزمنية موضوع الدراسة. فبعد أن فشل ريموند الصنجيلى فى عام ١١٠٤م / ٤٩٧هـ فى أخذ طرابلس بعد محاولة يائسة منه بمساعدة أساطيل الجنوية، نظرا لصمود ابن عمار على الرغم من القوة العسكرية المتواضعة داخل المدينة، اعتمد ريموند على الحصار البرى مما جعل ابن عمار يستغل الفرصة ويضغط على قوات ريموند البحرية فاضطر الأخير إلى رفع الحصار عنها، واتجه إلى مدينة جبيل وكان ذلك بفضل معاونة أمير البحر الجنوى هيو امبرياكو Huge Ambiraco الجد الأكبر لأسرة امبرياتشى التى لعبت دورا كبيرا ليس داخل جبيل وحدها ولكن فى فى كل أنحاء الشرق الأدنى منذ باكورة الحملات الصليبية على الشام(٢).

١- Albert Aquensis, R.H.C.- H. Occ. t., III, p. 454 ; cf . also Gesta Dei Per Francos , R.H.C.- H. Occ. t, III.p. 217 .

٢- لقد قام كل من وليام امبرياكو William Ambriaco وأخوه بريموس Primos بدور لا يستهان به فى حصار أنطاكية ، إذ كانا على قيادة أسطول جنوى كبير ساهم فى أحكام الحصار حول المدينة كذلك أسهمت أسرة امبرياتشى فى حصار بيت المقدس ، حتى لقد قيل أن وليام امبرياكو كان أول من وطأتها أقدامه، وقد ذكر المؤرخ فوشيه Foucher أن الملك بلدوين عندما علم بوصول أسطول جنوى إلى الشام خرج بصحبته لاستقباله تقديراً منه للجهود التى بذلها الجنويين فى حصار العديد من مدن الساحل الشامى، كذلك قامت الأسرة المذكورة بدور فى حصار عسقلان. فقد ذكر أن وليام امبرياكو وأخيه بريموس عادا إلى جنوه ومعهما غنائم هائلة من عسقلان . كذلك كان لهما دور فعال فى سقوط عكا وفتح انطرطوس عام ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م حين وقفا إلى جانب ريموند الصنجيلى بعد فشله المتكرر فى تأسيس امارة خاصة به فى أنطاكية أو طرابلس...) وللمزيد أنظر: ابن ميسر، منتخبات من تاريخ ابن ميسر ، R. H.C. - H. Or . V . III, p. 465.

وأيضا : السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص٩٤ ، مصطفى الكنانى : المرجع السابق ، ص٩١ .

لقد كانت جبيل مسرحًا برز فيه دور أسرة ابمرياتشى فى الشرق الأدنى . ذلك أنه بعد أن تضاءل أمل ريموند الصنجيلى فى فتح مدينة طرابلس عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م، سار عنها متجهًا نحو مدينة جبيل التى لم تكن تقل أهمية عن أى من المدن الكبيرة التى كانت هدفًا لهم لتحقيق أكبر قدر من المكاسب التجارية، ولتسهيل مهمة الحصول على الإمدادات الاقتصادية والعسكرية من أوروبا عبر البحر المتوسط ولم تكن جبيل آنذاك أحسن حالاً من غيرها من مدن الشام فكما ذكرنا كانت الدولة الفاطمية تعانى من الضعف والاضمحلال ، وانعكس هذا على استعداد جبيل العسكرى لمجابهة الخطر الصليبى المحدق بها، فلقد ضرب ريموند حصارًا بريًا وبحريًا حول المدينة. وتحدث العديد من المؤرخين العرب واللاتين القدامى عن حصار الفرنج لمدينة جبيل دون التعرض لرد فعل أهلها وحاميتها العسكرية حيال هذا الحصار ومما يؤسف له أن المصادر التى تحت أيدينا، ، من عربية وأجنبية ، معاصرة ومتأخرة ، خطية ومطبوعة أغفلت الكثير من المعلومات التى لو كانت قد زودتنا بها لألقت الضوء على الكثير من القضايا التى تتعلق بهذا الموضوع . فلم نعرف ، مثلاً ، من تولى أمرها من قبل ابن عمار ، وطبيعة الحصار ، وتاريخ هذا الحصار على وجه التحديد ، وظروف تسليم المدينة. ولانجد أيضًا تعليلاً معقولاً لذلك، فبالنسبة للفرنج تميزت الحملة الصليبية الأولى والحملات التى تلتها بوجود العديد من المؤرخين اللاتين الذين سجلوا أحداث الاستيلاء على مدن الساحل الشامى بتفصيل وأسهاب كبيرين ، بينما لم تنل جبيل نفس القدر من عنايتهم واهتمامهم. بالنسبة للمؤرخين العرب فربما يرجع عدم ذكر الظروف والملابسات التى أحاطت بسقوط جبيل إلى طريقة السرد الحولى التى اتبعوها والتى لم تكن تسمح بعرض أى حدث متكامل ومرة واحدة بوضوح وتفصيل . إذ لم يتخصص العرب- بصفة عامة- فى الكتابة فى مواضيع مستقلة قائمة بذاتها، على عكس اللاتين الذين بدأوا مع بداية الحركة الصليبية الكتابة فى موضوعات متخصصة، فى حين أغفل المسلمون ذلك، وخصوصًا فى الفترة المبكرة من الحركة الصليبية.

لقد ضنت علينا تلك المصادر بمعلومات كنا بحاجة إليها، وكل ما ورد فى المصادر العربية، عبارات قليلة مفادها أنه فى عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م حاصر الفرنج جبيل ، وأن حاميتها لم تقاوم فسلمت المدينة لهم. وعلى هذا فكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد أن جبيل أبدت نفس المقاومة التى أبدتها طرابلس بحكم تبعيتها لها تحت حكم ابن عمار. فبعد أن بذل حاكم طرابلس ما استطاع للتخلص من حصار ريموند والجنوية لمدينته ، يبدو أنه قد تهاون بعض الشئ فى

الحفاظ على جبيل كيلاً تقع فريسة سهلة فى أفواه الصليبيين. وبكلمة أدق فى التعبير، يبدو وكأنه جعل من حفاظه على طرابلس هدفًا أسمى على حساب جبيل. ولعل هذا قد أعطى الفرصة للفرنج لتطويق المدينتين معًا، ليكونا نهبًا لشراسة ريموند الصنجيلى والجنوية. ويعزز ذلك ما جاء فى المصادر العربية بقول ابن القلانسى «أنه فى عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م وصلت مراكب للافرنج إلى مدينة اللاذقية فيها التجار والمقاتلون والحجاج، وقد استعان بهم ريموند الصنجيلى على حصار طرابلس فحاصروها ولم يروا فيها مطمعًا فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل وحاصروها وقاتلوا عليها قتالاً شديدًا. فلما رأى أهلها عجزهم طلبوا الأمان على تسليمها لريموند، ولم يف لهم وأخذ الفرنج أموالهم وعذبوهم»[1].

ولقد تضاربت آراء قدامى المؤرخين فى هذا الصدد بل أننا نجد أحيانًا التناقض فى أقوال المؤرخ الواحد: فقد ذكر العينى «أنه فى عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م قصد الفرنج الشام وقد وصل للصنجيلى مددًا فسار بهم إلى طرابلس وتسلمها بالأمان ثم سار إلى عكا ووصل جمع إلى القدس فحاصروها، وأن بلدوين صاحب بيت المقدس فيما بعد سار نحو عكا وأخذها بالسيف. ثم يعود ليذكر «أنه فى نفس العام نزل الفرنج على طرابلس مع صنجيل وأقاموا أيامًا، ورحلوا إلى جبيل فأمنوا أهلها ودخلوها، ثم غدروا بأهلها فقتلوهم وكان صنجيل صاحب أنطاكية قد بنى على طرابلس حصنًا ليأخذ به المدينة، وشحنه بالرجال والأموال والسلاح. فخرج القاضى فخر الملك بن عمار وهجم الحصن على غرة فقتل من فيه ونهبه...»[2].

وهكذا يبدو التناقض بين الروايتين حول سقوط طرابلس. فمن المعروف أن المدينة لم تسقط عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م بل بعد ذلك التاريخ [3]. أما ما ذكره العينى عن حصار بيت المقدس فى العام المذكور، فربما مرجعه إلى الصراع الذى نشب بين ريموند الصنجيلى والقادة الآخرين الذين عارضوه أكثر من مرة فى تكوين امارة خاصة به. «ورواية العينى أيضًا غير صحيحة

١- ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص١٤٣. أنظر أيضًا: النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، مخطوط، جـ٢٦، لوحة ٧٨.

٢- العينى، عقد الجمان، ج١، ق٣، لوحة ٥٧٠.

٣- سنتعرض لذلك تفصيلاً فيما بعد.

فيما ذكره من أن الصنجيلى هو صاحب أنطاكية، لأن تنكريد Tancred هو الذى كان متوليًا أمر أنطاكية آنذاك، ولم يكن للصنجيلى سوى بعض الحقوق داخل المدينة نظير مساعداته فى حصارها.

هذا، ولقد اتفق كثير من المؤرخين على أن سقوط جبيل كان عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م وليس عام ٥٠٢هـ/ ١١٠٩م «ففى هذا العام وصلت العديد من مراكب الأفرنج إلى مدينة اللاذقية، واستعان بهم ريموند لفتح طرابلس. ولكنه حين فشل فى الاستيلاء على المدينة، رحل عنها إلى مدينة جبيل فحاصروها وقاتلوا عليها قتالاً شديدًا . فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أمانا وسلموا البلد إليهم فلم تف الفرنج لهم بالأمان وأخذوا أموالهم واستنفذوها بالعقوبات وأنواع التعذيب .. ثم ساروا منها إلى عكا»(٢).

ولقد أجمعت المصادر ، من عربية ولاتينية، على أن الفرنج لم يحسنوا معاملة أهل جبيل رغم وعودهم لهم بالأمان . وجدير بالذكر أن بعض المؤرخين العرب أمثال ابن الأثير والنويرى وابن الفرات لم يتعرضوا فى مؤلفاتهم للتاريخ المحدد لسقوط المدينة، فى حين ذكر كفارو «أنه فى العام التالى لعام ١١٠٣م/ ٤٩٦هـ كان البيازنة والجنوية قد أتوا إلى أورشليم للعبادة وكان هذا فى شهر مارس وهو العام الرابع لحكم بلدوين . وقد تحركوا من اللاذقية حيث أمضوا فيها فصل الشتاء، ثم ساروا إلى ولاية جبيل وأعدوها مركزًا لنشاطهم البحرى. ثم حضر إليهم القائد ريموند من ولاية انطرطوس وطلب معونتهم للتمكن من اجتياح جبيل والاستيلاء عليها.

٢- حول سقوط مدينة جبيل انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج١٠، ص٣٧٢، ابن الجوزى: مرآة الزمان، ج٨ ، ص٩، أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ج٢، ص٢١٧، ابن خلدون: المصدر السابق، جـ٥، ص٣٩٧، الكتبى : عيون التواريخ ، جـ١٣ ، لوحة ٦١، ابن الشحنة : روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر رقم ٤٥، ولم تحصل على ترقيم لهذا المخطوط سوى ذكر الأحداث بالسنين الهجرية، فقد ذكرت أحداث جبيل تحت عام ٤٩٧هـ. وألقت رواية ابن الشحنة الضوء على أحوال الشام بصفة عام وقت سقوط جبيل، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ، ص١٦٣ ، العليمى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج٣ ، ص٤٠٤ ، أنظر أيضًا:

Mathieu d'Edesse , R. H.C.- Doc . Arm , t. I, p. 17 ; cf also : Caffaro , Op. cit., t. IV , p. 605 .

وقد تم القضاء نهائيًا على السكان المسلمين فى حين أورد ابن الجوزى «أنه فى شهر رجب من عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م بعد أن فشل الفرنج أمام طرابلس رحلوا عنها إلى جبيل»[١]. وكان هو ممن انفردوا من المؤرخين العرب القدامى بهذا التحديد الزمنى لسقوط جبيل، على الرغم من أنه لم يكن معاصرًا لتلك الفترة من موضوع البحث .

ويشير وليم الصورى أنه بعد أن ضرب ريموند حصارًا بحريًا وبريًا حول المدينة، أصاب الأهالى حالة من الذعر والهلع ، ولم يكن لديهم أى أمل لتعزيز جيوشهم أو وصول نجدات لهم من مصر فأرسل والى المدينة إلى قائدى الأسطول الجنوى الذى يحاصرها وهما انسلدوا وهيوامبرياكو ، ليعلن لهم أنه نتيجة الظروف السيئة التى يعيش أهالى المدينة فى ظلها، فإنهم يبغون أن يفتحوا لهم الممرات والطرق ويسلموها للسادة القائمين على الحصار. وقد اشترط عليهم أن يغادروا المدينة هم وأولادهم وزوجاتهم وتعطى لهم كل ممتلكاتهم، أما الذين يريدون البقاء فلهم ما يشاءون . وقد منح ريموند لهيو امبرياكو المدينة كاملة نظير خدماته فى عملية حصارها والاستيلاء عليها، على أن يقوم بدفع مبلغ سنوى لخزينة مدينة جنوة. وبهذا أخذت مدينة جبيل واتجه الأسطول بعد ذلك إلى طرابلس»[٢]. وهنا يجب توخى الحذر فيما ذكره وليم الصورى من أن هيو امبرياكو قد حصل على المدينة كاملة من ريموند ، ولكن حصلوا على ثلثها فقط، ثم منحت المدينة كاملة لهم عن طريق برتراند بن ريموند الصنجيلى ، وكان ذلك بعد وفاة ريموند وبعد سقوط طرابلس.

ولقد منح هيو امبرياكو نصيبه من المدينة لورثته، حيث أصبحت ميراثًا خاصًا لأفراد أسرة امبرياتشى . وأصبح ذلك الجزء من جبيل نواة لمزيد من الفتوحات التى قام بها آل امبرياتشى إلى أن حصلوا على المدينة كاملة فيما بعد[٣]. وحذر وليم الصورى من أخذ رواية كفارو حول سقوط مدينة جبيل على علاتها، وبخاصة فيما يتعلق بتاريخ سقوطها . والواقع فإن كفارو لم يتحر الدقة فى هذا الأمر، فضلاً عن أن كلا من فوشيه دى شارتر والبرت دى إكس Albert d,Aix لم يتعرض لذلك بالتفصيل .

١- ابن الجوزى: المصدر السابق ، ص٨-٩ .

٢- William of Tyre, Op. cit., p. 477 ; Caffaro , op. cit., p. 605 ; R.O.L., t. V, p. 5 ; cf. also: Bruc, C., Byblos, p. 130 .

٣- Caffaro, Op. cit., t. IV, p. 70 .

وقد اختلف المؤرخون الحديثون ، هـم أيضاً ، حول تاريخ سقوط مدينة جبيل، فلم يشر كلود كاهن إلى ذلك سوى قوله «أنه فى عام ١١٠٤م / ٤٩٧هـ عندما كان ريموند يحاصر طرابلس اتجه بعد ذلك إلى جبيل واستولى عليها [١]. فى حين ذكر رينيه جروسيه «أنه فى ٢٨ من أبريل ١١٠٤م / ٣٠رجب ٤٩٧هـ سقطت جبيل واستولى الفرنج على ثروات السكان دون أعمال الذبح والقتل»[٢]. وهذا أمر يناقض ما أجمع عليه المؤرخون المعاصرون من أن الفرنج لم يلتزموا بوعد الأمان الذى منحوه لأهل جبيل، وأنهم عذبوهم واعملوا فيهم القتل والنهب. هذا بالإضافة إلى ما ذكره كفارو من أن تاريخ سقوط جبيل لم يكن فى شهر أبريل ، وإنما فى شهر مارس ١١٠٤م / أول رجب ٤٩٧هـ .

أما يورجا Iorag فقد ذكر «بعد أن فرض الصنجيلى الجزية على طرابلس حيث لم يتمكن من الاستيلاء عليها ، اتجه إلى جبيل وانطرطوس واستولى عليهما»[٣]. ولكن المصادر من عربية وأجنبية، لم تشر بكلمة واحدة إلى موضوع الجزية التى فرضها ريموند على طرابلس ، خاصة وأنه تملكه اليأس من أخذ المدينة. ولذا فمن غير المعقول أن يفرض الجزية على سكان المدينة وهو ليس فى موقف القوة. ولو كان ثمة مساومات بين ابن عمار وريموند ، لاستطاع ابن عمار أن يدفعها مقابل الحفاظ على جبيل نفسها وهى من أهم توابع امارته.

ولقد اتفق جاك نانت Nante مع رينيه جروسيه أنه فى ٢٨ من أبريل ١١٠٤م / ٣٠ من رجب ٤٩٧ هـ سقطت جبيل بمساعدة الجنوية [٤]. وجاء فى «أرشيف الشرق اللاتينى» أنه فى عام ١١٠٨م / ٥٠١هـ وصل براتراند ومعه أسطول جنوى مكون من ١٩ سفينة واستولوا على جبيل [٥] ، وهذا توقيت خاطئ ، ولعله يرجع إلى الخلط بين جبله وجبيل. فإن كان يعنى الأولى

١- Cahen, La Syria du Nord au temps des Crusades, p. 244 .

٢- Grousset, Op. cit., t. I, p. 340 ; cf . also : Setton, History of the Crusades, vol . I, p. 396 .

٣- Iorga , N., Breve Histoire des Croisades et de Leurs fondations en Terre Sainte , p. 76 ; cf. also: Chalndon , Op. cit., p. 298 ; Richard , J. Latin Kingdom , vol . I, p. 26 .

٤- Reinaud, Extraits des Historiens Croisades, pp. 61-62; Nante, Op. cit., p. 57 .

٥- Annales de Terre Sainte, in A.O.L., t. II, p. 430 .

فهى لم تسقط إلا فى ٢٢ من ذى الحجة ٥٠٢هـ/ ٢٣ من يوليو ١١٠٩م أى بعد سقوط طرابلس بأحد عشر يومًا حسبما ذكر سابقًا، وأن قصد جبيل فكان سقوطها عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م.

وهكذا أضحت جبيل وهى احدى القلاع الساحلية الهامة، مركزًا لمزيد من الانتشار الساحلى للفرنج. وأمام الخطر الصليبى المتفاقم، تجمع كل من سكمان بن ارتق وجكرمش صاحب الموصل فى عسكرهما ، واتفقا على مواجهة الفرنج، وكان ذلك فى أوائل شعبان ٤٩٧هـ/ مايو ١١٠٤م حيث وقف كل من بوهمند وتنكريد ضدهما، ودارت معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، ولكن هذا لم يكن له أثر فى انقاذ الساحل الشامى من الفرنج. فلقد توالى سقوط مدن الشام فى قبضة الفرنج الواحدة بعد الأخرى، بسبب حالة الضعف التى عانت منها الدولة الفاطمية فى أخريات أيامها. كذلك انتهز بلدوين ملك بيت المقدس الصليبى فرصة وجود السفن الجنوية بالقرب من جبيل لفتح عكا ..وتجمع عدد كبير من الصليبيين وحاصروها من البر والبحر، وأخذوها بالسيف فى شهر رمضان ٤٩٧هـ / يونيو ١١٠٤م، إذ عجز زهر الدولة الجيوشى عن حفظها فرحل عنها وملكها الفرنج(٢).

ومع أن سقوط جبيل لم يكن بداية وقوع ساحل الشام فى أيدى الصليبيين ألا أنه كان النواة التى ارتكزوا عليها، ثم انطلقوا منها نحو مزيد من الفتوحات والإمتيازات السياسية والاقتصادية ، إذ ضرب الصليبيون حصارًا قويًا حول صيدا عام ١١٠٨م / ٥٠١هـ، كما تكررت محاولاتهم لأخذ طرابلس، وحصار بيروت عام ١١١٠م / ٥٠٣هـ(٣)، إلى أن تمكنوا فى النهاية من وضع أيديهم على كافة مدن الساحل الشامى(٤). وفى عام ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م كرر ريموند الصنجيلى محاولته بفرض الحصار حول طرابلس مرة أخرى الأمر الذى ترتب عليه حدوث القلق داخل المدينة وارهاق حاميتها . وقام فخر الملك بمهاجمة الفرنج المتمركزين أعلا

٢- ابن الأثير : المصدر السابق، ج١٠ ، ص٣٧٢ ، ابن الجوزى : المخطوط السابق، ص٨-٩، النويرى: نهاية الأرب ، ج٢٦ ، لوحة ٧٨ ، ابن خلدون المصدر السابق ، ج٥ ، ص٣٩٧ .

٣- Annales de Terre Sainte , in A.O.L., t. II, p. 430 .

٤- Setton, Op. cit., t, p. 496 ; cf . also : Richard, op. cit., t. I, p. 26 .

وأنظر أيضًا العينى : المخطوط السابق، سقوط بيروت ، جـ١ ، ق٣ ، لوحة ٦٤٦-٦٤٧ .

الحصن الذى شيده ريموند ورجاله ، فانهار بهم وسقط ريموند وعدد ممن كانوا معه، ولم تمض عشرة أيام بعد ذلك حتى مات ريموند متأثرًا بجراحة (١).

وقام صراع عنيف بين أبناء ريموند بعد وفاته إذ خلف ولدين هما: برتراند وكان ابنا غير شرعى له، والفونس جوردان وقد أنجبه أثناء حصار طرابلس(٢). وأثر أمراء الفرنج استقدام الفرنس جوردان من جنوب فرنسا ليرث ممتلكات أبيه فى الشرق . غير أن أمه أثرت بقاءه إلى جوارها ليرث ممتلكات أبيه فى فرنسا ، وأن يتنازل عن ميراثه فى الشرق لأخيه برتراند . وقد قبل براتراند ذلك غير أن وليم جوردان وكان من عائلة ريموند الصنجيلى تولى أمر الدفاع عن كل ممتلكات ريموند بعد وفاته ، وجعل من نفسه وصيًا شرعيًا على كل ممتلكات الفونس جوردان .

وعلى هذا فإن وصول براتراند إلى الشرق أثار أزمة سياسية بين كل من وليم جوردان William Jordan وبرتراند ، انقسم على أثرها المعسكر الصليبى إلى قسمين: براتراند ويؤيده بلدوين ملك بيت المقدس اللاتينى، وجوردان وقد وقف إلى جانبه تنكريد صاحب أنطاكية ، أولهما لحقه الشرعى فى ميراث أبيه وثانيهما بحكم ما قدمه من مساعدات للمحافظة على ممتلكات ريموند التى كان يمكن أن تضيع ريموند (٣). إن لم تجد من يحميها وقد أضاف وليم جوردان عرقة إلى ممتلكات ريموند ولذا أصر على التمسك بحقه فى ميراث ريموند بالإضافة إلى ما فتحه هو بجهوده الذاتية. وكان وصول برتراند إلى الشرق عام ١١٠٩م / ٥٠٢هـ وذلك إبان حصار وليم جوردان لمدينة طرابلس. وكان مدعمًا بالعديد من السفن الجنوبية التى بلغ عددها ١٩ سفينة، بالإضافة إلى أربعة آلاف مقاتل(٤). ولم يشأ بلدوين أن يترك

١- عن وفاة ريموند الصنجيلى أنظر : ابن الأثير ، المصدر السابق، جـ١٠، ص٤١١-٤١٣ ، ابن الجوزى: المخطوط السابق ، ج٣ ، ص٨-٩ ، العينى عقد الجمان، ج١ ، ق٣ لوحة ٥٨٣-٥٨٤ . راجع أيضًا :

Caffaro , Op. cit., t. V, p. 71 ; Mathieu d'Edesse, Op. cit., t.I, p. 79 .

٢- Caffaro , Op. cit., pp. 70-71 .

أنظر أيضًا السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص١٤١-١٤٢ .

٣- Caffaro , Op. cit., t. V, p. 73 ; cf . also : William of Tyre, Op. cit., vol , II, pp. 475-476 ; Setton , Op. cit., vol , I ., p. 396 ; cf , also Cahen, Op. cit., p. 244 .

٤- وعن صراع براتراند وجوردان أنظر أيضًا : ابن العديم : زبدة الحلب، ج٢، ص١٥٤ .

Mathieu d'Edesse , Op. cit., t. I, pp. 79-80 .

المعسكر الصليبى نهبًا للخلافات التى قد تحول دون تحقيق أهدافهم فى توحيد كلمتهم لأحكام السيطرة على كل مدن الشرق الأدنى، وبصفة خاصة الساحلية منها. وكانت طرابلس آنذاك هى الحلم الذى تجمع من أجله كل أمراء الفرنج. ولذا قرر بلدوين اقامة الصلح بين كل من جوردان وبراتراند . فتقدم بلدوين بجيش ضخم مؤلف من خمسمائة فارس فى حين تقدم تانكرد ومعه خيرة الفرسان، كما قدم كونت الرها وجوسلين للمشاركة فى اقرار الصلح بينهما .

وتقرر تقسيم ارث ريموند كونت تولوز على أن يحتفظ براتراند بجبيل وقلعة الحجاج وطرابلس بعد الاستيلاء عليها، ويأخذ جوردان انطرطوس وما فتحه من البلاد مثل عرقة . وأقسم براتراند يمين التبعية للملك بلدوين، وأصبح جوردان تابعًا لتنكريد . وكان وقوف تنكريد إلى جواره بسبب الحاح براتراند بالمطالبة بحق أبيه فى أنطاكية . ولكن تم تسوية الخلاف بهذا الشكل، وتوحدت القوى الصليبية واتفقت على فتح طرابلس . وكان من بين الشروط التى وضعت فى هذا الصلح أنه إذا توفى جوردان أو براتراند دون وريث تؤول ممتلكاته للآخر(١). ولكن أمرًا غير متوقع حدث لوليم جوردان وهو نشوب صراع بين عائلتين فى الضياع التابعة لكل منهما. فامتطى جوردان صهوة جواده وذهب إلى مكان المشاجرة ، فأصابه سهم قتل على أثره. وقد أعلن البعض أن براتراند هو الذى دبر له ذلك. ويقول وليم الصورى «أن أحدًا لايعرف حتى زمنه سبب موته(٢). وهنا بادر براتراند وتسلم ميراث وليم جوردان الذى لم يكن له وريث . وهكذا انضمت كل من عرقة وانطرطوس إلى ممتلكات براتراند وتدعيمًا لما سبق، يقول فوشيه أنه ما أن أقر الملك بلدوين الصلح بين جوردان وبراتراند حتى وقع الحادث المذكور لجوردان، والذى لايفهم هو سببًا له، ولايعلم أحد وفقًا لروايته من فعل هذا ولكنه يشير من طرف خفى أن هناك من سعدوا بموته ، وخاصة براتراند»(٣).

١- سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج١ ، ص٣٧٠ ، السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ، ص١٤٦، أنظر أيضًا : Grousset Op. cit., I, p. 356 .

٢- Wiiliam of Tyre, Op. cit., vol , II, pp. 476 .

٣- Foucher of Charter, Op. cit., p. 194 .

ولم يدخر الصليبيون جهداً فى العمل على امتلاك طرابلس. ففى عام ١١٠٩م / ٥٠٢هـ قاموا بإحكام الحصار البرى والبحرى حولها وكان ذلك بمساهمة السفن الجنوية التى قدمت إلى الشرق وقتها. وقد اضطرت حامية طرابلس إلى إعلان التسليم وإبداء الرغبة فى المهادنة بعد أن فشل حاكمها فى الحصول على أية مساعدات من القوى الإسلامية المجاورة ، وبعد تأخر الأسطول الفاطمى فى الوصول لنجدتها هى أو غيرها من مدن الساحل التى كانت على وشك الضياع يذكر وليم الصورى أن الملك بلدوين توسل إلى الجنوية الذين كانوا لايزالون مرابطين أمام جبيل للمشاركة فى فتح طرابلس ومدن الساحل الأخرى التى كانت لاتزال فى حوزة المسلمين مثل صيدا وبيروت وصور عسقلان . والواقع أن الأسطول الجنوى كان له نصيب الأسد فى فتح طرابلس طالما فى ذلك مصلحة لهم. وقد خرج ابن عمار من المدينة إلى جبله فى حين عين شرف الدولة بن أبى الطيب والياً على طرابلس من قبل الفاطميين . ولكن الفرنج تمكنوا من تدمير جانب من أسوار المدينة من الناحية البرية ، بالإضافة إلى ضغط الأسطول الجنوى عليها من ناحية البحر. فأضطر صاحبها إلى إعلان التسليم بشروط أملاها الملك بلدوين فى ١٢ من يوليو ١١٠٩م / ١١ من ذى الحجة ٥٠٢هـ [١]. وهكذا نرى أن الخلافة الفاطمية فى مصر قد تخاذلت كثيراً حين استهانت بالخطر الصليبى الذى استطاع أن يحكم قبضته على مدن الساحل . ولو كان أهل طرابلس أو جبيل وجدوا أى مساعدة جدية من أى جهة إسلامية فى منطقة الشرق الأدنى وقتها، لاستطاعوا أن يصمدوا وأن يحافظوا على استقلالهم . لقد كانت منطقة الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر والسنوات الأولى من القرن الثانى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس وبدايات القرن السادس الهجرى) ، تعج بالانقسامات السياسية والمذهبية، بينما كانت أحوال الخلافتين الفاطمية فى مصر والعباسية فى بغداد تسيران من سئ إلى أسوأ . وعلى هذا كان ميزان القوى فى الصراع بين الصليبيين والمسلمين فى هذه الفترة بالذات فى صالح القوى الصليبية. ولهذا السبب لم تجد هذه القوى

١- ابن الفرات: المخطوط السابق ، المجلد الأول، لوحة ٢٩ ، العينى: المخطوط السابق، ج١، ق٣ ، لوحة ٦٤٤ .

انظر أيضاً : السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص١٢٣، ١٢٥، محمد كرد على: المرجع السابق ، ص٢٩٢ .

انظر أيضاً : Foucher of Charter , Op. cit., pp. 193-195 .

صعوبة فى الاستيلاء على جبيل ، ومن بعدها طرابلس تمامًا مثلما سقطت من قبلهما بيت المقدس والمدن والقلاع الساحلية الأخرى .

ومهما يكن من أمر ، ومهما قيل لتبرير سقوط المدينتين سواء بالصاق التهم إلى فخر الملك أو إلى الأفضل الفاطمى الذى أبعد فخر الملك عن طرابلس فى وقت كانت فيه المدينة فى أمس الحاجة لمن يتولى أمرها ويدفع عنها الخطر الصليبى، فقد انتهى الأمر بسقوط المدينتين فى قبضة الصليبيين. ثم أن وصول الأسطول المصرى المشحون بكافة المعدات اللازمة للحرب بعد سقوط المدينتين ما هو إلا دليل على التقاعس من قبل الفاطميين تجاه جبيل وطرابلس وباقى مدن الساحل(١). وقد تبع ذلك سقوط جبلة فى ٢٣ من يوليو ١١٠٩م / ٢٢ من ذى الحجة ٥٠٢هـ، ثم بيروت فى ٢٣ من أبريل ١١١٠م/ ١من شوال ٥٠٣هـ. أما فخر الملك بن عمار فكان قد توجه إلى جبلة وبعد سقوطها فى قبضة الفرنج ذهب إلى دمشق حيث توفى هناك عام ٥١٢هـ/ ١١١٩م.

وبعد سقوط طرابلس ظهر الجنوية يطالبون بحقوقهم فى جبيل فقد ساعدوا الصليبيين بصفة عامة وبراتراند صاحب جبيل بصفة خاصة فى سبيل الاستيلاء عليها. وكانت أسرة امبرياتشى قد حصلت على ثلث المدينة كهبة ممنوحة من قبل ريموند الصنجيلى بعد فتحها. لكنهم طالبوا بما هو أكثر من ذلك. فقد عقد برتراند اتفاقية مع جنوة قبل حضوره إلى الشرق مؤداها أن يصطحب معه أسطولاً جنويًا ضخمًا للمساهمة فى الاستيلاء على طرابلس وغيرها نظير امتيازات محددة تم الاتفاق عليها(٢) . وعلى هذا لم يسع برتراند إلا أن يمنحهم ثلث مدينة طرابلس مكافأة لهم، وقد شمل هذا الجزء من طرابلس المناطق الحيوية المتميزة بالانتعاش التجارى والاقتصادى بما يتفق وميول الجنوية الاقتصادية . كما منح لهم مدينة جبيل كاملة كمستعمرة جنوية. وقد نجح هيوامبرياتشى فى الحصول على حق الحكم الوراثى فيها من جنوة نظير تعهده بدفع المال اللازم لحكومته وكان لأسرة ابمرياتشى مكانة خاصة

١- السلامى : المخطوط السابق، ورقة ٤٥ ، ولقد أخطأ السلامى حين ذكر أن ابن عمار توفى عام ٥٠٠هـ / ١١٠٧م لأن جميع المصادر المعاصرة أجمعت على رحيله من طرابلس إلى جبله وأقامته بها مدة طويلة عاصر خلالها سقوط المدينة، ورحل منها إلى دمشق حيث أقطعه طغتكين عملاً كبيرًا وهو الزبدانى، وأنه توفى هناك عام ٥١٢هـ / ١١١٩م .

٢- Foucher of Charter, Op. cit., p. 194 .

لدى الجنوية، فقد كانت من الأسر النبيلة حتى أن قومون جنوة استثنى آل ابرياتشى من القرار الذى ينص على إزالة القلاع الخاصة بتلك الأسر النبيلة فى جنوة (١). وأصبح لتلك الأسرة كيانها فى الشرق الأدنى منذ مساهمتها فى احتلال بيت المقدس، وما قدمته من خدمات للافرنج (٢). والخلاصة أنهم حصلوا فى أول الأمر على ثلث جبيل (٣). ثم على المدينة بأجمعها فيما بعد، بالإضافة إلى غيرها من المدن والقلاع والأحياء. وقد أدى هذا إلى تدعيم مركز جنوة فى المنطقة ، وتمتعها بقدر كبير من الامتيازات يفوق ما تمتعت به المدن الإيطالية الأخرى .

ومن جبيل كانت مسيرة الصليبيين نحو طرابلس وبيروت وعسقلان وصور وصيدا . ولم يتم ذلك إلا باتفاقيات بين جنوة والأمراء اللاتين، أوضحت جميعها أن الباعث الاقتصادى كان وراء هذه التضحيات. ولقد قام ملك بيت المقدس بمنح آل امبرياتشى حق الامتلاك والاحتفاظ بالكثير من المدن والمنشآت الهامة. وحصلت جنوة أيضًا على العديد من الامتيازات فى أنطاكية، تمثلت فى هبات وتنازلات وإيرادات خاصة. كما منح للجنوية قدر كبير من الإيرادات الخاصة بمدينة يافا، والعديد من الأحياء والشوارع والمنازل والأفران والأراضى بها . كذلك منحهم برتراند حصنًا يقع على بعد عشرة أميال جنوبى طرابلس، بالإضافة إلى الثلث الخاص بطرابلس وتمثل فى حى تجارى مزدهر (٤). لقد تمتع الجنوية بكل ما يتفق وطموحهم الاقتصادى فضلاً عن العديد من الكنائس والحمامات والوكالات التجارية.

وتزايدت الهبات الواردة من جنوة إلى جبيل نظرًا لنمو مركزها السياسى والاقتصادى فى جنوة وفى الشرق بأجمعه. فلم تكن أى من مدن اللاذقية ويافا وقيسارية وأرسوف وبيروت

١- مصطفى الكتانى: المرجع السابق ، ص٧٢ و٩٨ .

٢- Auctor Radulfo, Op. cit., t. III, p. 683 .

٣- ابن القلانسى : المصدر السابق، ص١٤٤ ، انظر أيضًا :

Cahen, Op. cit., pp. 497-498 ; Grousset, Op. cit., t. I, p. 395 ; Conder, The latin Kingdom , p. 209; Daru, Histoire de venice , t, I, p. 153 .

انظر أيضًا : سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج١، ص٣٧٠ .

٤- Rey , Les Seigneurs des Giblet, R.O.L., t. III, p. 399; cf . also: Bruc, Op. cit, p. 131 .

وعكا وصيدا وصور إلا وكان لهم أملاك وعقارات فيها ظلت بأيديهم حتى عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ حين كانت موقعة حطين وسقوط جبيل وكافة توابعها فى أيدى المسلمين. لقد شاركت جبيل فى كافة العطايا والهبات والإيرادات التى منحت لأمراء الشرق الفرنجى، كما شاركت فى الحصول على الحرية المطلقة فى كافة الموانئ «لتجارتها» ويذكر بيرن Byrne أنه على الرغم من أن القادة الفرنج كانوا كثيراً ما يمنحون الوعود الجذابة لمدن جنوة والبندقية وبيزا فانهم أيضاً كانوا سريعاً ما يتخلون عن تلك الوعود . ولكن هذا لم يحدث مع جنوة مطلقاً، التى لم يكف البابا عن تعضيده الدائم لمطالبها ، وتأمينها فى الشرق أو الغرب. ولم تعقد جنوة هذه المعاهدات على أنها ابنة البابوية أو تابعاً لأحد، بل استمدت قوتها من ذاتها. وانعكس هذا على أسره امبرياتشى التى استمدت الثقة من قوة جنوة آنذاك[١].

لقد اتسم النظام الداخلى لجبيل فى ظل حكم أسرة امبرياتشى بالكثير من نظم المجتمع الأوروبى الغربى آنذاك، بكل ما له من وظائف وقوانين. فقد عين داخل جبيل فيكونت كانت مهمته الإشراف على الخزانة، بالإضافة إلى وظيفة قضائية أخرى باسم "Juratio Curail" ونظراً لضخامة الدور الذى لعبته الأسرة فى حصار عكا وسقوطها بعد استيلاء الفرنج على جبيل، فقد حصلت على حق جعل عكا مركزاً لممارسة الكثير من أوجه النشاط التجارى، وكانت بمثابة عاصمة لممتلكاتهم . فكان لهم شوارع خاصة وحى كانوا يطلقون عليه اسم «لورمينى المقدس»، وهو اسم راعى الكنيسة الكاتدرائية آنذاك، بل أدمجت قوانين جبيل بقوانين عكا، حتى لقد اجتمع مجلس عكا ذات مرة للتدخل فى بيع اقطاع خاص بأسرة امبرياتشى .

لقد أسهمت جبيل بدور اقتصادى ضخم ساعد على تدعيم مركز الفرنج بالشرق الأدنى نظراً لوقوعها على الساحل، وللنشاط الاقتصادى الذى مارسه الجنوية الممثلين فى أسرة امبرياتشى . إذ تولت عملية تصدير واستيراد العديد من المنتجات التى كان كل من الشرق والغرب بحاجة إليها. فقامت بتصدير السكر الذى صنع فى داخلها وكانت تحصل مقابله على الذهب والفضة، وكان لكل هذا أثره على الرخاء الاقتصادى داخل جبيل[٢]. أما العملة فى جبيل العملة فقد كانت نفس عملة طرابلس بحكم تبعية جبيل لكونتيه طرابلس[٣]. وفوق هذا

١- Byrne, Op. cit., pp. 140-143 .

٢- Byrne , Op. cit., p. 142-144 .

٣- Bruce, Op. cit., p. 76 .

وذلك، فقد ارتبط آل امبرياتشى فى جبيل بباقى أمراء الفرنج فى المنطقة عن طريق زواج المصاهرة تحقيقًا لمصالح سياسية. فكان لهذا أثره على العديد من التحالفات بينهم وبين غيرهم من الأسر الفرنجية أثناء الاحتكاكات سواء مع المعسكر الإسلامى أو بين الفرنج وبعضهم البعض. ولاخلاف أن الصراعات الداخلية فى مملكة اللاتين فى الأراضى المقدسة أسهمت فى نهاية الأمر فى القضاء على الوجود الصليبى فى المنطقة. ومن أمثلة تلك المصاهرات زواج هيواميرياكو من احدى بنات الريف الفرنسى أنجب منها أربعة أولاد كانت منهم ماريا Maria التى تزوجت من بارثلميو Barthelmio حاكم صيدا، وكذلك هنرى Henry امبرياكو الذى تزوج من ابنة باليان دبلين Balian d'Iblin حاكم بيروت وبذلك وجدت ارتباطات ومصالح بين جبيل وبين كل من صيدا وبيروت [١]. عن طريق المصاهرات السياسية التى بدأها المؤسس الأول لأسرة امبرياتشى وهو هيو امبرياكو والتى كانت عاملاً فى تدعيم الوجود الصليبى فى الأراضى المقدسة.

وكثيرًا ما سعى بطاركة بيت المقدس اللاتين إلى ضم أساقفة جبيل وطرابلس وأنطرطوس تحت إشرافهم . ولكن محاولاتهم باءت بالفشل على الرغم من تبعية جبيل للملك اللاتينى منذ إقرار الصلح بين وليم جوردان وبرتراند كما سبق أن ذكرنا، ولكن من الناحية الدينية ظلت جبيل تابعًا لبطريركية أنطاكية بحكم تبعيتها لكونتية طرابلس منذ قيامها، ولم تأبه بتهديدات البابوية فى روما بالخضوع لبطريركية بيت المقدس، واستندت فى ذلك على حق الفتح والميراث الذى حصل عليه مؤسس أسرة امبرياتشى فى جبيل من قبل ريموند الصنجيلى [٢]. وعلى هذا أصبحت أسقفية جبيل تتبع بطريركية أنطاكية وليس بيت المقدس. وفى عام ١١١٥م / ٥٠٩هـ أقام آل امبرياتشى كاتدرائية للأساقفة اللاتين فى جبيل ، وهى المعروفة بكاتدرائية القديس يوحنا،. ولاتزال تعرف حتى اليوم باسمها العربى وهو ماريو حنا .

وأما عن العناصر التى كانت تتألف منها جبيل فهى عديدة، لقد كانت تتألف من مختلف الأجناس والديانات . فالى جانب المسلمين وهم السكان الأصليون كان بعض الفرنج الذين احتلوا جبيل بالإضافة إلى اليهود الذين وجدوا بأعداد كبيرة منذ أن كانت جبيل تابعة لأمارة طرابلس تحت حكم ابن عمار . ويمكن القول أن اليهود كانوا من بين أسباب الانتعاش

١- Assises de Jerusalem, t. II, pp. 465-466 .

٢- السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص٢١٠ .

الاقتصادى داخل جبيل ، بالإضافة إلى الجنوية[١]. وكان هناك أيضًا الموارنة الذين لعبوا دورًا لايستهان به فى مساعدة الصليبيين كعيون وأدلاء لهم منذ مجيئهم إلى منطقة الشرق الأدنى.

هذا، ولقد أقام الجنوية داخل جبيل العديد من القلاع والأسوار والمنشآت الهامة. فقد انشأت أسرة امبرياتشى قلعة داخل جبيل تعد من أقدم القلاع التى وجدت فى الشام. كما شيدت برجا ضخمًا يتجه من جهة الشمال نحو الشرق ، ويقال أن ابن عمار هو الذى بنى البرج، وفى أسفل التل حيث شيدت كنيسة القديس يوحنا ، تم إنشاء ميناء لجبيل بأسوار عالية على شكل برجين كان الهدف منها حماية المدينة، وقد تطور شكل هذا الميناء فى عصر الأيوبيين والمماليك [٢].

وهكذا كان سقوط مدينة جبيل فى أيدى الصليبيين عام ١١٠٤م / ٤٩٧هـ بعد محاولات متكررة للاستيلاء عليها. وكان لهذا الخبر دوى كبير فى بلاد الشام انهارت على أثره مقاومة الجبهة الإسلامية فى كل مدن الساحل الشامى. وكان من الممكن أن تحافظ جبيل على استقلالها لو كانت هناك جبهة إسلامية متحدة متماسكة تشد من أزرها، ولكن حالة التمزق والضياع التى كان يعانى منها المشرق الإسلامى وقتها لم تكن تسمح بذلك. ولذلك كان مصيرها متوقعًا ، مثل غيرها من مدن الساحل فى وقت لم يكن فيه ميزان القوى فى الصراع بين المسلمين والصليبيين فى صالح المسلمين. لم يكن أمامهم وقتها إلا الالتزام بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم بوجه عام .

وبهذا استطاع الصليبيون أن يقيموا حكمًا خاصًا بهم فى جبيل فى عام ١١٠٤م / ٤٩٧هـ. وسوف يستمر وجودهم بها وحتى خروج آخر صليبى من الأراضى المقدسة، باستثناء السنوات القليلة التى سقطت فيها المدينة فى أيدى صلاح الدين. ولكنها سرعان ما عادت بعد وفاته إلى الصليبيين وحتى عام ١٢٩٢م / ٦٩٢هـ. ولقد تمكن الجنوية بفضل مهاراتهم الاقتصادية والعسكرية أن يجعلوا من جبيل مدينة ذات شأن كبير ، حتى أنها تركت بصماتها على مختلف الأمور السياسية التى مر بها الساحل الفرنجى، سواء بالنسبة لعلاقة الفرنج بعضهم ببعض أو بالنسبة لعلاقة صليبيى جبيل بالمسلمين فى المنطقة.

وسوف تكشف الفصول التالية عن الدور الذى ستؤديه جبيل فى ظل الحكم الصليبى لها على مسرح الأحداث فى رقعة الشرق الأدنى .

١- Nante, Op. cit. p. 64 .

٢- Bruce, Op. cit., pp. 59-60 , 64, 72-76 .

الفصل الثانى

جبيل تحت حكم أسرة أمبرياتشى وعلاقاتها بالمسلمين وأفرنج الشام (١١٠٤- ١١٨٠م / ٤٩٧هـ- ٥٧٦هـ)

- تبعية جبيل المباشرة لملكة بيت المقدس الصليبية وأثر ذلك على علاقاتها بالمسلمين - دور جبيل فى حصار صور عام ١١١١م / ٥٠٥هـ ومساهمتها فى الاستيلاء على صيدا عام ١١١٠م / ٥٠٤هـ- جبيل وطرابلس ضمن قوات الملك الصليبى بلدوين الثانى لإنقاذ روجر صاحب أنطاكية عام ١١١٩م / ٥٠٤هـ - اشتراك جبيل مع باقى الفرنج ضد الأسطول الفاطمى القادم للشام أثناء أسر الملك بلدوين الثانى عام ١١٢٣م / ٥١٧هـ - حاكم جبيل ضمن القادة الفرنج المجتمعين لإعداد وتوجيه الحملة الصليبية الثانية ودورها فى استيلاء الفرنج على بانياس عام ١١٤٨م/ ٥٤٣هـ، من معين الدين أنر - حملات آل امبرياتشى ضد سهل البقاع منذ عام ١١٣٠م / ٥٢٥هـ وموقف صاحب دمشق منها - دور جبيل فى سقوط عسقلان فى أيدى الفرنج عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ. - الصراع بين عمورى ونور الدين محمود حول مصر ، وهجوم نور الدين على جبيل عام ١١٦٣م / ٥٥٨هـ - جبيل تعيش فترة ازدهار اقتصادى فى ظل حكم أسرة امبرياتشى.

أوضحنا فى الفصل السابق محاولات الفرنج للاستيلاء على جبيل إلى أن تمكنوا منها عام ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م دون أن تمد لها القوى الإسلامية المجاورة يد العون والمساعدة ولاسيما الدولة الفاطمية التى كانت آنذاك فى طريقها إلى التداعى والانهيار . والواقع أن التمزق الذى كان يعانى منه الشرق الأدنى الإسلامى فى تلك الفترة من الزمن، بسبب الخلافات السياسية والمذهبية ، لم يكن ليسمح بتوحيد القوى الإسلامية فى جبهة واحدة تقف أمام الفرنج وتدفعهم عن جبيل. فكان مصيرها هو نفس مصير المدن الأخرى التى وقعت قبلها فى قبضة الفرنج دون كبير عناء. وأن تحول جبيل إلى معقل صليبى تتولى أمره أسرة امبرياتشى، انعكس بشكل مباشر على طبيعة علاقتها بالقوى المحيطة بها سواء أكانت إسلامية أم مسيحية . وسيتضمن هذا الفصل الدور الذى لعبته جبيل فى سقوط كثير من مدن الشام الإسلامية فى

أيدى الفرنج. وجدير بالذكر أن ثمة صعوبة كبيرة فى العثور على دور مستقل لها، خاصة وأن المصادر من عربية وأجنبية، لم تسلط الضوء على جبيل بالذات، وإنما تحدثت بصفة عامة عن مدن الساحل الشامى، وجبيل من بين هذه المدن، وذلك فى أحداث الفترة الواقعة بين عامى ١١٠٤ -١١٨٠م (٤٩٧-٥٧٦هـ) .

على أية حال، بعد موت وليم جوردان آلت جميع ممتلكاته إلى برتراند الذى أعلن فجأة أنه يدين بالتبعية والولاء لملك بيت المقدس الصليبى باعتباره سيدًا له، وبالتالى تعتبر جميع ممتلكاته إقطاعًا منه له. وهكذا لم يعد برتراند يدين بالتبعية لتنكريد مثلما فعل وليم جوردان قبل وفاته. وبذلك أصبحت إقطاعية جبيل على رأس الاقطاعات الثانوية التابعة لملكة بيت المقدس الصليبية. وطبقًا لذلك كان لزامًا على صاحب جبيل أن يأتى على رأس فرسانه لمساعدة الملك الصليبى إذا ما تعرضت المملكة للخطر.

ووفقًا لما جاء فى «قوانين مملكة بيت المقدس» "Assises de Je rusalem" كان على صاحب كل إقطاعية تابعة للمملكة أن يقدم ٢٥ فارسًا و٥٠جنديًا إلى جيش المملكة، وأن يكون سيد الإقطاعية على رأس هؤلاء الفرسان وقت الخطر، وأن تكون مدة خدمة هذا الجيش لصالح المملكة عامًا باكمله(١).

وفى الواقع فان النظام الإقطاعى الأوربى فى مدن الشام فى الفترة المبكرة من تاريخ مملكة بيت المقدس لم يكن قد تبلور بعد، نظرًا لكثرة الاضطرابات التى عانت منها. ولكن مع بداية عام ١١٣٠م / ٥٢٥هـ، وجدت فترة من الاستقرار النسبى تبلورت فيها ملامح ذلك النظام . فكان على رئيس أساقفة جبيل، كاحدى المدن التابعة للمملكة، أن يساهم هو الآخر بأن يقدم لملكة بيت المقدس حوالى ٥٠ جنديًا ، مدعمًا بذلك السلطة العلمانية لإقطاعية جبيل فى تبعيتها للمملكة.

وجدير بالذكر أن جبيل لم تبق فى حوزة برتراند كحاكم أعلى عليها، بل منحها لأسرة امبرياتشى الإيطالية، وبالتحديد لهيوامبرياكو الجنوى الأصل الذى منحته جنوة حكم المدينة مقابل جزية سنوية تؤدى إلى خزينة جنوه (٢).

١- Assises de Jerusalem, t. I, pp. 422 , 426-424 .

٢- Les Seigneurs de Giblet , in R.O.L., t. III, p. 399 .

ولم يكن حكم براتراند ومن بعده آل امبرياتشى لجبيل هو بداية مشاركة المدينة للأحداث الهامة التى عاشها الصليبييون فى بداية قدومهم للشرق . بل أسهمت بدور لايستهان به فى منازلة طرابلس وجبلة وانطرطوس ، ثم مشاركتها الفعالة عام ١١١٠م / ٥٠٤هـ فى سقوط مدينة صيدا الفاطمية فى أيدى الصليبيين(١).

ولم يكن إجماع الصليبيين على إقرار الصلح بين وليم جوردان وبراتراند ، على أن تمنح جبيل وطرابلس وقلعة الحجاج لبرتراند وأن يحصل وليم على عرقة وانطرطوس ، ألا إحساساً منهم بالدور الخطير الذى لعبه أصحاب جبيل فى الحملات التى خاضها الصليبيون لتدعيم وجودهم فى الشرق، فكانت بمثابة مكافأة منهم لكل من براتراند صاحب جبيل ومن قبله ريموند الصنجيلى على خدماتهما.

وفى نفس العام ١١١٠م / ٥٠٤هـ واصل هيو امبرياتشى إغاراته على سهل البقاع بحجة أنه يشكل خطورة عليه طالما بقى بأيدى المسلمين، الأمر الذى دفع طغتكين أتابك دمشق إلى عقد اتفاق مع براتراند صاحب جبيل وسيد آل امبرياتشى على أن يدفع ثلث إيرادات سهل البقاع إلى براتراند مقابل كبح جماح هيوامبرياتشى ووقف هجماته المستمرة ضد البقاع(٢) . وإن دل ذلك عن شئ فإنما يدل على الدور الخطير الذى قامت به جبيل أما لصالحها الشخصى أو لصالح الملك الصليبى فى بيت المقدس.

وقد ذكر ابن كثير أنه نتيجة للمحاولات الاستفزازية المستمرة من قبل الفرنج بالقرب من أراضى طغتكين صاحب دمشق وقع اشتباك عنيف بين الفرنج وطغتكين بمعاونة صاحب سنجار وصاحب ماردين وصاحب الموصل ، فهزمه الفرنجة هزيمة فادحة وقتلوا منهم خلقًا كثيراً(٣).

١- البغدادى : عيون الأخبار، مخطوط، لوحة ٣٢٨ ، انظر أيضًا : أسامة زيد : صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، ص٩٧ ، السيد عبد العزيز سالم : دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الإسلامى، ص١٠٣-١٠٤ .

٢- Bruce , Op. cit., p. 131 .

٣- ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٢، ص١٧٥ .

ولم يقف دور جبيل عند هذا الحد، إذ يلقى حصار الفرنج لمدينة صور الضوء على مدى مساهمة فرسان جبيل بصفة خاصة وافرنج الشام بوجه عام. ذلك أنه في ٢٩ من نوفمبر ١١١١م / ٢٥ من جمادى الأولى ٥٠٥هـ ، بعد أن يئس والى صور عز الملك أنوشتكين الأفضلي من وصول أية مساعدات من قبل الحاكم الفاطمي في مصر، قام بمراسلة طغتكين صاحب دمشق طالبًا منه مساعدة صور ضد الفرنج . وبفضل النجدات الإسلامية التي وفدت من دمشق تمكنت المدينة من مقاومة حصار الفرنج لها طوال الشتاء ورغم معاناة الأهالي من البرد القارس وقلة الإمدادات نظرًا لطول فترة الحصار. إلا أن النجدات سرعان ما وصلت الفرنج من صيدا في الوقت الذي تمكن فيه طغتكين من إنزال الهزيمة ببعض مراكبهم. ولكن مناعة أسوار صور، وقوة دفاعها ، دفعت الملك الصليبي إلى بناء برجين ليسهل عليه مهاجمة الأسوار ومحاولة فتح ثغرة ينفذ منها الفرنج . وقد عهد ببناء أحد البرجين إلى يوستاش جارنيه سيد قيسارية وصيدا(١).

ولايفوتنا في هذا المجال أن نذكر أن آل إمبرياتشي كانوا ذوي خبرة في بناء الأبراج حتى أن أنسلدوا Ansldo وهيو امبرياكو، وهما أول من شاركا في الحملات الصليبية على الشام، كان لهما ضلع في بناء تلك الأبراج (٢). وعلى ذلك فقد شاركا مع باقي الصليبيين في بناء البرجين . ولكن استماتة أهالي صور، بالإضافة إلى المساعدات التي وصلت إليهم من قبل حاكم دمشق، عجلت بفشل الفرنج في أخذ المدينة، خاصة بعد احتراق البرج الصغير نتيجة الرياح، واستخدام أهالي صور النفط والحطب والقطران لإشعال النيران فيه ، فأضطر الفرنج للانسحاب في ١٠ من أبريل ١١١٢م / ١٠ من شوال ٥٠٥هـ . وفي الوقت الذي كان فيه هيو امبرياتشي يغير على سهل البقاع، كان مودود أتابك الموصل يشكل خطرًا كبيرًا على المسيحيين. ولذلك أعد الملك الصليبي حملته التي اشترك فيها كل القادة التابعين له، ومن بينهم صاحب جبيل، لنجدة الرها، وكبح جماح مودود الذي لم يتوان عن الهجوم على الرها

١- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص١٧٨ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج٨ ، ص٢٦٣، ٢٦٤ . أنظر أيضًا في بناء البرجين : حسين عبد الوهاب، قيسارية تحت الحكم اللاتين وعلاقاتها بالمسلمين في الشرق الأدنى، رسالة ماجستير لم تطبع بعد، ص١٠ .

٢- مصطفى الكناني : المرجع السابق، ص٧٢ .

وأنطاكية. ولهذا السبب خرج الملك الصليبي أكثر من مرة لنجدتهما [١]. وفي عام ١١١٩م/ ٥١٣هـ أرسل روجر صاحب أنطاكية مرة أخرى، في طلب المساعدة من الملك الصليبي ضد ايلغازي صاحب ماردين وحلب . ولم يتوان الملك عن ذلك، فأرسل إلى بونز أمير طرابلس يطلب منه المبادرة لنجدة صاحب أنطاكية . وبالطبع فان تبعية كل من طرابلس وجبيل للمملكة الصليبية في بيت المقدس، كانت تعني مبادرة جبيل إلى تلبية طلب الملك. ولكن قبل وصول النجدات إلى روجر تمكن ايلغازي من إنزال الهزيمة به، وكان ذلك في ٢٨ من يونيه ١١١٩م / ١٧ من ربيع أول ٥١٣هـ. ولقد تألم الصليبيون عند سماع هذا الخبر، حتى أن أحد مؤرخيهم ، وهو فوشيه أوف سارتر ، أحجم عن التعليق على هذه الحادثة التي اعتبرها بمثابة نقطة سوداء في تاريخ الفرنج[٢].

وقد أشار ابن العديم إلى تلك الواقعة بأنه لم تكن ترى أحداً من الترك إلا وقد امتلأت يداه وصدره بغنائم الفرنج . بل ذكر أيضاً أن بعض سرايا ايلغازي اشتبكوا مع بلدوين وصاحب طرابلس بالقرب من جبله، حين سارا لنجدة صاحب أنطاكية ، وأن بلدوين انهزم واضطروا لأن يعلقوا بالحبال فرار لما أحاق بهم على يد الترك [٣]. وهذا يعني أن الهزيمة لم تنزل بصاحب أنطاكية وحده، بل أصابت أيضاً الملك وأتباعه وفي مقدمتهم صاحب جبيل وقال ابن العديم أن المسلمين لم يكتفوا بما أنزلوه بالملك اللاتيني بلدوين الثاني (١١١٨-١١٣٠م / ٥١٢-٥٢٥هـ) ورجاله، بل ساروا بعد وصول نجدات من دمشق إلى ايلغازي وحاصروا حصن الأثارب ، إلى أن اضطرت حاميته إلى الخروج إلى أنطاكية التي كان الملك قد وصل إليها آنذاك للعمل على إقرار الأمور فيها ، بعد الهزيمة الفادحة التي ألمت بصاحبها. وكان حصار الأثارب قد أثار الخوف في قلب الملك الصليبي، وأدرك الهدف الذي يسعى إليه ايلغازي وحلفاؤه . لذا قام بتنظيم قواته، واشترك معهم بشخصه في مهاجمة ايلغازي الذي فاجأهم على غرة، واستطاع أن يفرق شملهم . ولكن سرعان ما توحدت صفوف الفرنج بفعل حماسة الأساقفة الذين كانوا معهم، الأمر الذي أحيا الأمل في نفوسهم، واستطاعوا إحراز النصر على جيوش المسلمين .

١- Runciman , Op. cit., vol . II, pp. 111-112 .

٢- Foucher of Charter , Op. cit., p. 228 .

٣- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٠٢، ابن العديم. زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج٢ ، ص١٨٩-١٩٣ .

وفى ذلك الوقت انتهز صاحب جبيل فرصة الحماسة التى عمت الصليبيين، وقام يؤازره كافة الصليبيين وبموافقة ملك بيت المقدس، بمهاجمة «زردنا» [١]. بعد أن تغلب المسلمون وأوقع بهم الهزيمة[٢].

وإبان تلك الفترة تعرضت بلاد الشام عام ١١١٣م / ٥٠٦-٥٠٧هـ لزلازل عنيفة أحدثت الكثير من الخراب والدمار بكافة المدن الإسلامية والمسيحية على السواء[٣]. وقد أدى هذا إلى انشغال الطرفين عن مواصلة الصراع بينهما.

ولعله يتضح مما سبق أن بواكير القرن الثانى عشر الميلادى (بدايات القرن السادس الهجرى) كانت تحمل معها بوادر اليقظة الإسلامية فى منطقة الشرق الأدنى بعد أن استشعر المسلمون الخطر الماثل . وكان هذا يعنى تغييرا فى ميزان القوى فى الصراع بين المسلمين والصليبيين. فبعد أن كانت كفة الفرنج فى السنوات الأولى من مقدمهم إلى الأراضى المقدسة هى الراجحة ، بينما التزم المسلمون بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم بوجه عام ، تغير الوضع واعتدلت كفة الميزان بالنسبة لطرفى الصراع، بحيث لم يكن بوسع أى منهما توجيه ضربة مؤثرة أو إلحاق هزيمة شديدة بخصمه . واقتصر الأمر على تبادل الإغارات والمناوشات فقط . ولهذا السبب لم تكن بين الطرفين منازلة كبيرة أو حاسمة بالمعنى المفهوم ، وفى معمعة هذا الصراع كانت جبيل تشترك بكل ثقلها فى أى صدام عسكرى ضد المسلمين.

على أية حال ، ففى ١٨ من أبريل ١١٢٣م / ١٩ من صفر ٥١٧هـ وقع بلدوين الثانى ملك بيت المقدس أسيراً فى قبضة المسلمين. ذلك أنه بعد أن مات ايلغازى فى ميافارقين وانقسم إرثه أبناؤه وأبناء اخوته . فكانت حلب من نصيب بدر الدولة سليمان بن أخيه ، وأخذ ميافارين ابنه الأكبر سليمان، بينما ظفر تمرتاش بماردين. وهنا سعى صاحب حلب بدر الدولة بالاستيلاء على حوران الواقعة جنوب أملاكه ، وكان المسلمون قد احتلوا الأثارب من فترة قصيرة ، ولكن الملك بلدوين ملك بيت المقدس استطاع أن يستردها منهم، ثم استرد البيرة

١- زردنا : هى بليدة من نواحى حلب الغربية، انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان المجلد الأول ، ص١٣٦ .

٢- ابن العديم: المصدر السابق ، ص٩٢ .

٣- السلامى: مختصر التواريخ ، لوحة ٤٠٥ ، انظر أيضًا: كمال الدين ابن ميسر: منتخبات من تاريخ ابن ميسر فى : R.H.C. ص٦٠٧ .

أيضًا ، هنا توجه الملك الصليبى لتدبير الأمر داخل الرها بعد أن أسر صاحبها جوسلين ، وبعد أن أن جعل جودفرى الراهب صاحب مرعش على إدارتها. وقام بجولة للتعرف على الموقع الذى أسر فيه جوسلين ، وأقام معسكره بالقرب من كركر الواقعة على نهر الفرات. هنا خرج بلك بن بهرام[١] صاحب حلب من قلعته خرتبرت [٢]. وهبط على معسكر بلدوين فلقى معظم جيش بلدوين مصرعهم ووقع الملك نفسه أسيرًا وجرت معاملته بما يليق بمكانته ، وتقرر إرساله فى حراسة ليلحق بجوسلين فى أسره بقلعة خرتبرت [٣].

وانتهز صاحب حلب الفرصة ، وعمل على تثبيت أقدامه ، فقام بتوجيه ضربة شديدة للفرنج ونظرًا لكراهية أهل حلب له، لم يواصل تقدمه واكتفى بالاستيلاء على البارة [٤]. وقد انتهز المصريون فرصة أسر بلدوين ، وأغاروا على ضواحى بيت المقدس عام ١١٢٣م / ٥١٧هـ عام ١١٢٣م / ٥١٧هـ وكان ذلك بعد أسر الملك بقليل . إذ أرسل المأمون وزير الخليفة الآمر (٥١٥-٥١٩هـ / ١٢١١-١١٢٥م) جيشًا بقيادة حسام الملك النرسى القائد الفاطمى على أن يبقى حسام الملك بعسقلان ولايفارقها . ولكنه قام بمحاولة بحرية فاشلة لاسترداد يافا من الفرنج بالشام. فكان لهذا أسوأ الأثر على جيوش المسلمين التى فرت هاربة تاركة معسكرها نهبًا للفرنج [٥]. وفى العام التالى (١١٢٤م / ٥١٨هـ) ضرب الفرنج الحصار، للمرة الثانية، حول صور وشددوا الحصار حتى بدأت المؤن داخل المدينة فى النفاذ . فأرسلوا إلى طغتكين يطلبون موافقته على تسليم المدينة لهم، على أن يؤمن كل من بداخلها من السكان سواء من أراد البقاء فيها أو من رغب فى مغادرتها . وفى تلك الفترة ارتفع علم كل من كونت طرابلس ودوق البندقية على أبواب المدينة[٦]. مما يوضح مشاركة كونتيه طرابلس وتابعها

١- هو بلك بن بهرام بن أخى ايلغازى التركمانى ابن ارتق وكان ايلغازى يثق به كثيرًا ولقد انتزع حلب بن سليمان بن عبد الجبار وحمل راية الجهاد ضد الصليبيين فى هذه الفترة .

٢- خرتبرت هو اسم أرمنى وهو الحصن المعروف بحصن زياد الذى يجئ فى أخبار بنى حمدان فى أقصى ديار بكر من بلاد الروم، بينه وبين ملطية مسيرة يومية وبينهما الفرات ، أنظر : ياقوت الحموى، المصدر السابق، المجلد الثانى ، ص٣٥٥ ؛ ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف المسالك، ص٥٢ .

٣- Runciman, Op. cit., vol , p. 163 .

٤- Runciman, Op. cit., vol . II, pp. 163-164 .

٥- المقريزى: *اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا* ، ج٣، ص١٠٠ .

٦- Runciman, Op. cit., vol . II, p. 169 .

حاكم جبيل في حصار صور والاستيلاء عليها في ١١٢٤م / ٥١٨هـ . وفي عام ١١٢٦م / ٥٢٠هـ انتهت وصاية الملك الصليبي بلدوين على أنطاكية، وذلك بوصول بوهمند الثاني Bo-hemond II الوريث الشرعي لها ، والذي تزوج من أليس Alice ابنة الملك الصليبي وقد ذكر أحد المؤرخين الحديثين، وهو بوهير Bouhier، أن بوهمند الثاني جعل من جبيل واللاذقية بائنة لزوجته أليس، وذلك بحكم تبعيتهما لأنطاكية . وهذا يجافي الصواب ، ذلك لأن جبيل أبان تلك الفترة وبعد أن أصبحت من نصيب براتراند ووليم جوردان ، أعلن صاحبها براتراند آنذاك تبعيته للملك الصليبي وليس لصاحب أنطاكية كما قال المؤرخ المذكور . أما بالنسبة لجبلة فهي كانت تابعة بالفعل لصاحب أنطاكية بعد سقوطها . فمن الطبيعي أن يقدم جبلة وليس جبيل بائنة لزوجته [(١)]. وهذا لبس وقع فيه المؤرخ على الرغم من أنه ذكرها تحت اسم Zibel أي جبيل [(٢)]، كما وردت في معظم المصادر والمراجع الأجنبية . ولقد خلط كثير من المؤرخين بين جبلة وجبيل ، والتبس عليهم الأمر، فكانوا يشيرون إلى جبلة على أنها جبيل والعكس.

بعد ذلك بقليل، اضطربت الأوضاع الداخلية داخل مملكة بيت المقدس، في الوقت الذي تبلورت فيه ملامح اليقظة الإسلامية التي كانت تستهدف توحيد الجبهة الإسلامية في رقعة الشرق الأدنى لمواجهة الفرنج الدخلاء . واستمرت المناوشات بين الصليبيين وبعضهم البعض وبينهم وبين المسلمين . ففي عام ١١٣٠م / ٥٢٥هـ حاول بوهمند الثاني صاحب أنطاكية أن يعيد لإمارته التوابع التي كانت جزءًا من أنطاكية، خاصة بعد أن ضعفت سلطتها في قليقية، وبعد استيلاء براتراند على عرقه وأنطرطوس عقب وفاة وليم جوردان . هذا بالإضافة إلى وجود حامية فرنجية داخل المصيصة . في حين كانت عين زربة قد توفي أميرها الأرمني ثورس الروبيني ١١٢٩م / ٥٢٤هـ، وقد لحق به بعد بضعة شهور ابنه قسطنطين نتيجة مؤامرة في البلاد، فتولى حكم عين زربة ليو الأول شقيق ثورس، وهكذا تهيأت لبوهمند الفرصة لأخذها . فاضطر صاحبها إلى الاستنجاد بالأمير غازي الدانشمند، فتجمع الترك وأخذوا الأمير بوهمند على غرة وقتلوه، فكانت كارثة حلت بالفرنج[(٣)] يضاف إلى ذلك ، الصراع العنيف الذي نشب

١- Runciman , Op. cit., vol . II, pp. 176-177 .

٢- Bouhier , A short History of Antioch , p. 252 .

٣- Runciman, Op. cit., vol , II, pp. 182-183 .

بين جوتييه صاحب قيسارية وهيو كونت يافا (١). هذا ، فى الوقت الذى نجح فيه صاحب دمشق فى الإغارة على بانياس الخاضعة للحكم الصليبى، واستطاع أن يستردها فى ٤ صفر ٥٢٧هـ / ١٥ ديسمبر ١١٣٢م(٢).

ومما يدعو إلى التساؤل أن جبيل لم تشارك فى هذه الأحداث التى كانت منطقة الشرق الأدنى مسرحًا لها آنذاك . فلم تدخل فى الصراعات التى قامت بين الفرنج وبعضهم البعض، خاصة بعد وفاة بلدوين ملك بيت المقدس اللاتينى عام ١١٣١م / ٥٢٥هـ، ولانجد تبريرًا معقولاً لذلك، اللهم أنها كانت ضمن قوات الفرنج الذين ساهموا فى تلك الأحداث والذين أشارت إليهم المصادر بصفة عامة ودون تحديد ومن ضمنهم أهل جبيل الصليبيين.

هذا، وإن لم تذكر المصادر المعاصرة موقفًا محددًا للمدينة تجاه تلك الأحداث التى كانت تفت فى عضد المملكة، إلا أن قادة جبيل كانوا على رأس المجتمعين من إفرنج الشرق حيث قدمت الحملة الصليبية الثانية بقيادة اثنين من كبار حكام الغرب هما لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا . وقد أجمع الفرنج على أن تكون دمشق هى هدف الحملة حتى يأمن الفرنج من مضايقتها المستمرة لهم، إلى جانب توسيع رقعة نفوذهم فى الشام . ولم ينجح الفرنج فى تحقيق بغيتهم لأن نور الدين محمود كان واقفًا لهم بالمرصاد . إذ كان هو الآخر يسعى لضم دمشق إليه لتقوية جبهته فى صراعه المرتقب ضد افرنج الشام، واستمرارًا لسياسة أبيه عماد الدين زنكى فى هذا الشأن، خاصة وأن الفرنج لم ينسوا اللطمة التى وجهها إليهم عماد الدين باستعادة الرها عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ. فكانت أول أمارة يستولى عليها الصليبيون فى الأراضى المقدسة، وأول أمارة يستعيدها المسلمون منهم. وفى تلك الأثناء كان معين الدين أنر قد تغلب على الأمور فى دمشق بسبب ضعف صاحبها جمال الدين بن طغتكين(٣). وقد أكدت المصادر أن جميع إفرنج الشام قد توجهوا مع قادة الحملة الثانية (٤). وأنهم عندما التقوا بمعين الدين أنر فى زحفهم نحو دمشق ، وكان ذلك قبل استيلاء نور الدين

١- حسن عبد الوهاب : قيسارية ، ص١١٥-١١٦ .

٢- William of Tyre , Op. cit., vol , I. p. 74 ; cf. also : Conder, Op. cit., pp. 98-99 .

٣- أبوشامة : الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١ ، ص٣٣-٣٤ .

٤- William of Tyre, Op. cit., vol . II, pp. 184-186 .

عليها. وفي عام ١١٤٨م / ٥٤٣ تمكن الفرنج من ملك بانياس[١] ووصل إلى بيت المقدس ثلاثة من ملوكهم وصلوا صلاة الموت ثم قفلوا عائدين إلى عكا ومعهم ٧٠٠ ألف فارس. وتدل هذه الرواية على مدى تخاذل قادة الفرنج في الإصرار على أهدافهم التي وضعوها للاستفادة من تلك الحملة التي بعث بها الغرب وإن كان عدد الفرسان مبالغ فيه إلى حد كبير.

ولقد تواترت شائعات تقول أن إفرنج بيت المقدس قبلوا رشوة قدرها مائتا ألف دينار، بالإضافة إلى مدينة بانياس مقابل ذلك، وأن الشاعر المسلم المعروف اسامة ابن منقذ قد توجه بالفعل إلى بيت المقدس لتنفيذ هذا الاتفاق، وأن الملك الفرنجي نفسه قبل هذا التحالف بسبب تفاقم قوة عماد الدين زنكي وتهديداته المستمرة لهم. فلما دعا فولك الأنجوي ملك بيت المقدس مجلسه للانعقاد، للنظر في العرض الذي بذله معين الدين آنر مع رسوله أسامه بن منقذ، ساد الشعور بأنه لابد من قبوله، قبل أن يفلت الزمام ويصبح من المتعذر علاج الموقف[٢].

ورغم الدور الهام الذي لعبه آل امبرياتشي الجنويون أصحاب جبيل في كل الأحداث التي كانت تمس المملكة الصليبية، إلا أن بعض المؤرخين نسبوا تلك الأحداث لحاكم جبيل والمقصود هنا حاكم جبلة وليس جبيل. ذلك أنه بعد سقوط الرها في أيدي عماد الدين زنكي ١١٤٤م / ٥٣٩هـ، ووصول تلك الأنباء إلى بيت المقدس، أرسلت الملكة مليسند إلى أنطاكية تستشير حكومتها في إيفاد سفارة إلى روما لتنهي هذا الخبر إلى البابا وتطلب منه الدعوة لحملة جديدة لإنقاذ الرها. واتفق على أن يكون مبعوث الفرنج إلى البابا هو هيو رئيس أساقفة جبيل الذي ذاع صيته بين الصليبيين[٣]، آنذاك. وهذا لبس آخر وقع فيه المؤرخ الفرنسي لويس برييه، وقد استدركه ستيفن رانسيمان الذي ذكر أنه في عام ١١٤٥م / ٥٤٠هـ أرسلت الملكة ميليسند Melisend هيو أسقف جبلة وليس جبيل على رأس هذه السفارة إلى البابا[٤]. وكان يحكم

١- ابن منقذ : الاعتبار، ص٩٤-٩٥، ابن الجوزي : مرآة الزمان، ج٨، ص١٩٧، ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦، ص٢٦٣، السلامي، مختصر التواريخ، ورقة ٥٦.

٢- Runciman, Op. cit., vol. 11, p. 227.

٣- Brehier, Les Croisdes, p. 103 ; cf. also : Iorga, Op. cit., p. 92-93.

٤- Runciman, Op. cit., vol. 11, p. 247.

جبيل فى هذا التاريخ وليم إمبرياكو William Embriaco [١]. ويؤكد رواية رانسيمان المؤرخ بروس Bruc الذى أعد كتابًا خصيصًا عن بيبلوس القديمة تحت اسم «جبيل العصور الوسطى» إذ يذكر أنه فى عام ١١٢٠م / ٥٢٤هـ أرسل البابا أنوسنت الثانى Innocent II (١١٣٠-١١٤٣م / ٥٢٤-٥٣٨هـ) إلى هيو أسقف جبيل (أى بيبلوس) يعلنه أن تبعيته لبطريركية أنطاكية قد تحولت لبطريركية صور[٢].

وتؤكد هذه الرواية زوال سلطة أنطاكية عن جبيل منذ خمسة عشر عامًا قبل تلك الأحداث لذا فإنه من غير المعقول أن تمارس ميليسند حق إرسال أسقف غير تابع لأنطاكية ، وربما قصد المؤرخ هذا أسقف جبلة وهذا ما أكده رانسيمان .

لقد كانت الفترة منذ سقوط الرها فى أيدى عماد الدين فترة مناوشات مستمرة بين الطرفين المسيحى والإسلامى. فكثيرًا ما أغار الفرنج فى صور وعكا على دمشق التابعة للمسلمين وأعمالها ، وكذلك على كل المواقع الإسلامية، الأمر الذى أثار ثائرة نور الدين محمود فاستغل أسطولاً مصريًا كان قادمًا إلى الشام مزودًا بالمؤن، وأغار على طرابلس وبيروت وكانتا تحصران جبيل بينهما . فأصاب المدينة من هجوم نور الدين ما أصاب كل معاقل الفرنج بالشام بصفة عامة [٣]، وكان ذلك فى عام ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م.

وقد اشتركت جبيل فى إحدى المنازعات التى قامت بين المسلمين والفرنج ضد سهل البقاع تحقيقًا لمصالحها الخاصة. وذلك أنه فى عام ١١٥٩م/ ٥٥٣ هـ قام هيو امبرياتشى بالإغارة على البقاع وأنزل بها بعض الخسائر، وذلك على الرغم من الاتفاقية المبرمة بين صاحب دمشق وبراتراند لكبح جماح آل امبرياتشى ضد البقاع[٤].

وقد تعرضت بلاد الشام إبان تلك الفترة، للمرة الثانية، لزلازل عنيفة أتت على الكثير من دورها ومدنها . ولم تنج جبيل من هذه الكوارث الطبيعية ، إذ تعرضت ، هى الأخرى

١- Bruc, Op. cit., p. 131 .

٢- Bruc, Op. cit., Loc . cit .

٣- الفيومى : نثر الجمان فى تاريخ أهل الأعيان، مخطوط ، القطعة الأولى، ص١٠-١٧ ، انظر أيضا : أبوشامة : المصدر السابق، ص٨٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٢ ، ص٢٢٣ .

٤- Bruc, Op. cit., p. 132 .

عام ٥٤٦هـ/ ١١٥١م لزلازل عنيف بسبب هبوط القشرة الأرضية بها مما أدى إلى موت الكثيرين[١]. وتحطمت مدن بأكملها مثل بانياس وصفد التى لم يتبق منها سوى حارة واحدة كما تحطمت صور وعرقة. ولكن لانستطيع القول أن مثل تلك الزلازل قد عرضت جبيل لمحنة اقتصادية أثرت بشكل ملموس على علاقاتها سواء ببنى جنسها من إفرنج الشام أو بجيرانها المسلمين، إذ من المعروف أن جبيل عاشت فترة ازدهار اقتصادى كبير فى ظل حكم أسرة إمبرياتشى التى كان أفرادها تجاراً فى الأصل، الأمر الذى مكنهم من أن يقيموا لأنفسهم وزنا اقتصادياً لايستهان به، جعل القوة الصليبية فى الشام تعتمد عليهم وتعتبرهم عوناً اقتصادياً لها فى الكثير من الأحيان. وسوف تكشف الفصول القادمة كيف أن الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى Frederick II عند رحيله عن الشام اقترض مبلغاً كبيراً عام ١٢٢٩م / ٦٢٥ هـ من هيو صاحب جبيل (١٢٢٩-١٢٥٩م / ٦٢٥-٦٥٥هـ) بعد الدور الذى لعبته المدينة فى حملة الإمبراطور الصليبية المعروفة بالحملة السادسة فى عداد الحركة الصليبية.

وهكذا ضارعت جبيل فى ثرائها أغنى إقطاعيات وكونتيات الفرنج فى الأراضى المقدسة[٢]. ولم يذكر ابن العديم أن بلاد الشام قد تعرضت لمحن اقتصادية إبان فترة الزلازل المدمرة التى حلت بها آنذاك، بل أكد أن الأسعار كانت رخيصة إلى حد كبير[٣].

كذلك قامت مدينة جبيل بدور هام فى المصادمات العسكرية التى خاضها إفرنج الشام ضد المسلمين للاستيلاء على مدينة عسقلان آخر المعاقل الفاطمية على الساحل الشامى التى ظلت تقاوم الغزو الصليبى أكثر من خمسين عامًا منذ بداية الحركة الصليبية فقد كانت الدولة الفاطمية تعانى حالة من التمزق والاضطراب الشديدين مع أوائل عام ١١٥٣م / ٥٤٨هـ. إذ

١- ابن العديم : زبدة الحلب، ص٢٧٠ ، أبوشامة : الروضتين ، ج١ ، ص١٠٤ ، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢١٢ ، العينى : عقد الجمان ، ج١١ ، ق١ ، لوحة ١٠١، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك، ج٦ ، لوحة ١٤٧أ ، البغدادى : الإفادة والاعتبار، ص٦٠ ، كمال الدين ابن ميسر : منتخبات من تاريخ ابن ميسر فى : ص٦٧٩ R. H. C. H .H. or.

وأيضًا السيد عبد العزيز سالم : دراسة فى تاريخ صيدا فى العصر الإسلامى، ص١١١ .

٢- Bruc, Op. cit., p. 131 .

٣- ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٢٨٤ .

كان اغتيال الوزراء والقادة أمرًا عاديًا ، بحيث لم يكن باستطاعتهما حماية ممتلكاتها فى الشام ضد الصليبيين. ولم يصل إلى عسقلان أثناء حصارها سوى أسطول بحرى قد أعده لنجدتها الوزير الفاطمى العادل بن سلار قبل موته بفترة قصيرة، ولكن تفرق القادة المسلمون فى المنطقة ، بالإضافة إلى تمزق العلاقات بين نور الدين محمود ومجير الدين صاحب دمشق بسبب الخلاف حول استرجاع بانياس من الفرنج أو إنقاذ عسقلان، مما أدى إلى عودتهما دون أن يتمكنا من مساعدة هذا المعقل الهام المتبقى للفاطميين فى الشام ، فضلاً عن أن صراع الأهالى داخل المدينة نفسها أدى إلى عدم وجود قوة موحدة بالداخل تستطيع قمع العدو. كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى دخول الصليبيين عسقلان فى ١٩ من أغسطس ١١٥٣م / ٢٦ من جمادى الأولى ٥٤٨هـ لتبقى المدينة قرابة ثلث قرن فى أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين الأيوبى عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ[1] . وبذلك يكون الفرنج قد نجحوا فى احتواء الساحل الشامى من أقصاه إلى أقصاه فى فترة زمنية قصيرة ساءت فيها أحوال الخلافة الفاطمية فى مصر والشام. فكان الخليفة العاضد لاحول له ولاقوة ووزيره طلائع بن زريك قد استبد دونه بشئون الحكم فدبر الخليفة مؤامرة لاغتياله ، وتولى بعده ابنه العادل بن طلائع ، وقد تفاقمت الأمور بصراع شاور وضرغام على وزارة مصر فى وقت كانت فيه الخلافة الفاطمية تلفظ آخر أنفاسها وكل من نور الدين محمود وعمورى ملك بيت المقدس واقفًا للآخر بالمرصاد. وكان هذا بداية صراع مرير بينهما حول الاستيلاء على مصر. إذ أصبح هدف كل منهما الإنقضاض عليها قبل الآخر، لأنه إذا ما نجح نور الدين فى أخذ مصر لتمكن من أن يكتل الجبهة الإسلامية ويتحكم فى الفرنج شمالاً وجنوبًا. وإذا ما استطاع الفرنج أن يستولوا عليها لتمكنوا من تضييق الخناق على نور الدين من الشمال والغرب والجنوب، بالإضافة إلى مراكزهم الأخرى المنتشرة على طول الحوض الشرقى للبحر المتوسط. لذلك كانت مسألة السبق فى الاستحواذ على مصر بموقعها الهام مسألة حياة أو موت بالنسبة لكل منهما .

وفى عام ٥٢٨هـ/ ١١٦٣م قام نور الدين بجمع عساكره ونزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد

١- ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ٨ ، ق١ ، ص٢١٥ ، أبوشامة : الروضتين، ج١، ص٩٠ ، انظر أيضًا : أسامة زيد: المرجع السابق، ص١٤٥-١٤٧ . وحول سقوط عسقلان انظر أيضًا :

Runciman , Op. cit ., vol, II. p. 472 .

ونازل طرابلس وبالقرب منها جبيل، ولكن الفرنج أخذوا المسلمين على غرة وفقًا لرواية الفيومى، إذ بينما كان المسلمون داخل خيامهم أطبق عليهم الفرنج وأثخنوا فيهم القتال[1].

وفى الوقت الذى قدم فيه عمورى نحو مصر تمكن ضرغام من إجباره على العودة وقد بادر بالعودة للشام خاصة عندما علم بما فعله نور الدين بالمعسكر الصليبى فى طرابلس[2]. كذلك كلف نور الدين محمود صلاح الدين الأيوبى بالهجوم على قلعة الكرك بالشام التابعة للفرنج، ليشغلهم عن التوجه إلى مصر، وكان ذلك عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م. وقد تمكن صلاح الدين من تخريب منازلها وهدم أسوارها [3]. وكان نور الدين يستهدف إلحاق أكبر الخسائر بالإفرنج فى الشام، فبعثرة جهودهم وتشتيت شملهم سيشغلهم عن قصد مصر. ففى عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م تمكن نور الدين عند حارم[4] من أن يلحق بالفرنج هزيمة كبرى فى نوبة البقيعة. واستطاع أن يأسر الكثير من قادتهم «ومنهم» ابرنس انطاكية وقومص طرابلس وابن جوسلين وغيرهم . وقد اغتنم المسلمون كثيرًا من هذه الغارات». كما فتح نور الدين فى العام التالى ٥٦٠هـ/ ١١٦٥حصن بانياس وهو بيد الفرنج، كما سار نحو حصن المنيطرة [5]. وغنم وسلب الكثير[6]. ولكن أمام محاولات عمورى المستمرة للإغارة على مصر، بالإضافة إلى إلحاح شاور المستمر على نور الدين ليعضد جانبه ضد ضرغام ، اضطر نور الدين إلى إرسال شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر فى الوقت الذى وقف فيه عمورى إلى جانب ضرغام. وقد انتهت تلك

١- الفيومى : نثر الجمان فى تاريخ أهل العيان، القطعة الأولى، ص٤٧ ، العينى: عقد الجمان، من أحداث ٥٤٨-٦٦٥، لوحة ٣٥٤ .

٢- ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧ ، ورقة ١٤-١٥ .

٣- ابن أبى السرور: عيون الأخبار ونزهة الأبصار، لوحة ١٦٠ .

٤- حارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية، وهى الآن من أعمال حلب، وفيها أشجار كثيرة ومياه ، وهى لذلك وبئة، وهى فاعل من الحرمان أو من الحريم، كأنها لحصانتها يحرمها العدو وتكون حرمًا لمن فيها. أنظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق، المجلد الثانى ، ص٢٠٥ .

٥- المنيطرة : تصغير بالطاء المهملة ، حصن بالشام قريب من طرابلس، أنظر : ياقوت الحموى ، المصدر السابق ، الجزء ٤ / ٢ ص٦٧٣ ، طبعة ليبزج ، ١٨٦٩ .

٦- أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ص١٣٣، ١٤١، أنظر أيضًا : الفيومى: نثر الجمان ، القطعة الأولى ، ص٥٣ .

المحاولات بعودة شيركوه إلى الشام بعد أن تعهد شاور بدفع مبلغ كبير له من إيراد مصر . واستمر كل منهما يعد العدة للعودة إلى مصر. وبالفعل تجدد الصراع مرة أخرى فى عام ١١٦٧م/ ٥٦٢هـ حين وصل شيركوه إلى مصر لتحقيق آمال نور الدين فيها . وقد ذكر بعض المؤرخين أن شيركوه لم يقدم هذه المرة إلى مصر إلا بناء على رغبة الخليفة العاضد نفسه ليستنجد به ضد شاور [١]، الأمر الذى اضطر الأخير إلى الاستعانة بعمورى ضد نور الدين وشيركوه ومن ورائهما الخليفة العاضد ومنح شاور مبلغًا ضخمًا لعمورى مقابل مجيئه إلى مصر وتخليصه نهائيًا من شيركوه [٢]. وهذا يعنى أن الصراعات الداخلية بين وزراء الفاطميين حول تولى السلطة فى مصر بينما كانت الخلافة تعانى سكرات الموت، كانت بالنسبة لكل من شاور وضرغام فوق الصالح الإسلامى العام. وفى هذا الصدد أورد وليم الصورى ما يناقض رواية ابن الجوزى التى تخلص فى تحالف العاضد مع نور الدين ضد شاور والفرنج. إذ يذكر المؤرخ اللاتينى أن الملك الصليبى عمورى بعد موافقته على القدوم لمصر ضد شيركوه عقد اتفاقًا مع شاور بهذا الشأن، وحصل على موافقة الخليفة العاضد نفسه على أن يقف عمورى إلى جانب شاور للتخلص من شيركوه[٣] وليس من السهل تفضيل إحدى الروايتين على الأخرى، ولكن يمكن القول أن الخليفة العاضد كان ألعوبة فى يد وزرائه والأمر بيدهم هم، ولذلك فليس من المستغرب أن يكون أيضًا ألعوبة تتلاعب بها القوى المحيطة آنذاك ، وكل منها يسعى لتحقيق مصلحة خاصة، وإن كان الهدف واحد وهو القضاء على الخلافة الفاطمية.

وقد وصل شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين إلى مصر فى ربيع الأول ٥٦٢هـ- يناير ١١٦٧م. وحاول عمورى أن يلحق بشيركوه قبل عبوره غزة، إلا أنه وصل متأخرًا ، فبقى بعسقلان وانتهز الفرصة وحشد جنوده وعتاده . وبعد ذلك بقليل لحق بقوات شيركوه والذى كان قد عبر النيل وبقى بجيزة دمياط أكثر من أربعة وخمسين[٤] يومًا. فلحقت به قوات عمورى مما اضطر شيركوه إلى التقهقر ووصل إلى موضع يقال له البابين وهو بالمنيا فى الصعيد وكانت قوات عمورى وشاور من الكثرة، الأمر الذى بعث الخوف فى قلب شيركوه، فآثر العودة

١- ابن الجوزى: مرآة الزمان، ج٨ ، ص٢٦٨ .

٢- أبو شامة : الروضتين، ج١ ، ص١٣١ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج٧ ، ورقة ٢٩ .

٣- William of Tyre, Op. cit., vol . II, p. 419 .

٤- أبوشامة : الروضتين ، ج١ ، ص١٤٢-١٤٣ .

إلى الشام. ولكن صلاح الدين أثار حماسته ، فقام بترتيب جنوده مرة أخرى لمواصلة القتال. وفي الوقت الذي هجم فيه عموري على جيش شيركوه كان ابن أخيه صلاح الدين في قلب هذا الجيش . فتظاهر بالهزيمة والرجوع مما جعل الفرنج ينهمكون في جمع الغنائم . فانتهز صلاح الدين الفرصة وألحق بهم هزيمة فادحة . ووقع الكثير من قادتهم بين أسير وقتيل [١].
ولكن هذه المعركة لم تضع نهاية لصراع المسلمين والفرنج حول ملك مصر فجمع شيركوه قواته مرة أخرى وسار إلى الإسكندرية التي رحبت به لميلها للمذهب السني وبقي صلاح الدين مع قواته داخل الإسكندرية ، في حين عاد شيركوه للصعيد ليحصل على الأموال والعتاد اللازمين لمواصلة القتال. وانتهز الصليبيون فرصة وجود صلاح الدين بمفرده في الإسكندرية ، وحاصروا المدينة لمدة ثلاثة أشهر في الوقت الذي وصلت فيه إمدادات ضخمة للفرنج وعلى رأسها أسقف مدينة صور. وكانت جبيل ممثلة في هذه المساعدات بما قدمته من الفرسان والعتاد بحكم تبعيتها لبطريركية صور. وقد عاني صلاح الدين كثيراً من هذا الحصار وعلم بذلك عمه شيركوه الذي آثر الصلح وفقًا لرواية المؤرخين الفرنج، هذا في الوقت الذي وصلت فيه الأخبار إلى عموري بما سببه نور الدين من مضايقات للفرنج في الشام. فآثر هو الآخر عقد الصلح على فك الحصار عن الإسكندرية وخروج صلاح الدين منها، وتعويض شيركوه بمبلغ خمسين ألف دينار ، وأن يخرج الفرنج من كافة الأماكن التي استولوا عليها. وأقر الصلح على ذلك النحو، والخليفة العاضد ليس له من الأمر شئ ولايعلم بشئ من ذلك[٢]. وكان هذا هو كل ما زودتنا به المصادر عن دور جبيل في الصراع بين عموري ونور الدين حول ملك مصر وحتى تلك المرحلة.

وبعد ذلك عاد شيركوه وصلاح الدين إلى الشام حيث دخلا دمشق ، في حين قفل الملك الصليبي عائداً إلى عسقلان . وقد ذكر أبوشامة ويؤيده في ذلك وليم الصوري أن عموري طلب بقاء جماعة من الفرسان الفرنج ومشاهيرهم بمصر لحراسة بواباتها ومنع نور الدين من محاولة إرسال جنوده إلى هناك[٣]. وليس هناك من تعليق على ذلك سوى أن الخلافة الفاطمية بلغت مرحلة من الضعف جعلتها أشبه بالسفينة الغارقة التي تتقاذفها الأمواج.

١- ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧، ورقة ٣٠-٣١ .

٢- أبوشامة : الروضتين ، ج١، ص١٤٣ .

٣- أبوشامة : المصدر السابق ، نفس الصفحة ، انظر أيضًا: William of Tyre, vol , II, p. 343 .

وهكذا ، فإن صراع عموري ونور الدين يلقى الضوء على الدعم الذى كان يتلقاه الملك الصليبى فى أى حملة عسكرية يقودها ضد المسلمين . ولقد قيل أن معظم جيش عمورى إلى مصر كان من إفرنج طرابلس وتابعتها جبيل. ولايدخل فى نطاق هذا البحث تفاصيل الصراع بين عمورى ونور الدين، إلا أن القتال لم ينته بينهما حتى عام ١١٦٩م / ٥٦٤هـ. حين قدم شيركوه للمرة الثالثة والأخيرة إلى مصر وتمكن من قتل شاور وتولى وزارة مصر إلى أن مات وتولى بعده صلاح الدين(١)، وبذلك انتهت الدولة الفاطمية فى مصر وبدأت دولة جديدة هى الدولة الأيوبية نسبة إلى مؤسسها صلاح الدين الأيوبى. وهكذا فإن انتقال الحكم فى مصر من الفاطميين الشيعة إلى الأيوبيين السنيين، وفشل محاولات عمورى فى الاستيلاء على مصر، فى الوقت الذى كان فيه نور الدين محمود يستكمل سياسته لتوحيد الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى ضد الخطر الصليبى، كان بمثابة ناقوس الخطر بالنسبة لإفرنج الشام.

وبعد ذلك سادت بلاد الشام فترة كساد واضمحلال شديدين نتيجة زلازل مدمرة جديدة وقعت عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م فى حلب بمعظم نواحيها . وذكر ابن العديم أنه بعد وفاة نور الدين محمود عام ٥٦٩هـ / ١١٧٤م عمت بلاد الشام موجة من الغلاء والقحط الاقتصادى(٢). ولكن إقطاعية جبيل ، رغم هذه الزلازل ، عاشت تحت حكم أسرة امبرياتشى فى حالة ازدهار اقتصادى إذ قامت تلك الأسرة بعقد الكثير من الصفقات التجارية مع إفرنج الشام بعامة ومع جنوه بصفة خاصة . بل وصل الأمر بتلك الأسرة أن تدخلت اقتصادياً فى شئون المدن الفرنجية فى الشام كثيراً ما حدثت احتكاكات خطيرة بينها وبين حكام تلك المدن نتيجة تغلغلها الاقتصادى فى الشام. ولم تكن تبرم معاهدة أو تعقد اتفاقية تجارية تجارية بين مدينة وأخرى من المدن التابعة للفرنج ألا وتكون أسرة امبرياتشى طرفاً فيها أو شاهداً عليها، مما زاد من طموحاتها فى بلاد الشام والعمل على إقامة المزيد من المنشآت الإقطاعية فى جنوه الوطن الأم لآل امبرياتشى. وقد ذكر بيرن Byrn أن آل امبرياتشى كثيراً ما امتنعوا عن دفع الجزية السنوية المقررة لجنوة، بل لقد قيل إن وليم امبرياكو الثانى (١١٥٧-١١٦٢ / ٥٥٢-٥٥٧هـ)

١- ابن أيبك : كنز الدرر، ج٧ ، ص٣٧ ، ٤٠ ، أنظر أيضاً : أبوشامة : الروضتين ، ج١، ص١٥٤ .

٢- ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢ ، ص٣٤١ . وعن وفاة نور الدين محمود أنظر: أبو شامة ك الروضتين ، جـ١، ص٢٢٧-٢٢٩ .

كان اخر من التزم بدفع الجزية لجنوة، لدرجة أن البابا أوربان الثالث (١١٨٥-١١٨٧م / ٥٨١-٥٨٣هـ) أرسل عام ١١٨٦م / ٥٨٢هـ خطابات متعددة لحكام وأساقفة الفرنج بالشرق يحثهم فيها على إلزام هيو امبرياكو الثالث بدفع الديون المتراكمة على أسرته لجنوة . وكثيراً ما تغاضت حكومة جنوة عن حقوقها مقابل منحها حرية التجارة والحصول على مراكز لها فى الشام، وخاصة فى جبيل[1] . وكانت تلك هى سياسة أسرة امبرياتشى حيال كل من المسلمين والفرنج. فلم يكن يعنيها الصالح الصليبى العام إلا بالقدر الذى يخدم مصالحها . فهى دائماً مع الطرف الذى يحقق لها مزيداً من الثراء والامتيازات . وظل الأمر على هذا الوضع إلى أن حدثت موقعة حطين الشهيرة واسترداد المسلمين مدينة جبيل عام ١١٨٧م/ ٥٨٣هـ. حينئذ بدأ آل امبرياتشى يفقدون نفوذهم فى الشرق، وعاد الكثيرون منهم إلى جنوة فى عام ١١٩٣م / ٥٨٩هـ. فلقد أحدث نجاح صلاح الدين فى حطين ارتباكًا شديداً لآل امبرياتشى وكل إفرنج الشام. لقد عاشت أسرة امبرياتشى فى إقطاعية جبيل وحتى استعادة المسلمين لها، تعد من نفسها حكومة خاصة لها لاسلطان عليها من قبل جنوة أو إفرنج الشرق سوى الملك الصليبى الذى لم يسع قط للتدخل فى شئونها الداخلية طالما كانت تؤازره فى كل الحملات التى كان يقوم بها إما لمصالحه الخاصة أو لصالح الصليبيين عامة فى الشرق.

وبعد وفاة الملك عمورى عام ١١٧٤م / ٥٩٦هـ، لم تكتف جبيل بالقيام بدور التابع للمملكة اللاتينية فى الأراضى المقدسة وذلك بالاشتراك فى حملاتها ضد المسلمين، بل كثيرا ما قامت بالمشاركة مع كونت طرابلس فى مهاجمة سهل البقاع على مرات متفرقة، إذ اعتبرت جبيل أن هذا السهل طالما فى أيدى المسلمين فإنه يشكل خطراً على أمنها. ولذا قامت قوات من جبيل عـــام ١١٧٦م / ٥٧٢هـ [2]. بقيادة هيو الثانى امبرياكو، وأغارت على سهل البقاع. وكان المسلمون آنذاك ينعمون بفترة انتعاش سياسى واقتصادى ، بعد ما أحرزه نور الدين من انتصارات ضد الفرنج . إذ وجه لهم المسلمون ضربة عنيفة بالقرب من السهل قضت على عدد كبير من قوات هيو وأسر الكثيرين .

١- Byrne, Op. cit., pp. 148-150, 151 , 153 , 155 .

٢- Bruc, Op. cit., pp. 132-133; cf. also : Grousset , Op. cit., t. II, p. 631 .

ولكن بعد ذلك بقليل ، وفى نفس العام المذكور عاود هيو الثانى أمبرياكو إغاراته على سهل البقاع وذلك بالتواطؤ مع ريموند كونت طرابلس. كما قدم من الجنوب جيش مملكة بيت المقدس بقيادة همفرى سيد تبنين [١]. والملك الصليبى بلدوين الرابع الذى لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وكان يعانى من مرض البرص. وقد تعرض هيو ومن معه للهزيمة على يد ابن المقدم «أمير بعلبك» . غير أن الصليبيين اجتمعوا سويا ، وأنزلوا هزيمة ساحقة بتوران شاه، شقيق صلاح الدين، وبقوات دمشق . على أنه لم يكد صلاح الدين يقدم من الشمال، حتى انسحبوا فى الحال ولم يقتف صلاح الدين أثرهم، إذ كان حريصاً على العودة إلى مصر بعد أن وضع توران شاه على قيادة جيشه بالشام. ووصل إلى القاهرة فى سبتمبر ١١٧٦م / ربيع أول ٥٧٢هـ[٢].

لقد كان صلاح الدين يفضل بصفة عامة ألا يدخل مع الفرنج فى معارك حاسمة فى الوقت الذى كان يستكمل فيه سياسة عماد الدين وابنه نور الدين توحيد الجبهة الإسلامية فى الشام ومصر ، كى تطبق على إفرنج الشام من الشمال والجنوب وتضعهم بين شقى الرحى. وبكلمة أخرى كان يرى أنه يجب أن يسبق الجهاد الأكبر ضد الفرنج عملية تكتيل القوى الإسلامية فى منطقة الشرق الأدنى فيما يعرف باسم الجهاد الأصغر، اللهم إذا دعت الضرورة للدخول فى مناوشات جانبيه معهم.

على أية حال ، لقد عثر على نقش أثرى داخل جبيل كتبه أحد الكهنة، ومفاده أنه أثناء هجوم صاحب جبيل على البقاع، وصل إلى المدينة سبعة من الجنوية من سلالة أسرة امبرياتشى وقد وصفهم المؤرخ كوندر أنهم سبعة قناصل . ويتضح من هذا النقش أنهم أتوا ويصحبتهم ما بين ١٥٠ و٢٠٠يهودى، وأنهم قد فرضوا سلطتهم على جبيل ، وقد ورد اسم قائد هؤلاء الجنوية وهو «ويليام امبرياكو وأسماء عدد من قدموا معه من اليهود وهم بنجامين

١- تبنين: بكسر أوله وتسكين ثانيه، وكسر النون وياء ساكنة ونون أخرى ، وهى بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور، أنظر ياقوت الحموى: المصدر السابق، المجلد الثانى، ص١٤ .

٢- Runciman , Op. cit., vol. II. p. 410 .

٣- Conder, The Latin kingdom of Jerusalem , p. 208 .

ويعقوب وزيمشا وماثير. وكان زيمشا هذا هو كبير هؤلاء اليهود. لكن ثارت بعض الشكوك بعد ذلك حول اسم اليهودى دى ماثير على أنه اسم لأشهر تاجر يهودى معروف فى صور وأنه عاش فى نفس الفترة التى هاجم فيها الجنوية مدينة جبيل أثناء انشغال قائدها بحربه ضد سهل البقاع. وقد أكد بعض المعاصرين لتلك الحادثة أن كل هؤلاء ليسوا يهوداً وإنما هم افرنج من أصل أوروبى، انتهزوا فرصة انشغال حاكمها وأغاروا على المدينة إما طمعًا فيها وإما باعتبارهم مندوبين من قبل حكومة جنوة لفرض سيطرتهم على الموارد الاقتصادية وخاصة الأموال ليحصلوا على حقوق جنوة من الجزية التى رفضت أسرة امبرياتشى دفعها. وهذا مجرد احتمال ليس هناك سند يؤكده بشكل واضح، وإنما تعززه الأحداث التى كانت المنطقة مسرحًا لها، والعلاقات السيئة التى ساءت بين آل امبرياتشى وجنوة . ثم أن هذا يكشف عن التصدع الذى بدأ يظهر فى الكيان اللاتينى فى الأراضى المقدسة من ناحية، وطبيعة العلاقات التى كانت قائمة وقتها بين افرنج الشرق وموطنهم الأصلى من ناحية أخرى. هذا فى الوقت الذى بدأت فيه القوة الإسلامية فى الشرق الأدنى فى النمو والازدهار بفضل مجهودات صلاح الدين . واستمرت المناوشات بين طرفى الصراع التى أسهمت فيها إقطاعية جبيل. ففى عام ١١٧٧م / ٥٧٣هـ تجمع الفرنج مرة أخرى تحت قيادة الملك بلدوين المريض لنصرة عسقلان عندما حاصرها صلاح الدين الذى تمكن من إنزال الهزيمة ببعض قوات بلدوين. وقد أتاحت له هذه الفرصة مواصلة السير نحو بيت المقدس. لكن صلاح الدين تهاون بعض الشئ فى ضبط جنوده ، وسمح لهم بأن يطوفوا بالقرى والمدن التى مروا عليها فى الوقت الذى استنجد فيه الملك الصليبى بالداوية . وباتباعه الفرنج، وتمكنوا مجتمعين من إنزال الهزيمة بصلاح الدين عندما فاجأوا فى موضع قريب من جنوب شرق الرملة. وكاد صلاح الدين أن يقتل لولا حرسه الخاص. وممن شاركوا فى القتال من الفرنج ولدا زوجة ريموند كونت طرابلس. وحاكم جبيل الذى لم يتردد فى الاشتراك فى أى من الحملات التى يخوضها الكونت أو الملك(١).

وبعد ذلك استمر صلاح الدين بمصر . وفى عام ١١٧٨م / ٥٧٤هـ ، وصل إلى دمشق ، ودارت عدة مناوشات بينه وبين الفرنج تمثلت فى شكل إغارات بسيطة فى الوقت الذى دب فيه الضعف فى المعسكر الصليبى آنذاك بعد وفاة الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين عام

١- أبوشامة : الروضتين، ج١ ، ص٢٣٦-٢٣٧ .

١١٨٠م / ٥٧٦هـ، وكان صادقًا في ميله للفرنج وحليفًا قويًا لهم. وعمل لصالح إفرنج الشام طيلة حياته ، باستثناء الفترات التي تعارضت فيها مصالحهم مع مصالح الإمبراطورية . ويضاف إلى ذلك ضعف الملك الصليبي نفسه الذي هدده المرض في الوقت الذي كان فيه مركز الثقل في الصراع الصليبي الإسلامي بدأ يميل بوضوح لصالح المسلمين بفضل جهود نور الدين وصلاح الدين. وتقلصت المملكة الصليبية داخل طرابلس وصور وجبيل واللاذقية وأنطاكية وغيرها من المعاقل الفرنجية على الساحل الشامي، في حين وضع صلاح الدين يده على شيرز وحماه وبانياس وغيرها من الممتلكات التي كانت في حوزة الفرنج. وأن إحساس الفرنج بانهيار نفوذهم جعلهم يعيشون حالة قلق ورعب [1]. وهم يرون فكي الكماشة وقد أخذا يضغطان عليهم بشدة متزايدة بعد أن أتت حركة اليقظة الإسلامية ثمارها بتوحيد مصر والشام في جبهة قوية متماسكة ضد الدخلاء.

وإذا أردنا أن نقيم دور جبيل في الصراع الصليبي الإسلامي خلال تلك الفترة من الزمن ، سوف نجد أنها لم تقف موقفًا سلبيًا. بل شاركت مشاركة واضحة في جميع الأحداث السياسية والعسكرية التي كانت المنطقة مسرحًا لها، إما لصالح المملكة الصليبية وإما لصالحها الشخصي ، كما لعبت دورًا اقتصاديًا كان بمثابة الدعم الذي لا غنى عنه لتعزيز جيش الملك الصليبي في كل إغاراته وحملاته ضد المسلمين . وعلى الرغم من عدم ذكر المصادر المعاصرة للفترة موضوع الدراسة والمتأخرة عنها زمنيًا لدور جبيل صراحة إلا في حالات قليلة، إلا أننا استطعنا أن نستشف هذا الدور من الروايات التي أدمجت اسم جبيل تحت توابع المملكة المقدسة وحليف كونت طرابلس. وبناء على ذلك، يمكن القول أن المدينة شاركت مشاركة فعالة في العلاقات بين طرفيْ الصراع سواء كانت علاقات سلمية أو حربية يضاف إلى ذلك أن تلك المصادر لم تذكر أن جبيل امتنعت عن تلبية طلبات الملك الصليبي في بيت المقدس طبقًا للعهد الاقطاعي بينهما، اللهم إلا رفضها عقد الهدنة مع صلاح الدين بحكم تبعيتها لطرابلس الشام عام ١١٨٠م / ٥٧٦هـ والتي رفضت هي الأخرى التوقيع على تلك الهدنة . هذا فضلاً عن أن الملك الصليبي لم يتدخل في شئون جبيل الداخلية حتى عندما طالبت جنوة ذلك لإجبار أسرة امبرياتشي الحاكمة على دفع الجزية لها . وكان ذلك من عوامل

١- Grousset, op. cit., t. II, p. 558 .

استمرار العلاقات الطيبة بينها وبين الملكة. ولعل هذا يفسر سر استجابتها لكل مطالب الملك الصليبى والوقوف إلى جانبه فى كل حروبه ضد المسلمين فى مصر والشام.

هذا ، ولم تتعرض جبيل خلال تلك الفترة من الزمن وحتى موقعة حطين لهجوم إسلامى مباشر يهدف الاستيلاء عليها، كما حدث لكثير من مدن الساحل الشامى التابعة للفرنج. وإن كان هذا لايمنع من ممارسة جبيل لنشاطها السياسى ضد المسلمين فى هذه الفترة، عندما اشترك أخو هيو الثانى امبرياكو صاحب جبيل فى موقعة مرج عيون عام ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م. وستبقى جبيل تابعة للنفوذ الصليبى حتى سقوطها فى قبضة صلاح الدين فى موقعة حطين عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ ولكن المسلمين لم يتمتعوا بها طويلاً ، إذ سرعان ما خرجت من قبضتهم لتعود مرة أخرى إلى الفرنج بعد وفاة صلاح الدين وهذا ما سنتناوله بالدراسة فى الفصل التالى :

١- الفيومى : نثر الجمان فى تاريخ أهل العيان ، القطعة الأولى، ص٤٧، العينى: عقد الجمان، من أحداث ٥٤٨-٦٦٥، لوحة ٣٥٤ .

٢- ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧ ، ورقة ١٤-١٥ .

الفصل الثالث

استعادة المسلمين جبيل من الصليبيين

(١١٨٧-١١٩٧م / ٥٨٣-٥٩٤هـ)

- موقعة مرج عيون وأسر شقيق هيو الثالث صاحب جبيل (١١٧٩م/ ٥٧٥هـ) - موقعة حطين وأسر هيو أميرياكو صاحب جبيل (١١٨٧م / ٥٨٣هـ) - استيلاء صلاح الدين على جبيل مقابل اطلاق سراح صاحبها (يوليو ١١٨٧م / ربيع آخر ٥٨٣هـ) - جبيل فى ظل الحكم الإسلامى، وتعيين أمير كردى من قبل صلاح الدين عليها - دور مدينة جبيل فى تعضيد جيوش صلاح الدين ضد مدينتى صور وطرابلس الخاضعتين للفرنج (يوليو ١١٨٧م / ربيع آخر ٥٨٣هـ) - صلاح الدين يهدم أسوار جبيل قبيل مجئ الحملة الثالثة (١١٨٩م / ٥٨٥هـ) - اتفاقية العادل أخو صلاح الدين والصليبيين، وابقاء جبيل على وضعها فى أيدى المسلمين (١١٩٢م/ ٥٨٨هـ) - وفاة صلاح الدين والآثار المترتبة على ذلك بالنسبة لجبيل (١١٩٣م / ٥٩٤هـ) - اتفاقية العادل والصليبيين الخاصة بمنح جبيل للاتين (١١٩٧م/ ٥٩٤هـ) .

اتسمت المرحلة الجديدة من تاريخ اقطاعية جبيل بحدوث تغير خطير فى أوضاعها السياسية نتيجة استيلاء المسلمين عليها فى موقعة حطين سنة ١١٨٧م / ٥٨٣هـ، لتصبح مرة أخرى تحت الحكم الإسلامى، بعد أن ظلت قرابة ثلاثة وثمانين عامًا فى حوزة الصليبيين وكان لهذه المرحلة سماتها الخاصة من حيث علاقة جبيل بجيرانها المسلمين والصليبيين، وكان أهم ما قام به صلاح الدين بعد استيلائه عليها هو تحطيم حصونها وأسوارها حتى لايستخدمها الفرنج إذا ما حاولوا استعادتها ثانية، وهذا ما حدث بالفعل عندما قام الفرنج بأولى محاولاتهم لاستعادتها من المسلمين.

فبعد تكتيل الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى، بدأ صلاح الدين يوجه ضرباته ضد معاقل الفرنج فى الشام ، وكانت موقعة مرج عيون من أبرز الأحداث التى اشتركت فيها جبيل لصالح الصليبيين قبل سقوطها فى أيدى المسلمين . ذلك أنه فى عام ١١٧٩م / ٥٧٥هـ اعترض الملك

بلدوين الرابع طريق المواشي القادمة من سهول دمشق في اتجاه بانياس واستولى عليها، فأرسل صلاح الدين ابن أخيه فروخشاه لمراقبة الموقف وإخطاره بتحركات الصليبيين وانقض فروخشاه فجأة على جيوش الفرنج من واد ضيق في بانياس، وأخذ الملك بلدوين على غرة، ولكنه تمكن من الفرار بمساعدة همفرى سيد تبنين (١). الذي استمر في مقاومة المسلمين حتى تمكن الملك وجيشه من الفرار . وواصل صلاح الدين انتصارات ابن أخيه ، بأن ألقى الحصار على قلعة مخاضة يعقوب غير أن استحكاماتها الدفاعية بلغت من القوة ما حمله على الارتداد عنها بعد بضعة أيام. فعسكر أمام بانياس ، وأرسل قواته للإغارة على الجليل وعلى بعض المناطق الواقعة على الساحل الشامي لتدمير محصولات صيدا وبيروت. واضطر الملك بلدوين أن يحشد قوات ضخمة من الفرنج لمواجهة الموقف، وانضم إليه كونت طرابلس وممثلاً عن جبيل ، وهو أخو صاحب جبيل الذي لم تذكر المصادر اسمه . وساروا عبر طبرية وصفد ومنها إلى تبنين، حيث علم الفرنج أن فروخشاه ومعه العديد من المسلمين المغيرين في طريق عودتهم من الساحل ومعهم غنيمة كبيرة فتحرك الجيش الصليبي نحو وادى مرج لاعتراض طريقهم ، في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يشاهد ما يحدث من برج للمراقبة على تل يقع شمال بانياس . وقد وقع الاضطراب في جيش فروخشاه، ومع ذلك نهض لمطاردة جيش الفرنج في الوقت الذي كاد فيه بلدوين أن ينزل الهزيمة بفروخشاه ، وقد حدث ذلك في ١٠ يونيو ١١٧٩م/ ٣ من محرم ٥٧٥ هـ .

وفي نفس هذا الوقت كان الكونت ريموند صاحب طرابلس ومعه بعض فرسان الداوية يتقدمون نحو نهر الأردن. وعند مدخل الوادى فاجئوا جيش صلاح الدين وبادر الداوية بالاشتباك مع المسلمين. ولكن صلاح الدين رد عليهم بهجوم عنيف ردهم على أعقابهم فولوا الأدبار مذعورين. وقد احتمى الملك بلدوين والكونت ريموند وقلة من رجالهم بقلعة شقيف أرنون(٢). أما أخو صاحب جبيل فكان أول من وقع أسيراً في قبضة صلاح الدين، كما أسر

١- تبنين : هو جبل تبنين ، وله قلعة منيعة، ولها أعمال متعددة ، وسكانها قوم رافضة إمامية، أنظر : الدمشقي : نخبة الدهر، ص٢١١ .

٢- أبوشامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص٨-٩، النويرى : نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ١ ٢٦ ، لوحة ١٢٠ ، ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢ ، ص٣٠٢ ، العيني : عقد الجمان ، ج٢١ ، ص٢٣ ، لوحة ٦١٤ ، المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص٦٨ ، السلامى : مختصر التواريخ ، ورقة ٥٨ ، أنظر أيضاً :

= Lane- Poole , Saladin and the Fall of the kingdom of Jerusalem pp. 159-160 .

أودو سانت أماند Odo، وهيو صاحب الجليل وغيرهم. ولكن كونتيسة طرابلس ووالدة هيو افتقدت ابنها بخمسة وخمسين ألف دينار صورى [١]. وطلب صلاح الدين مائة وخمسين ألف دينار فدية عن بلدوين سيد يبنه [٢]. ولم تمض بضعة أشهر حتى أطلق سراح بلدوين مقابل الإفراج عن ألف أسير من المسلمين، فضلاً عن تعهده بدفع الفدية المطلوبة . أما أودو مقدم الداوية فقد بلغ به الغرور أن رفض إطلاق سراح أحد كبار الأسرى المسلمين لديه مقابل إطلاق سراحه . وهكذا بقى هو وأخو صاحب جبيل فى الحبس بدمشق .

وعلى الرغم من اجماع المصادر العربية التى تحت أيدينا على أن صاحب جبيل لم يشترك فى تلك الموقعة، إلا أن ابن الجوزى وأبا شامة وصاحب مخطوطه «شفاء القلوب» قد أشاروا إلى أسره ، فيذكر أبو شامة أن ممن أسرهم صلاح الدين «ابن بارزان» ومقدم الداوية وابن صاحب طبرية وأخو أسقف صور وصاحب جبيل [٣] وحقيقة الأمر أن صاحب جبيل لم يشترك بشخصه فى المعركة، وبالتالى لم يقع أسيرًا فى قبضة المسلمين، ولكنه أسر فى موقعه حطين. ويعزز هذا أن معظم المؤرخين لم يشيروا إلى أسره وإنما أجمعوا على أسر أخيه. ولعل الأمر قد التبس على أبى شامة ، فخلط بين صاحب جبيل وبين أخيه .

لقد كان الغرب الأوربى عاجزًا آنذاك عن مد يد العون والمساعدة إلى أفرنج الشام، الأمر الذى جعل الملك بلدوين يرسل إلى صلاح الدين فى طلب عقد هدنة ، خاصة بعد قيام الأسطول الإسلامى بمناوشات عسكرية متعددة على مراقد الفرنج ومن بينها الجليل، وعلى بعض السفن

= أما شقيف أرنون : فهى قلعة حصينه فى كهف من الجبل ، قرب بانياس من أرض دمشق ، بينها وبين الساحل .. أنظر : ياقوت الحموى ، جـ٣، ص٣٥٦ .

١- الدينار: كانت كلمة الدينار تطلق على جميع نقود الذهب، وإن كانت تلك النقود من أضعاف أو أجزاء من الدينار ، وكان أول من ضرب الدينار هو عبد الملك بن مروان بعد عام الجماعة سنة ٧٤، ٧٥ للهجرة وآخر دينار ضرب فى الدولة الإسلامية كان بعد سقوط الدولة العباسية. للمزيد أنظر : ناصر النقشبندى : الدينار الإسلامى فى المتحف العراقى، جـ١ ص١٧ و٢٣

٢- يبنه : من بنى يبنى، بليدة قرب الرملة فيها قبر صحابى بعضهم يقول أبى هريرة، وبعضهم يقول قبر عبدالله بن أبى السرح، أنظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج٤، ق٢، ص١٠٦ ، طبعة ليبزج.

٣- أبوشامة: الروضتين، ج٢، ص١٠ ، ابن الجوزى: مرآة الزمان، ج٨، لوحة ٣٠٤، شفاء القلوب فى أخبار بنى أيوب ، لوحة ٣٥ ب .

الراسية فى ميناء عكا . هذا فى الوقت الذى أنقسم فيه الأمراء الفرنج على أنفسهم ، وعاشوا فترة من التمزق والخلافات دون وصول أى نجدات من الخارج ولم يتردد صلاح الدين فى إبرام هذه الهدنة نظرًا للجفاف الذى حل ببلاد الشام فى هذه السنة (١١٨٠م / ٥٧٦هـ) والمجاعات التى تعرضت لها سوريا ، بالإضافة إلى رغبته فى الاستيلاء على حلب. وقد تطلب هذا منه قدراً من التفرغ والاعداد ، لذلك تم عقد الهدنة بين الطرفين (فى مايو ١١٨٠م / محرم ٥٧٦هـ) لمدة سنتين (١). وتعهد فيها الطرفان أن يعيشا فى سلام ودون حرب ، غير أن ريناالد دى شاتيون Rinald de Chation صاحب الكرك(٢)، المعروف فى المصادر العربية باسم «ارناط صاحب الكرك» ساءه أن يرى القوافل الإسلامية تسير قرب إقطاعه بمقتضى الهدنة المبرمة بين المسلمين والفرنج . فقام بالاعتداء على واحة تيماء الواقعة بين دمشق ومكة، وانقض على قافلة للمسلمين كانت فى طريقها إلى مكة، واستولى على كل ما تحمله من سلع تجارية. وكان صلاح الدين بمصر فى ذلك الوقت، فأرسل حملة عاجلة بقيادة فروخشاه الذى سار من دمشق نحو أقليم الكرك. ولم يسع ريناالد إلا العودة إلى إقطاعه وطالب صلاح الدين الملك بلدوين بدفع التعويضات اللازمة عما نهبه ريناالد، بالإضافة إلى نقضه الهدنة. غير أن بلدوين كان ضعيف الشخصية حتى أنه وقع تحت تأثير افرنج الشام المؤيدين لريناالد ، ورفض أن يدفع التعويضات المطلوبة وأن يلزم ريناالد بدفعها .

هنا انتهز صلاح الدين فرصة مرور قافلة بحرية صليبية تحمل أعداداً كبيرة فى طريقها إلى بيت المقدس، ولكنها جنحت تجاه دمياط دون علمها بنقض ريناالد للهدنة، وما فعله بقوافل المسلمين. فاحتجزها صلاح الدين وقام بمساومة الملك الفرنجى فى أن يطلق سراح القافلة فى مقابل إرجاع كل ما نهبه ريناالد، غير أن ريناالد رفض الاستجابة لذلك، الأمر الذى جعل الحرب شيئًا لا مفر منه بين الصليبيين والمسلمين(٣).

١- البندارى : سنا البرق الشامى، ج١، ط. بيروت ، ص٢٤٥ .

٢- الكرك : هو اسم لاكثر من موضع فى بلاد الشام منه كرك نوح نسبه إلى نوح عليه السلام ومنه الكرك وهى بلده على ساحل بلاد المسلمين بالشام والكرك هى كلمة أعجمية أيضًا واسم لقلعة حصينة جدًا فى طرف الشام من نواحى البلقاء، أنظر: يوسف غوانمة: إمارة الكرك الأيوبية ، ص٥٠-٥١ .

٣- المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٢ ، ص٣٠٩ ، انظر أيضا: =

وقد شعر الفرنج بالخطر الإسلامي الجاثم عندما علموا بمغادرة صلاح الدين مصر في مايو ١١٨٢م / ٥٧٨هـ متجهًا إلى الشام. فعقدوا مجلسا للحرب في قيسارية لاتخاذ ما يلزم لمواجهة خطط صلاح الدين المقبلة[١]. والحقيقة أن صلاح الدين كان مشغولا بمحاربة آل زنكي في الشمال [٢]، ومحاولة ضم حلب والموصل والرها وحران، وسروج ليكمل إحكام الجبهة الإسلامية في المنطقة ، والقضاء على أية منازعات داخلية. ولكن ساءه ما رآه من هجوم الفرنج على حوران التابعة للمسلمين[٣] وتقدمهم نحو دمشق ، فأسرع إلى لقائهم واتجه إلى بيسان في مايو ١١٨٣م / صفر ٥٧٩هـ لمواجهة جيوش الفرنج غير أن الحامية الصليبية في بيسان فرت هاربة أمام هجمات صلاح الدين الذي تقدم نحو عين جالوت ، وتمكن من إنزال الهزيمة بالصليبيين، واستولى المسلمون على غنائم كثيرة[٤]. وفي معمعة هذه المناوشات بين الطرفين، لم يتردد صاحب جبيل في الوقوف بجانب الملك الصليبي ضد المسلمين، إما طمعا في مزيد من الامتيازات ، أو رغبة منه في تدعيم الجبهة الصليبية بعد الحالة السيئة التي وصلت إليها من تفكك وضعف ، أو هو التزام من صاحب جبيل بواجباته الاقطاعية تجاه سيده الملك الصليبي بيت المقدس خاصة وأن المرض قد اشتد على بلدوين في الوقت الذي تفاقم فيه الخلاف بين الأمراء الفرنج، وكان الصليبيون في أمس الحاجة إلى من ينوب عن الملك وهو يعاني من وطأة المرض. ووقع الاختيار على جاي دي لوزنيان Guy de Lusnian ليكون نائبًا عن الملك، وكان هذا الاختيار بمثابة كارثة حلت بالصليبيين، إذ لم يكن على قدر كاف من المسئولية، كما كان متهورًا وغير كفء لهذا المنصب [٥].

= lane- Poole, Op. cit., p. 166; Treece, H., The Crusades, p. 151; Campbell, G.A., The Crusades, pp. 251-253 .

١- حسن عبد الوهاب : الرسالة السابقة، ص١٤٠ ، لم تطبع بعد .

٢- Lane - Poole, Op. cit., p. 166 .

٣- حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق، بها عدة أقاليم والمعروف أنها نيف عن ألف قرية ، وبها مدينة اللجاه ، ومدن صغار متفرقة ، وهي ذات مزارع كثيرة. أنظر: ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص١٥٧ .

٤- أبوشامة : الروضتين، ج٢ ، ص٥٠ .

٥- William of Tyre , Op. cit., vol . II, pp. 496-497 .

ومع هذا ، فقد خرج جاى على رأس جيش صليبى ضخم، اشترك فيه كل قادة الفرنج وأمرائهم ، ومن بينهم ريموند الثالث كونت طرابلس، وهيو الثالث صاحب جبيل. وساروا إلى صفورية ، ومنها عسكروا عند أغوار عين جالوت فى أول أكتوبر ١١٨٣م/ ١١ من جمادى الآخرة ٥٧٩هـ. ووصل صلاح الدين ونصب معسكره بالقرب منهم. وظل الفرنج داخل مواقعهم طيلة ثمانية أيام دون أن يخرج أحد منهم لملاقاة صلاح الدين ، على الرغم من أنه ظل يناوشهم ويستفزهم ليجبروهم على الخروج دون جدوى. وكاد الفرنج أن يهلكوا جوعا، وانقسمت كلمتهم، ففريق منهم وعلى رأسهم ريناك دى شاتيون يريد الخروج لملاقاة المسلمين، بينما أظهر جاى التردد لأن الخروج لقتال جيش يفوقهم فى العدة والعتاد سوف يؤدى بهم مورد التهلكة . لذا رأوا الاستمرار فى سياسة الدفاع وتجنب سياسة المبادرة بالهجوم، وكان رأيًا صائبًا ، إذ بعد أن يئس صلاح الدين من خروجهم من مكمنهم ، رفع الحصار بعد ثمانية أيام ورجع إلى ما وراء نهر الأردن فى ٨ من أكتوبر ١١٨٣م / ١٨ من جمادى الآخر ٥٧٩هـ، ثم اتجه إلى دمشق (١).

ويمكن القول أن مناوشات الفرنج دون احتدام الموقف بين الطرفين المتصارعين كانت تعنى تجميد الموقف بعض الوقت. وكان صلاح الدين يعلم تمامًا أنه فى موقف القوة، ولكن المسألة بالنسبة له أصبحت مسألة وقت فحسب. وكانت هذه السياسة التى سنها صلاح الدين حيال خصومه مثار تساؤلات عديدة بين الصليبيين . مثلا لماذا لم يبادر صلاح الدين بمهاجمتهم؟ ولماذا ترك الموقف يمر دون اتخاذ إجراء حاسم؟ ولما مكثوا هم داخل معسكرهم بسلبية شديدة ولم يحاولوا مهاجمته ؟ لقد اعترف الفرنج أنفسهم بأن ذلك يرجع لقلة أعدادهم وعتادهم بالمقارنة بجيوش صلاح الدين . هذا بالإضافة إلى أنه اتخذ مواقعه فى منطقة حصينة يصعب على الصليبيين الاقتراب منها. وقد ذكر البعض أنه قد أحكم حصاره حولهم على شكل دائرى من كل جانب، الأمر الذى جعل من الصعب عليهم الاشتباك . ويذكر وليم الصورى «أن هذه حجج واهية، ولكن السبب الرئيسى هو حالة التمزق الداخلى التى عاشها الصليبيون آنذاك. هذا، فضلاً عن عدم اقتناع البعض منهم بوجود جاى دى لوزينان على رأس الجيش مثلاً عن

١- أبوشامة : الروضتين ، ج٢ ، ص٥٠ ، ابن الأثير : الكامل، ج٩ ، ص١٥٦ .

وأنظر: Richard , Op. cit., vol . I, pp. 55-56 .

الملك. لقد اعتبره الصليبيون دخيلاً عليهم، وأن بلدوين إبلين Baldwin Iblin سيد الرملة وأحد الأمراء الصليبيين هو الأحق بهذا المنصب، خاصة وأنه كان مرشحًا للزواج من سبيلا ووريثه عرش المملكة(١).

وفى الواقع فإن هذا الصراع إن دل على شئ فإنما يدل على مدى ما وصلت إليه مملكة الصليبيين من تمزق وانقسام وخلافات داخلية بين الأمراء فى الوقت الذى كان صلاح الدين يقوم فيه بتدعيم جبهته استعداداً لمواجهة حاسمة وفعالة ضد الصليبيين، تنتهى باستعادة كل المدن والمعاقل الإسلامية التى استولوا عليها. وكان هذا إيذانا بتقويض نفوذ الفرنج فى الشرق، وضياع سلطانهم فى الشام ، بل وفقدانهم بيت المقدس آخر الأمر. فقد ازدادت الهوة اتساعا بسبب الخلاف الذى وقع بين الملك بلدوين الرابع وجاى دى لوزجنان، عندما رفض الأخير طلب الملك منحه صور مقابل بيت المقدس، نظرًا لمناخ صور الطيب والمناسب لصحة الملك المتدهورة فلم يسع بلدوين إلا أن يستدعى كبار أتباعه، ومن بينهم ريموند كونت طرابلس وصاحب جبيل وغيرهما من القادة . وقرر عزل جاى من الوصاية على العرش، وأن يكون بلدوين الخامس ملكًا على أن يتولى ريموند كونت طرابلس الوصاية عليه حتى بلوغه سن الرشد ، وتم ذلك فى نوفمبر ١١٨٣م / شعبان ٥٧٩هـ . ثم أقنع الملك أخته سبيلا بالطلاق من جاى الذى اتجه إلى يافا وعسقلان وتخلى عن ولائه للملك بينما انتزع منه بلدوين مدينة يافا(٢).

وفى تلك الفترة تزايدت كراهية صلاح الدين لرينالد صاحب الكرك لما كان يفعله بقوافل المسلمين. وأدرك أن رينالد سيكون مصدر خطر لاينقطع على المسلمين طالما بقى بهذا الحصن. ففى نوفمبر ١١٨٣م/ شعبان ٥٧٩هـ وصلت إمدادات حربية مَن مصر، فعسكر صلاح الدين أمام أسوار الكرك وهاجم المدينة وتمكن أن يشق لنفسه طريقًا فيها. غير أن ريناالد استطاع أن يصل القلعة بمساعدة أحد فرسانه(٣). وكاد صلاح الدين أن يصل إليه لولا

١- William of Tyre, vol II, pp. 497-498 ; Runciman, Op. cit., vol . II. pp. 423 ; Richard, Op. cit., vol . II, p. 167 .

٢- Jaques des Vitry, The History of Jerusalem , pp. 98-99; cf also: Runciman , Op. cit., vol , II. p. 439 .

٣- أبوشامة : الروضتين، ج٢ ، ص٥٥-٥٦، يوسف غوامة: إمارة الكرك، ص١٢٨-١٣٩ .

وجود جسر مقام على خندق يفصل ما بين المدينة والقلعة ، واضطر صلاح الدين لرفع حصاره عن الكرك حين علم بوصول النجدات الصليبية وعلى رأسها الملك وأتباعه ، وكان ريموند كونت طرابلس على قيادة هذا الجيش. ويبدو أن صاحب جبيل قد ساهم فى انقاذ الحصن دون اشتباك خطير مع قوات صلاح الدين، فالمعروف أن المصادر ، من عربية وأجنبية معاصرة ومتأخرة، كانت فى كثير من الأحيان عندما تتحدث عن الصليبيين واشتباكاتهم مع المسلمين، تضفى عليهم صفة العموم دون تحديد قاطع لدور كل أمير أو حاكم صليبى. ولما كان صاحب جبيل يعتبر من الناحية السياسية من توابع مملكة بيت المقدس، والصراع الدائر أساسًا بين ملك بيت المقدس الصليبى وصلاح الدين، لذا يرجح قيام صاحب جبيل بدور فى هذا الصراع ، مثلما حدث فى المصادمات السابقة. ولعل هذا الرأى هو الأقرب إلى الواقع والمنطق، رغم عدم إشارة المصادر المعاصرة صراحة لدور صاحب جبيل.

على أية حال ، سرعان ما اضطرب حال المملكة الصليبية مرة أخرى ، بموت الملك الصغير بلدوين الخامس، ومن هنا اشتد الصراع بين ريموند كونت طرابلس والوصى على العرش من ناحية، وبين جاى دى لوزنيان الذى سبق وخلعه الملك بلدوين الرابع قبل وفاته من ناحية أخرى. وكان يعضد جاى، جوسلين دى كورتناى المستشار الملكى[١]. ووسط تلك الخلافات بين الصليبيين حول من يتولى عرش المملكة، قام البطريرك اللاتينى هرقل بتتويج جاى دى لوزنيان ملكًا على بيت المقدس (١١٨٦م / ١١٩٢م / ٥٨٢-٥٨٨هـ) وهو الزوج السابق لسبيلاً وريثه العرش الملكى، وأخت الملك بلدوين الرابع وقد شعر ريموند كونت طرابلس بالتآمر عليه، فسار نحو نابلس وانضم إليه صاحب جبيل وهمفرى Humphry سيد تبنين وبلدوين سيد الرملة وسيد

١- انقسم الصليبيون آنذاك إلى فريقين: الأول يتكون من هرقل البطريرك اللاتينى ، ورينالد دى شاتيون صاحب الكرك، وجوسلين ومعهم جاى لوزنيان، وقد سارعوا بأخذ بيروت وصور وأقيم جوسلين بعكا، أما الفريق الآخر فيتكون من سيد جبيل وقيساريه وهمفرى سيد تبنين وبلدوين سيد الرملة وصاحب صيدا، وقد عرض المجتمعون بنابلس على همفرى سيد تبنين وزوج ايزابيلا أخت سبيلا بتتويجهما ملكًا وملكة، ووعد ريموند بالقيام بمحاولة استمرار الهدنة مع صلاح الدين إذا ما بقى وصيا على العرش، غير أن همفرى سار إلى القدس . وتقابل مع سبيلا وقص عليها مؤامرة البارونات المتحدين فى نابلس ضدها ، ثم أدى يمين الولاء لها ولجاى وللمزيد أنظر: . Runciman , Op. cit., t, I. pp. 447-449

راجع أيضًا : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ج١، ص٧٩٤- ٧٩٥ .

قيسارية وغيرهم، ودعوا لعقد المحكمة العليا للبارونات للنظر فى أمر تلك الخيانة بتتويج جاى ملكًا على الصليبيين رغم يمين الولاء الذى عقد من قبل للملك بلدوين الرابع ضد عدوه جاى لوزينان .

ومما لاشك فيه أن تلك الخلافات داخل المعسكر الفرنجى كانت من أهم العوامل التى عجلت بنهايتهم فى الشرق الأدنى، وكانت بداية النهاية لضياع نفوذهم ومدنهم على الساحل الشامى. وكان جاى فى هذه الفترة يأمل فى استمرار الهدنة مع المسلمين ، غير أن ما فعله رينالد مرة أخرى بقوافل ضخمة للمسلمين كانت فى طريقها إلى الحجاز قلب الأمور رأسًا على عقب . إذ انقض رينالد عليها وقتل الحامية الصغيرة التى تحرسها ، ثم قام بنقل التجار وأسرهم إلى قلعته بالكرك واستولى على غنيمة ضخمة منهم[1]. وما أن علم صلاح الدين بهذه الأنباء ، وكان ذلك فى عام ١١٨٦م / ٥٨٢هـ، حتى قام بمراسلة رينالد وأولى الأمر من الفرنج لاحترام الهدنة التى كان ريموند الوصى على العرش قد جددها معه لمدة خمس سنوات (١١٨٥-١١٨٩ / ٥٨١-٥٨٥هـ) . كما طلب منه إطلاق سراح أسرى المسلمين مع دفع التعويضات اللازمة عما نهبه رينالد . غير أن رينالد رفض حتى استقبال رسل الملك الصليبى الذين عادوا إلى بيت المقدس لعرض الأمر على الملك جاى . وطلب من رينالد أن يدفع التعويضات اللازمة ، لكن الأخير لم يهتم بطلب الملك. ولم يشأ جاى أن يخسر صداقة رينالد له الذى أسهم بدور بارز فى وصوله إلى عرش المملكة. وهنا شعر صلاح الدين بضرورة المواجهة العسكرية مع الفرنج حسمًا للأمر، وانتهازًا منه لحالة الانقسام التى عاشتها الإمارات الصليبية وانغمس فيها قادتها أنذاك. وفى هذا الوقت أسرع ريموند كونت طرابلس بعقد صلح منفرد مع صلاح الدين[2].

ولاندرى إن كانت جبيل تابعًا له فى هذا الصلح أم لا ، فلم تكشف مصادر البحث عن ذلك. ولكن وقوع حاكم جبيل أسيرا فى حطين بعد اشتراكه فى الموقعة لصالح جاى ، يدل دلالة واضحة على تغير العلاقات بين جبيل وطرابلس فى ذلك الحين ، وميل جبيل إلى جانب الملك الصليبى الذى كانت كفته أرجح من كفة ريموند كونت طرابلس. وأن تتابع الأحداث يعزز ما ذكرناه، رغم أن المصادر المعاصرة لم تشر صراحة إلى ذلك.

١- أبوشامة : الروضتين ، ج٢ ، ص٧٥ .

٢- السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام، ص٢٥٥ .

وكان صلاح الدين قد استكمل إعداد جيوشه لمنازلة الفرنج فى معركة حاسمة ، وتقدم بقواته إلى حطين. ولن نتناول أحداث المعركة تفصيلاً لكثرة ما كتب عنها من ناحية ، ولأنها لاتدخل فى صميم بحثنا من ناحية أخرى. ويمكن القول أنها كانت من أخطر الأحداث التى مرت بها منطقة الشرق الأدنى طوال العصور الوسطى، وسيكون تناولنا لها من زاوية دور جبيل فيها . على أية حال، كان صاحب جبيل على رأس الأمراء المجتمعين لمواجهة صلاح الدين فى تلك الموقعة . ودارت الحرب بين الطرفين صبيحة يوم ٤ يوليو ١١٨٧م / ٢٥ من ربيع الآخر ٥٨٣هـ ، وقد حوصر الفرنج بحرارة شمس شهر يوليو وسيوف صلاح الدين والأعشاب الجافة الملتهبة بالقرب من موقعهم. ودارت الدائرة عليهم، فهزموا شر هزيمة . أما من تبقى منهم فقد وقع فى الأسر وفى مقدمتهم صاحب جبيل وأرناط ، ومقدم الداوية ، وجماعات من الاسبتارية[1]. وما يهمنا بالنسبة لموضوع أسر صاحب جبيل، هو اختلاف المصادر من عربية وأجنبية ، وكذلك المراجع الحديثة حول اسم صاحب المدينة. فقد ذكرته المصادر العربية باسم «أوكى» و«أوبو» و«جويد» و«أوك» فى حين ذكرته بعض المصادر الأجنبية ، باسم جويد والأول Guido I والبعض الآخر ذكره باسم هيو Huge وهو الأقرب إلى الصواب ذلك لأن هيو الثالث

١- حول أسر صاحب جبيل أنظر : الاصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص٢٨٠، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١١، ط. بيروت ، ص٥٤٣ ، أبوالفدا: المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٧١ – ٧٢ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص١٢٢ ، أبو شامة : الروضتين ، ج٢٢ ، ص٧٩ – ٨٠ ، ابن الجوزى : مرآة الزمان، ج٨ ، ص٢٩٣ ، ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧ ، ورقة ٥، ابن الشحنة : روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر ، ورقة ١٣٥ب، العينى : عقد الجمان ، ج١ ، لوحة ٣٤ ، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج١ ، ص١٢٢ ، ابن بهادر : فتوح النصر ، ورقة ٥٤، العليمى: الأنس الجليل فى تاريخ القدس والجليل، ص١٦٥ ، السلامى: مختصر التواريخ ، ورقة ٥٩ وأيضاً :

Sur La Prése de Jerusalem , R.H.C. - Doc. Arm., t. I, p. 303; Tiberiadenses, R. H.C. - H. Occ., t. V. p. 520 ; Palestin Pelgrims, t. 13 , pp. 113-114 ; Reinaud, Op. cit., pp. 196-197 ; Mathieu of Westminster , The Flowers of History , vol . 2, pp. 74-75 ; cf . also : Setton , Op. cit., t.I, pp. 615-618 ; Bouhier, Op. cit., p. 62 ; Campbell, Op. cit., pp. 256-257 ; Lane Poole, Op. cit., p. 219 ; Treece , Op. cit., pp. 244-245 ; Waston , the Story of Jerusalem , p. 211 ; Gibbon , History of the Crusades, pp. 64-65 ; King , The Knights Hospitallers in the Holy land, p. 129 ; Bruc, Op. cit., p. 133 .

هو الذى حكم فى الفترة من عام ١١٨٤م إلى عام ١١٨٧م / ٥٨٠ - ٥٨٣هـ فى حين حكم جويدو الأول من عام ١١٩٩ حتى عام ١٢٤١م (٥٩٦- ٦٣٩هـ) (١).

هذا، وعلى الرغم من اجماع المصادر العربية واللاتينية على اشتراك صاحب جبيل وليس أخيه في موقعة حطين، إلا أن العليمى ذكر فى كتابه «الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل» أنه بعد أن نصر الله المسلمين، وأطلقوا السهام على الفرنج فإنهم أبادوهم قتلاً وأسراً، كما أسروا ملكهم وأخو صاحب جبيل (٢). «وقد انفرد بهذه الرواية دون الآخرين ، وربما حدث هذا نتيجة اللبس الذى وقعت فيه بعض المصادر المعاصرة بين اسم صاحب جبيل واسم أخيه كما سبق أن أوضحنا .

على أية حال، استعرض صلاح الدين أسراه، وأول ما فعله هو قتل رينالد صاحب الكرك لكراهيته الشديدة له على كل ما فعله بالمسلمين، وأطلق سراح من افتدى نفسه وأما من أسلم فقد أعتقه، وأما صاحب جبيل وباقى الأسرى فقد تم نقلهم إلى قلعة دمشق حيث سجنوا هناك. وفى دمشق عرض صاحب جبيل على نائب صلاح الدين استعداده لتسليم جبيل للمسلمين سلما، على شرط إطلاق سراحه . فلما علم صلاح الدين بذلك أحضره عنده مقيداً تحت حراسة شديدة . وكانت جيوش صلاح الدين منهمكة آنذاك فى استرداد بيروت من الفرنج. فلما وافق صلاح الدين على طلب هيو صاحب جبيل، أمر رجاله بأخذ المدينة وإطلاق سراح صاحبها . وقد أجمع كثير من المؤرخين ، المعاصرين والمتأخرين عن الفترة موضوع البحث، على أن صاحب جبيل هذا كان من أعيان الفرنج، وأصحاب الرأى والمكر والشر بالمسلمين ويضرب بالمثل فى ذلك، وكان للمسلمين منه عدوا أزرق فكانت إطلاقه من الأسباب الموهنة على المسلمين (٣). وذكر أبو الفدا أيضاً فى حديثه عن صاحب جبيل «أنه كان من أعظم الفرنج وأشدهم عداوة للمسلمين، ولم تك عاقبة إطلاق سراحه حميدة على المسلمين(٤).

١- ابن الجوزى : مرآة الزمان، ج٨ ، ورقة ٣٩٢، ابن أيبك : كنز الدرر، ج٧ ، ورقة ٥٣ ، أبوالفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج٣، ص٧١-٧٢ .

٢- العليمى: الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل، ص١٦٢-١٦٣ .

٣- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج١١، ص٥٤٣ .

٤- ابن الجوزى: مرآة الزمان، ج٨ ، ص٢٩٦ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، جـ٣، ص٧٢ ، =

كما أكد هذا أيضًا المؤرخ الحديث بيزانت Besant بقوله أن ما رتبه صاحب جبيل من تسليم مدينته مقابل إطلاق سراحه، وموافقة صلاح الدين على ذلك، كان أمرًا ليس فيه أية حنكة سياسية بالنسبة للمسلمين، فإن أود Odo هذا كان له دور خطير ضد المسلمين، وسيظل طرفًا مؤثرًا فى كثير من التحركات التى قام وسيقوم بها ضد المسلمين . لقد كان سببًا رئيسيًا فيما حل بهم من قلاقل واضرابات».

وفيما يتعلق باستيلاء المسلمين على جبيل ، لم يذكر أحد من المؤرخين أنها تعرضت لأى عنف أو قسوة من قبل جيوش صلاح الدين. فقد كان معظم أهلها من السكان الأصليين المسلمين. ويذكر الأصفهانى «أنه بقدوم صلاح الدين إليهم ذاقوا العزة بعد الذلة وفاقوا الكثرة بعد القلة، ورفعوا رؤوسهم». ولعل هذا النص يبين أن آل امبرياتشى قد حكموا المدينة بيد من حديد، وكبتوا الحريات الدينية بها. إذ يروى نفس المؤلف أنه ما أن ذاق السكان حرياتهم إلا وقاموا «بتلاوة الآيات، وقرئ القرآن وعمرت المساجد، وانتعش السكان، وقروا فى ديارهم، وانتفضوا من شوكة عارهم، كما عمروا الكثير من المدارس [1]. وقد سمح المسلمون لمن يريد أن يبقى داخلها فله هذا ، أما من أرادوا الخروج فقد اتجهوا إلى صور التى صارت الملجأ المنيع الذى تجمع فيه كل شريد من الفرنج. وبعد أن فرغ السلطان من فتح جبيل واقرار الأمور داخلها استولى على غزة وعسقلان والداروم [2]. وتمكن صلاح الدين من الاستفادة من القلاع المنيعة التى وجدت فى كل هذه المدن، وخاصة جبيل التى وجدت بها أسوار دفاعية عظيمة الشأن بالإضافة إلى قلعتها المنيعة التى بناها آل امبرياتشى [3].

= النويرى : نهاية الأرب ، ج٢٦، لوحة ١٢٢ ، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ٥٦ ، العينى: عقد الجمان، ج١ ، ق١ ، ص٤٠ ، المقريزى: السلوك، جـ١ ، ق١ ، ص٩٥ ، والخطط، ج٣، ص,٣٨١ راجع أيضًا :

Michel le Syrien , R.H.C.- Doc. Arm t. I, p. 389; Reinaud, Op. cit. p. 202 , Grousset , Op. cit., t. II, pp. 806-807 ; Besant , Op. cit., p. 426 .

١- الأصفهانى: الفتح القسى ، ص١٠٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، أبوشامة : الروضتين، ج٢ ، ص٩ .

٢- Sur la Prise De Jerusalem , R.H.C.- Doc, Arm . t. I, p. 303 .

٣- Tiberiadenses, R.H.C-H. Occ., t. v. p. 520 ; Ex Benedicti Petroburgensis, R.H.G.F., t. 17 , p. 476 .

وهكذا ، فقد فتح نصر حطين الطريق من جبيل إلى بقية الممتلكات الصليبية. واختار صلاح الدين أن يبدأ أولاً بالمدن الساحلية، رغبة منه في أن يحرم الصليبيين من قواعدهم التي تربطهم بالعالم الخارجي، وخاصة غرب أوروبا قلب الحركة الصليبية ، وبذلك يحصرهم داخل بلاد الشام ليسهل القضاء عليهم. هذا، فضلاً عن أن استيلاء صلاح الدين على موانئ الشام سيمكنه من تحقيق الاتصال البحري السريع بين شطري دولته في مصر جنوبًا والشام شمالاً. وقد ظهر ذلك بوضوح حين تعاونت البحرية المصرية مع الجيوش الشامية في استرداد عكا وقيسارية وجبيل وعسقلان وصيدا والقدس وجبله وصهيون وغيرها من بلاد الساحل وقلاعه التي كانت بأيدي الفرنج [١]. لقد اعتبرت موقعة حطين وما حدث للصليبيين فيها، بمثابة إفاقة لهم من سباتهم العميق، وباعثًا على تناسي الخلافات والتكتل أمام الخطر الإسلامي. فقد أسرع ريموند كونت طرابلس إلى الدخول في طاعة جاي دي لوزنيان ومصالحته ، على الرغم من محاولات تقربه لصلاح الدين. ولعل هذا من أهم الأسباب التي جعلت صلاح الدين يقوم بمحاصرة طبرية وهدم أبراجها رغم وجود زوجة ريموند داخل قلعتها . كما قام بشن هجوم عنيف على طرابلس في الوقت الذي كان يحاصر فيه بيروت ويتسلم جبيل. ونظرًا لمناعة طرابلس بقلاعها وحصونها واستعدادها للحصار الطويل ، فقد اكتفى صلاح الدين بعد حطين بغارات متواصلة على كل نواحيها، وكرس كل جهوده لباقي مدن الساحل [٢]. وعلى الرغم من أن الفرنج قد حزنوا لسقوط بيت المقدس[٣]. إلا أن أحد المؤرخين الحديثين وهو ستيفن رانسيمان قد ذكر «أن المسلمين الظافرين بقيادة صلاح الدين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية فبينما كان الفرنج منذ ثمان وثمانين سنة يخوضون في دماء ضحاياهم ، لم تتعرض المدينة المقدسة للنهب أو السلب بعد استرداد صلاح الدين لها ، ولم يحل بأي فرد فيها مكروه»[٤].

١- Extraits de la Chronique , R.H.C.- Doc. Arm, t. I. p. 400 .

وأيضًا ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨ ، ص٤٣٣ ، ابن دقماق ، الجوهر الثمين ورقة ٩٢-٩٥ ، السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج٢ ، ص٢٥ .

٢- السيد عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص٢٥٩-٢٦٠ .

٣- ابن أيبك : كنز الدرر، ج٧ ، ص٧٣-٧٥ ، ابن أبي السرور : النزهة الذكية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، ص١٦١ .

٤- Ruciman, Op. cit., vol . II, p. 18 .

لقد لعبت جبيل بعد استعادة صلاح الدين لها دوراً لايستهان به فى سقوط معظم القلاع والمدن الساحلية الصليبية فى أيدى صلاح الدين، حيث اتخذ منها قاعدة لتوجيه ضرباته المستمرة ضد طرابلس. كما كان لجبيل أكبر الأثر فى حملات صلاح الدين ضد مدينة صور التى أضحت مركز الخطر عليه بعد أن تجمع فيها كل الصليبيين الذين طردوا من مدنهم التى استولى عليها، وذلك لمناعتها وحصانتها . ولو كان صلاح الدين قد كرس جهده للاستيلاء على صور بعد استيلائه مباشرة على عكا، لما وقفت المدينة عقبة فى سبيله وخطراً على الوجود الإسلامى فى المنطقة. ففى ١٤ من يوليو ١١٨٧م / ٦ من جمادى الأولى ٥٨٣هـ بعد أيام قليلة من حطين توجه صلاح الدين لحصار صور. وكان صاحب جبيل من قبل صلاح الدين [١]، على رأس أكبر الشوانى [٢]، التى قدمت لحصار المدينة يقول الأصفهانى «كان من جملة شوانينا قطعة يتولاها رئيس جبيل وكأنها جبيل ، فيها بحرية من نوى التجربة والتجرى ... [٣]، «وكان رينالد جارنييه Rinald Garnier سيد صيدا يتولى أمر صور، وقد تفاوض مع قوات صلاح الدين فى أمر تسليمها إليه. بل أن صلاح الدين أرسل بالفعل لواءين لرفعهما على القلعة، فى الوقت الذى وصل فيه كوانراد Conrad ابن ماركيز مونتفرات، وشقيق أول زوج للملكة سبيلاً [٤]، وقد استقبل كوانراد فى صور أحسن استقبال لأنه كان فى نظر الفرنج المنقذ المنتظر للمدينة، فتولى تنظيم الدفاع عنها، وقرر رفض ما عرضه صلاح الدين من شروط

١- ذكرته المصادر من عربية وأجنبية بلقب حاكم جبيل الكردى دون الإشارة إلى اسمه .

٢- الشوانى: هى الجمع والفرد شينى أو شانى أو شينيه أو شونة ، وهى السفينة الحربية الكبيرة وكانت من أهم القطع الكبيرة التى يتكون منها الأسطول فى الدول الإسلامية ويستدل من النصوص التاريخية العديدة أن الشينى هو الأصل الذى يتفرع منه أسماء السفن الحربية الأخرى ولواحقها . فكل سفينة حربية شينى تحمل أسما معيناً تدل على وظيفتها فمنها الغراب ، والطريدة ، والحففه ، الحراقة وللمزيد أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٢، ص١٣ ، وراجع أيضاً درويش النخيلى: السفن الإسلامية على حروف المعجم ، ص٨٣ .

٣- الأصفهانى: الفتح القسى ، ص١٦٠ ، ١٦٢ ، النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ٢٦ ، لوحة ١٢٨ .

٤- أول زوج للملكة سبيلاً هو وليم مونتفرات وثانى زوج لها هو جاى دى لوزنيان أنظر :

Runciman , Op. cit., vol . II, p. 423 .

الصلح. وأدرك كونراد أن المدينة بوسعها مقاومة الحصار لمناعتها . ثم أنه كان ينتظر قدوم مساعدات من الغرب خاصة بعد ضياع بيت المقدس. وإزاء مقاومة صور المستميتة لحصار صلاح الدين رفع الحصار عنها .

وفى ديسمبر من نفس العام ١١٨٧م / شوال ٥٨٣هـ ضرب صلاح الدين الحصار حول المدينة مرة أخرى. غير أن خمس سفن للمسلمين كانت قد أرسلت بالقرب من ميناء صور، وسهر من بها إلى قريب الصبح فغلب عليهم النوم. فلما استيقظوا وجدوا سفن الفرنج محيطة بهم. فأخذت تلك الشواني وأسروا منهم جماعة كبيرة (أى من المسلمين) ، وكانت هذه أول حادثة للمسلمين بعد حطين، واشتد حنق المسلمين»[١]. وأشار البعض بإنقاذ بقية الشوانى فسيرت إلى بيروت، وكانت منها سفن جبيل . واجتمع صلاح الدين ببعض الأمراء والقادة وأشاروا عليه أن الجند بحاجة ماسة إلى الراحة، إذ كان الشتاء قارسًا ، وصور منيعة لحد مقاومتها حصارًا طويلاً ، بالإضافة إلى تفشى المرض بين رجال صلاح الدين لذلك رفع حصاره مرة أخرى، عن صور ، ومضى عنها إلى بعض القلاع الداخلية للاستيلاء عليها. وعلى الرغم من فشل صلاح الدين فى أخذ صور، إلا أن هذا يلقى الضوء ولو بشكل غير مباشر على دور جبيل المستمر والمتواصل لصالح المسلمين تارة، وضدهم تارة أخرى بعد أن استولى عليها آل امبرياتشى كما سنرى فيما بعد. ولعل موقعها الساحلى المتاز كان له أكبر الأثر فى هذا الدور الذى لعبته فى الصراع الصليبى الإسلامى، ولذلك كان كل من الطرفين المتصارعين يحرص على أن تكون فى حوزته لاستخدامتها فى صراعه ضد الطرف الآخر. وفى تلك الأثناء لم يكف الفرنج عن إرسال البعثات والرسل إلى غرب أوروبا طلبًا للنجدة ضد جيوش المسلمين. ويؤكد البعض أن قدوم تلك الامدادات كان نتيجة للدور الضخم الذى لعبه آل امبرياتشى الذين كانوا متولين أمر جبيل قبل سقوطها فى قبضة صلاح الدين. وكان الدافع القوى وراء هذه البعثات هو أسر هيو امبرياكو صاحب جبيل وضياع المدينة منهم، فلم يكفوا عن تعضيد الوجود الصليبى فى هذه الظروف أملا فى عودة نفوذهم فى الشرق واسترداد مدينتهم الضائعة[٢].

١- العليمى: الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل، ص٢٠٢ .

٢- مصطفى الكنانى: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، ص١٠٥ .

هذا، وقد تعرضت مدينة جبيل بعد عودتها مباشرة للمسلمين لمحاولة جادة من قبل الفرنج للاستيلاء عليها. إذ استغلوا انشغال صلاح الدين بفتوحاته. فيقول أبوشامة «إن الفرنج قصدوا جبيل واغتالوها ، فخرج صلاح الدين من دمشق واتجه نحوها مسرعًا وقد سير العساكر ليستدعيها من سائر الجوانب ، وسار يطلب جبيل. فلما عرف الفرنج بخروجه ، كفوا عن ذلك [1]. وأشار ابن تغرى بردى إلى تلك الحادثة بقوله «إن الفرنج قصدوا جبله، فلما عرف صلاح الدين بذلك خرج إليهم وكفوا عن ذلك»[2]. وقد عاد المؤرخ وذكر أن المقصود هنا جبيل وليس جبلة، وكلاهما موضعان بالشام. وكان ذلك استدراكًا منه للتشابه الكبير بين اسمى المدينتين مع اختلاف الأحداث التى مرت بهما.

ولكن الصراع لم يلبث أن تفجر مرة أخرى بين جيوش الصليبيين أنفسهم، عندما طلب جاى دى لوزنيان من كونراد أن يسمح له بدخول صور، ليدبر الأمور فيها، وليكون بجوار باقى الفرنج الموجودين بها. ولكن كونراد رفض طلبه واعتبر نفسه أحق منه بحكم صور . إذ أنه تولى مهمة الدفاع عنها فى وقت كانت فيه فى أمس الحاجة إلى من يحميها من خطر صلاح الدين، الأمر الذى اضطر جاى أن يرحل عنها ومعه عدد من القادة الفرنج الذين أطلق سراحهم وساروا نحو عكا فى محاولة لاستردادها فى أغسطس ١١٨٩م / رجب ٥٨٥هـ ورغم عدم إشارة المصادر إلى اشتراك صاحب جبيل مع جاى فى حصار عكا ، إلا أننا لانستبعد وجوده ضمن القوات الصليبية . وذلك لحنقه الشديد على صلاح الدين الذى استولى على جبيل . ويدعم هذا ما أشار إليه المؤرخون عن أن إطلاق سراحه كان فيه ضرر كبير على المسلمين.

استاء الغرب الأوربى للحالة التى وصل إليها افرنج الشام بعد ضياع نفوذهم وازدياد خلافاتهم الداخلية. ولذا بادر بتقديم المساعدات اللازمة لاستعادة بيت المقدس من المسلمين ، ولانقاذ ما يمكن انقاذه من نفوذ الفرنج المتداعى فى منطقة الشرق الأدنى. وقام البابا جريجورى الثامن Gregory VIII (١١٨٥-١١٨٧م / ٥٨١-٥٨٣هـ) بمراسلة هنرى الثانى Henry II ملك انجلترا وفيليب أغسطس Philip Augustus ملك فرنسا وفردريك باربا روسا

١- أبوشامة : الروضتين، ج٢ ، ص١٣٤ ، مجهول : شفاء القلوب فى أخبار أيوب ورقة ٤١ب ابن خلكان: وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٨٩ وانظر أيضًا : . Palestin Pilgrims, vol. 13 , p. 124

٢- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة : ج٦ ، ص٣٨ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ص١٣٤ .

Frederick Barbarosa الامبراطور الألماني[1]. للمشاركة في الحملة المزمع توجهها إلى الأراضي المقدسة. وبالفعل تحرك الإمبراطور الألماني متجهًا إلى الشام، ولكنه غرق في الطريق في أحد الأنهار الصغيرة في آسيا الصغرى، وتخطف المسلمين أتباعه ولم يصل منهم إلا نفر قليل (٢). وفي تلك الفترة كانت جيوش صلاح الدين قد ملت القتال ، وباتت بحاجة ماسة لفترة من الهدوء والراحة. ولكن إزاء هذا الموقف تحرك صلاح الدين سريعًا لإنقاذ مملكته من الضياع . وما يهمنا في أمر هذه الحملة التي عرفت في عداد الحركة الصليبية بالحملة الثالثة، ما قام به صلاح الدين من تخريب أسوار مدينة جبيل وتسويتها بالأرض ونقل أهلها إلى مدينة بيروت[3]. وقد فعل نفس الشئ بأسوار طبرية ويافا وقيسارية وأرسوف. وأجمع المؤرخون العرب والفرنج أن ما قام به صلاح الدين من تخريب لأسوار المدينة لم يكن إلا بهدف حرمان الصليبيين من الاستفادة بهذا الموقع الحصين إذا ما استولوا على جبيل [4]. ويذكر المؤرخ بروس أن أسوار مدينة جبيل كانت على شكل ستائر تحيط بالمدينة، وقد حطمت بأكملها . وما تبقى منها كان يصعب ترميمه بعدما أحدثه صلاح الدين. كذلك أعمل صلاح الدين التخريب في البرج الذي يقع على الجانب الجنوبي الغربي لساحل جبيل، والذي كان متصلاً بمجموعة الأسوار الضخمة

١- بذل البابا جريجوري الثامن جهودًا ضخمة من أجل قيام هذه الحملة وتمكن في فترة حكمه القصيرة أن يحصل على وعود كبيرة من جنوه وبيزا للاشتراك فيها، وقد كان قدوم السفارات المتوالية على غرب أوروبا عاملاً ساعد على نجاح الدعوة خاصة بعد كل ما بذله هرقل بطريرك بيت المقدس لدى الإمبراطور باربا روسا في سبيل توضيح الحالة التي وصل إليها الفرنج بالشام. للمزيد انظر:

Annales de Terre Saint , in A.O.L., t. II, p. 434 ; Conder , Op. cit., pp. 251-259 ; Runciman, Op. cit., vol . III, p. 20 .

٢- يوسف غوانة : إمارة الكرك الأيوبية، ص١٦٤ .

٣- Vita Henrici II Angliae Regis. R.H.G.F., t. 17 , pp. 530-531 .

٤- أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ، ص١٥٧ ، النويري : نهاية الأرب ، ٢٦٥ ، لوحة ١٣١ ، العيني: عقد الجمان، ج١ ، ق١ ، ورقة ٢٨٨ ، المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق١ ، ص١٠ ، العليمي: الأنس الجليل، ص٢٣ ، أنظر أيضًا :

Jaques de Vitry, The History of Jerusalem, pp. 110-111; Eracles L'Estoire de Eracles Empereur et la conqueste de la Terre d'Outremer , R.H.C.- H. Occ., t. II, p. 140 .

الواقعة على هذه الناحية . فقد أحدث به ثقوبا كبيرة على شكل دائرة ضخمة فتحطم بأكمله هو والأسوار. واختلطت بقايا هذه الأسوار مع ما هو موجود من آثار وصخور فينيقية بالمدينة»(١).

وآثر صلاح الدين هدم أسوار المدينة لسببين، أولهما المحاولة الفاشلة التى قام بها الفرنج لأخذ المدينة أثناء انشغاله عنها، وثانيهما معرفته بأن الفرنج سوف يسلكون ساحل الشام ابتداء من شماله، غرب جبيل وبيروت واللاذقية. لذا أراد أن يضيع عليهم فرصة الاستفادة من هذه الأسوار والتحصينات . فإذا ما حاولوا الاستيلاء على جبيل وهم فى طريق تقدمهم ، ونجحوا فى ذلك فسوف يجدونها خرابًا ودمارًا .

وفى خضم هذه الأحداث توجه موناخوس Monachus رئيس أساقفة قيسارية الأسمى إلى أوروبا لحث الغرب على بذل المزيد من الجهود فى سبيل إرسال العتاد إلى الصليبيين فى الشام من أجل غزو بيت المقدس. وبالفعل وصل أسطول ضخم للبيازنة بقيادة يبالدو Ubaldo رئيس أساقفة بيزا، واتجه نحو صور فى ١٦ من أبريل ١١٨٩ / ٢٧ من صفر ٥٨٥هـ (٢). ورغم الخلاف الذى وقع بين كونراد دى مونتفرات ويبالدو ، إلا أنه بوصول جاى دى لوزنيان ومعه جوتييه Gautier سيد قيسارية الأسمى، تم تسوية الخلاف من أجل الصالح الصليبى العام. ثم تقدم الجميع لحصار مدينة عكا فى ٢٨ من أغسطس ١١٨٩م / ١٣ من رجب ٥٨٥هـ. وروى رانسيمان أن البابا جريجورى الثامن تمكن من إقناع أساطيل جنوه للمشاركة مع القوات الصليبية القادمة إلى بلاد الشام . ولعل فى هذا دلالة على اشتراك ممثلين من أسرة امبرياتشى ضمن الجيوش الجنوية، بسبب المصالح المشتركة لأسرة امبرياتشى والصليبيين.

كان صلاح الدين مقيمًا آنذاك بشقيف أرنون فلما علم بحصار عكا واستماتة أهل المدينة فى مقاومة الفرنج هاجمهم بقواته من الخلف ليجبرهم على رفع الحصار. ولكن بوصول ملكى انجلترا وفرنسا ضاعت آمال صلاح الدين فى إنقاذ عكا التى سقطت فى ١٢ من يوليو١١٩١م

١- Bruc, Op. cit., p. 75 .

٢- حسن عبد الوهاب : قيسارية تحت حكم اللاتين، ص١٥٥، رسالة ماجستير لم تطبع بعد .

٧ من جمادى الآخرة ٥٨٧هـ [١]. وهكذا عادت عكا مرة أخرى إلى حظيرة الصليبيين بعد فترة قصيرة من الحكم الإسلامي لها.

وبعد سقوط عكا تقدم الصليبيون نحو عسقلان ، في محاولة لاستعادة مدن الساحل من قبضة المسلمين ، وحتى يتفرغوا بعد ذلك لبيت المقدس الهدف الأساسي الذى قدمت من أجله الحملة الثالثة. ويلاحظ أن المصادر من عربية ولاتينية، لم تشر صراحة إلى الدور المستقل الذى لعبه سادة جبيل من أسرة امبرياتشى في الحملة الثالثة. كما لم تشر إلى رد فعل صاحب جبيل من قبل صلاح الدين لمواجهة جيوش الحملة الصليبية أثناء تقدمها أمام مدينته. وربما تكون المدينة قد تعرضت لهجمات الفرنج، شأنها في ذلك شأن باقى مدن الساحل خاصة وإن حرص صلاح الدين على تخريبها وهدم أسوارها لم يكن إلا إدراكًا منه لموقعها الاستراتيجى الهام[٢].

وفجأة وقعت أحداث خطيرة فى الكيان اللاتينى فى بلاد الشام بعد موت البطريرك هرقل ، إذ أنقسم الفرنج حول اختيار بطريرك جديد لبيت المقدس. كمانشب الصراع مرة أخرى بين جاى دى لوزنيان وكونراد دى مونتفرات ، ووقف ريتشارد إلى جانب جاى مطالبًا بحقوقه ، بينما ساند فيليب أوغسطس جانب كونراد . واستغل صلاح الدين هذه الظروف فقام بمحاصرة يافا فى ٣١ من يوليو ١١٩٢م/ ٧ من رجب ٥٨٨هـ. وما أن علم ريتشارد بتلك الأنباء وكان مقيمًا فى عكا آنذاك، حتى تحرك على الفور بعدد كبير من السفن، فى حين واصلت بقية الجيوش طريقها البرى من عكا إلى يافا لأحكام الحصار حولها فاضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عنها [٣]. وكان ذلك فى أغسطس ١١٩٢م / رجب ٥٨٨هـ، خاصة بعد أن علم بوصول النجدات من عكا بقيادة هنرى أوف شامبانيا Henry of Champagne الذى لم يستخدم قواته فى إنقاذ يافا بعد أن نجح ريتشارد فى ذلك .

١- ابن أيبك : كنز الدرر ، ج٧ ، ص٣٧٩ ، البغدادى : عيون الأخبار، ج٢ ، ورقة ٦٧ . وأنظر أيضًا :

Waston , Op. cit., p. 220 ; Treece , Op. cit ., p. 244-245; lane- Poole , Op. cit., pp. 265-266 ; Campbell, Op. cit., p. 302 .

٢- أبوشامة : الروضتين ، ج٢، ص١٥٧ ، العليمى: الأنس الجليل، ج١، ص٣٦٥ .

٣- أبوشامة: الروضتين ، ج٢ ، ص٢٠٠ . وأيضًا :

Imaginibus Historiarum, R. H.G. F., t. 17 . pp. 630-631 .

وقد سئم الطرفان الصليبى والإسلامى من استمرار المصادمات الدامية بينهما، خاصة بعد ضياع عكا من أيدى المسلمين، واسترداد الفرنج مدينة يافا ، مما كان له أسوأ الأثر على نفوس المسلمين. وفى نفس هذا الوقت لم يكن ريتشارد على استعداد للتقدم نحو بيت المقدس، لأنه لم تكن تحت إمرته قاعدة قوية على الساحل الشامى تسهل عليه مهمته . يضاف إلى ذلك حالة التعب والإرهاق التى ألمت بجيشه بعد سيره الطويل على امتداد الساحل الشمالى. فاحتاج الفريقان إلى فترة من الراحة والهدوء، وإن كان هذا لايمنع من القول بأن كلا منهما كان يتحين الفرصة المواتية للانقضاض على خصمه . ورغم خوف ريتشارد من التقدم نحو بيت المقدس، إلا أن صلاح الدين كان أشد حرصًا على عسقلان وخشى أن يتجه ريتشارد نحوها ، أو أن يقيم بها قاعدة تقطع طريق الاتصال بين مصر والشام بموقعها الجغرافى والاستراتيجى الهام. وكانت مصر هى القوة الضاربة لصلاح الدين ولذلك توجه بفرقة من جيشه صوب عسقلان حيث أعمل فيها التخريب والتدمير، حتى لايتقدم ريتشارد نحوها وحتى لايجد فيها مطمعًا[1]. وتحت وطأة هذه الظروف طلب ريتشارد فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين، ووافق الجانب الإسلامى على ذلك. فأرسل صلاح الدين أخاه العادل لمعرفة مقترحات الصلح. وبعد أخذ ورد انتهت المفاوضات بعقد هدنه بين الطرفين المتصارعين عرفت بصلح الرملة فى ٢٢ من شعبان ٥٨٨هـ/ من سبتمبر ١١٩٢م[2]. وكانت الهدنة أن يستقر ما بيد الفرنج من يافا إلى قيسارية وعكا وصور، وأن تكون عسقلان خرابًا.. واشترط السلطان أن تكون الإسماعيلية فى هدنته [3]. كما اشترط الفرنج دخول طرابلس وأنطاكية فى عقد

١- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٢١٦ وأيضًا :

Roger of Hoveden, Annals, vol. II, p. 262 ; Ambroise, the Crusade of Richard , pp. 315-16 .

٢- Ex. Chronico Anonymi Laudunensis Canonici, R.H.G.F., t. 18 , p. 420 .

٣- الإسماعيلية : هم إسماعيلية الشام الذين يأخذون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق (ت ١٤٥هـ) الذى نجح أتباعه فى إقامة الدولة الفاطمية فى أخريات القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، غير أنه حدث أن انشق إسماعيلية الشام بعد موت الخليفة الفاطمى المستنصر (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) على الدعوة القديمة ونادوا بإمامة ابنه نزار وبطلان إمامة إبنه الآخر المستعلى الذى ظل أتباعه فى مصر ينتمون إليه. وقد عرف فرع الشام فى التاريخ باسم الإسماعيلية النزارية وباسم الحشيشية أيضًا، ولعبت هذه الطائفة دورًا فى الصراع الصليبى الإسلامى، وباتوا خطرًا كبيرًا يهدد العالم السنى من حين لآخر. وللمزيد أنظر: ابن واصل=

هدنتهم وأن تكون اللد والرملة نصفين بينهم وبين المسلمين فاستقرت القاعدة على ذلك(١). واستقر الحال فى جبيل على ما هو عليه يحكمها المسلمين، ولكن المؤرخين العرب اختلفوا فى تحديد مدة الهدنة (٢).

لقد اعتبرت الحملة الثالثة من أكبر الحملات الصليبية التى قدمت إلى الشرق وأكثرها تنظيمًا . ولكن بتوقيع الهدنة قد بلغت مهمة تلك الحملة نهايتها. ورغم أنها قد حققت نتائج ضئيلة للغاية مثل إنقاذ صور، والحصول على عكا ويافا ، إلا أنها حدت من نشاط صلاح الدين، وأتاحت لملكة بيت المقدس الصليبية قدرًا من الاستقرار الداخلى . وفى ظل هذه الظروف وجه الصليبيون نشاطهم نحو التجارة خاصة بعد انتقال عاصمتهم إلى عكا بدلاً من بيت المقدس التى حررها صلاح الدين. لقد تمركزوا فيها ومارسوا نشاطًا اقتصاديًا كبيرًا عوضهم جانبًا مما فقدوه فى حروبهم المتصلة. ومكنهم من إعداد أنفسهم عسكريًا استعدادًا لجولة أخرى ضد المسلمين .

= مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٤٤ . وأيضًا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص٢٢٦-٢٢٧، فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢، ص٢٤٥-٢٤٧ .

١- العليمى : الأنس الجليل، ص٢٣٨ .

٢- اختلف المؤرخون العرب فى تحديد مدة الصلح. ففى الوقت الذى اتفق فيه العليمى والسلامى على أن مدتها ثلاث سنوات وثمانية أشهر، ذكر أبوشامة وابن بهادر أن مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، بينما انفرد ابن كثير بقوله «إن الهدنة وقعت على وضع الحرب (ثلاثين سنة) دون ذكر الأشهر. وفى هذا لبس لأنه المؤرخ الوحيد الذى ذكر أن مدة الهدنة ثلاثون سنة ولعله خطأ خاصة وأن ابن كثير عاد وذكر تحت أحداث سنة ٥٩٢هـ أنها بداية عام انقضاء الهدنة بين صلاح الدين والفرنج، وهذا يعنى أنها ثلاث سنوات . وعن ذلك أنظر : أبوشامة : الروضتين ، ج٢ ، ص٢٠٣ ، النويرى: نهاية الأرب، ج٢٦ ، لوحة ١٣٥ ، ابن بهادر : فتوح النصر، ص٦٨-٦٩، السلامى: مختصر التواريخ، لوحة ٦٠ ، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٣٢٩ ، ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج٨ ، ورقة ٣٢ ، ٣٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٢، ص٣٥٠ ، وأيضًا :

Eracles, L'Estoire d'Eracles, p. 199; ; of . also : Setton , Op. cit., vol . II, pp. 523-524 ; Campbell, Op. cit., pp. 227-228 ; Lane- Poole, Op. cit., p. 356 ; Waston, Op. cit., pp. 222-223 .

ولكن بوفاة صلاح الدين في ٢٧ من صفر ٥٨٩هـ/ ٤ من نوفمبر ١١٩٣م [١]. تأثرت الجبهة الإسلامية في منطقة الشرق الأدنى بصفة عامة وفي جبيل بصفة خاصة، وذلك بسبب الصراعات الداخلية بين البيت الأيوبي، وخاصة الأفضل والعزيز وكان هذا إيذانا بضياع ممتلكاتهم في الشرق. وكانت جبيل هي أولى القلاع المنيعة التي ضاعت من المسلمين . ولم يكن استيلاء الصليبيين على جبيل بعد قتال أو حرب، ولكنه كان نتيجة مؤامرة دبرها حاكم جبيل الكردي الذي عينه صلاح الدين عليها. يقول النويري «أنه بعد وفاة صلاح الدين كان استيلاء الفرنج على حصن جبيل في مستهل صفر ٥٩٤هـ / ديسمبر ١١٩٧م «بوطأة من فيه ذلك أن الحصن كان عدد من فيه خمسة عشر رجلا، فندب متولي البلد منهم عشر لجباية الجزية وخرج متولي الحصن إلى الحمام ، فاستصحب الخمسة الذين تأخروا بالحصن معه، وبقي به أربعة من الأكراد فأغلقوا باب الحصن وتوجه أحدهم إلى الفرنج الذين بالبترون [٢]. فأخبرهم بخلو الحصن وكان به حداد نصراني، فصعد هو والثلاثة إلى أعلا الحصن. فلما عاد الوالي منعوه من الدخول ورموه بالحجارة ، فكسروا يده وقالوا هذه القلعة قد صارت للقومصي . وجاء أهل البترون بالليل فطردوا من كان بالباشورة[٣]. من المسلمين ووصل بيديمون Bidemon أخو صاحب جبيل وتحدثوا مع الأكراد فترك أحد الأكراد مع الفرنج ، وقرر معهم أن يعطوا نصف ما بالحصن من سائر الحواصل وغيرها، وتكون لهؤلاء الأكراد ثلاث ضياع من عمل طرابلس، واستحلفهم ذلك الكردي على ذلك وتسلموا الحصن ، ورتب الفرنج النظم داخل الحصن والمدينة

١- عن وفاة صلاح الدين أنظر: ابن واصل : مفرج الكروب، ج٣ ، ص٣ ، ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ورقة ٤٢٣ ، البغدادي: عيون الأخبار، جـ٢، ورقة ٣٩٩ ، السلامي: مختصر التواريخ ، ورقة ٦٠ ، ابن أيبك : درر التيجان ، ص٣٧٢ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢، النويري: نهاية الأرب، ج٢٦ ، لوحة ١٣٦ ، الفازاني. تاريخ الفازاني، ج٢ ورقة ٣٩٩، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ٧٤-٧٥ ، راجع أيضا :

De Hethoum Comte De Corigos, R.H.C., _ Doc. Arm, t. I, p. 479 ; Annales de Terre Sainte, t. II, p. 434 ; Nante, Op. cit., p. 70 .

٢- البترون : حصن من أعمال طرابلس الساحلية، وهي من فتوح الملك المنصور قلاوون وله متسع كبير أنظر : شيخ الربوة الدمشقي: نخبة الدهر، ص٢٠٧ .

٣- الباشورة : والجمع بواشير وهي الحائط الظاهري من الحصن يختفي وراءه الجند عند القتال ويقابلها في الفرنسية Bastion أنظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٨١ .

مـرة أخـرى(١) . وانفرد النويرى دون غيره من المؤرخين العرب بقصة تسليم جبيل للفرنج ، وقال رانسيمان أن الحصول على جبيل كان بفضل ما بذلته صاحبة جبيل ستيفانى ميللى Ste-phany Milly ابنة أخت رينالد سيد صيدا(٢)، الذى حصلت منه على هدايا عظيمة لاجتذاب المسلمين فتآمرت مع الأمير الكردى الذى يحكم جبيل وهيأ له أن تستعيد المدينة دون قتال ومنحت ستيفانى المدينة لابنها جاى الأول امبرياكو (٣). وانفرد أحد المؤرخين الحديثين وهو بـــروس Bruc بالإشارة إلى قيمة الرشوة التى دفعها الفرنج لحاكم جبيل الكردى بقوله «أنه بموت هيو الثالث امبرياكو Huge III لم تستمر المدينة فترة طويلة بعيدة عن أسرة امبرياتشى ، إذا استعادتها مقابل ٦,٠٠٠ بيزنط (٤). منحتها لحاكمها الكردى(٥).

١- أبوشامة : الروضتين، ج٢ ، ص٢٨٨ ، أبوشامة: الذيل على الروضتين ، ص٦ ، النويرى: نهاية الأرب، ج٢٦ ، لوحة ١٣٧-١٣٩ . وراجع أيضاً .

= De hethoum Comte De Gorigos, R. H.C. Doc. Arm , t. I, p. 479 ; Annales de Terre Sainte ,A. O.L., t. II, p. 434 ; cf. also Setton, Op. cit., t. II, p. 499 ; Cahen , Op. cit., p. 590 ; King, Op. cit., p. 169 ; Nante, Op. cit., pp. 69-70 .

راجع أيضاً : سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢ ، ص٩١٩ .

٢- Assises de Jersalem, t. II, p. 465-466 .

٣- Annales de terre Sainte , Op. cit., t. II, p. 434 .

٤- البيزانط : فى الأصل عبارة عن عملة ذهبية بيزنطية ، نسبة إلى بيزنطة عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية . وتعرف هذه العملة فى أوربا باسم Solidus وكانت متداولة فى أوروبا خلال العصور الوسطى منذ القرن السادس حتى القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا. فقد سكت من حوالى سنة ٥٠٠م فى عهد الامبراطور أناستاسيوس الأول (٤٩١-٥١٨م) Anastasius ، وبسقوط الإمبراطورية الشرقية فى القرن الخامس عشر الميلادى أخذ البيزانط يفقد قيمته ويقل تداوله إلى أن اختفى نهائيًا فى غضون القرن السادس عشر الميلادى . وليس من السهل تقدير القيمة الحقيقية للبيزنط ، نظرًا لاختلاف وزنه باختلاف الزمان والمكان ويمكن القول أن متوسط قيمة البيزنط الذهبى المتداول فى أوروبا وقتها يبلغ حوالى نصف جنيه انجليزى أى ما يوازى قيمة الدوكات . وعلى هذا يقدر المبلغ الذى دفع رشوة لصاحب جبيل حوالى ثلاثة آلاف جنيه انجليزى.

أنظر: جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ، ص٢٠٤ .

٥- Bruc, Op. cit., p. 133 .

وهكذا لم تجد جبيل أى عون أو مساعدة من قبل المسلمين لإنقاذها من قبضة الفرنج. ففى الوقت الذى قدم فيه العزيز عماد الدين ابن صلاح الدين لانقاذ المدينة بعد أن علم بخيانة حاكمها ، نجد أنه لم يكن يهمه إنقاذ المدينة، قدر اهتمامه بأمر أخيه الأفضل نور الدين على وما استولى عليه من مدن الشام. وقد بادر الأفضل بمراسلة عمه العادل طالبًا منه المساعدة . وحضر بالفعل الملك العادل أخو صلاح الدين والتقى بالعزيز بظاهر دمشق وقال له «لاتخرب البيت، وتدخل عليه الآفة، والعدو وراءنا من كل جانب وقد أخذوا جبيل فارجع إلى مصر واحفظ عهد أبيك[١] . فإن أنت توانيت تطرقت البلاد بأجمعها واستولى عليها الفرنج [٢]. «وهكذا اعتبر العادل سقوط جبيل طامة كبرى حلت بالمسلمين، لأن سقوطها كان بداية تفكك وضياع الجهود الضخمة التى أرسى قواعدها صلاح الدين. وقد قام الأفضل بمحاولة يائسة لإرجاع المدينة فى ١٦ من ربيع الآخر ٥٩٣هـ / ٦ من مارس ١١٩٧م، حين أرسل القائد جعفر بن شمس الخلافة على رأس قوة إلى جبيل ولكن دون جدوى. فقد اجتمعت على المدينة خيانة الحاكم وضعف القادة وكانت النتيجة هى عودتها إلى الصليبيين مرة أخرى. ومما يذكر أن المصادر العربية والأجنبية، لم تتحدث عن أى جهد عسكرى بذله المسلمون فى سبيل استعادتها بل تقبلوا الأمر بسلبية مطلقة، فى حين اعتبر الفرنج أن وجود جبيل بأيدى المسلمين كان بمثابة حاجز أو عائق يفصل بين مملكة بيت المقدس وشمال الشام وخاصة طرابلس لذا، لم يتوان آل امبرياتشى عن سد هذه الفجوة باستعادة نفوذهم داخل المدينة. وقد ساعد على نجاح الصليبيين فى أخذ جبيل قدوم الحملة الألمانية التى رفعت من روح الصليبيين المعنوية، فى الوقت الذى شعر فيه المسلمون بيأس شديد نتيجة صراع القادة قبل تولى العادل أخى صلاح الدين زمام الأمور فى مصر والشام.

فقد قام الفرنج بمحاصرة بيروت واستولوا عليها هى الأخرى سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م [٣]. دون وجود قوة إسلامية رادعة . ولكن ما أن استقرت الأمور للعادل بحكم مصر والشام (٥٩٦-٦١٥هـ/ ١٢٠٠-١٢١٨م) حتى سعى إلى جمع شمل المسلمين وتعزيز قواته ليتمكن من فرض نفوذه على دولة صلاح الدين. وكانت هذه المسئوليات الضخمة التى ألقيت عليه فى نفس

١- ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص١٢٠ ، ١٢١ ، القازانى : تاريخ القازانى، جـ٢ ، ص٩٣ .

٢- ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٦ .

٣- عن سقوط بيروت أنظر: ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٤ ، ابن بهادر : فتوح النصر ، ورقة ٨٤ .

الوقت الذى كان فيه الصليبيون يقيمون معسكرهم قبالة المدن الإسلامية، تساندهم فى هذا فلول الحملة الألمانية التى بدأت تتوافد على الشام، وقد اضطر الملك العادل أول الأمر أن يواجه القوة بالقوة ، فقام باستدعاء جميع أمراء بنى أيوب ، وطلب منهم ترك خلافاتهم الداخلية والوقوف صفًا واحدًا فى مواجهة الفرنج الذين توجهوا من عكا نحو الجليل . وما أن علم الألمان بقدوم العادل إليهم، حتى اضطروا للعودة مذعورين، بينما قام العادل بحصار يافا. وكان الفرنج قد أرسلوا رينالد سيد صيدًا Rinald ليتولى أمر الدفاع عنها ، وليواجه حصار العادل لها . ولكن نظرًا لعدم كفاءة رينالد لهذه المهمة اضطر هنرى كونت شامبانيا إلى حشد قوات صليبية ضخمة أرسلها إلى يافا، ولكنه توفى فجأة عام ١١٩٧م / ٥٩٣هـ، تمكن العادل من استرداد يافا فى شوال ٥٩٣هـ/ أغسطس ١١٩٧م(١).

وقد أحدثت وفاة هنرى اضطرابًا كبيرًا داخل المملكة الصليبية، وأضحت الحاجة ماسة إلى اختيار من ينوب عنه. ووقع اختيار الصليبيين على أماريك الثانى Amalric II ليكون ملكًا عليهم (١١٩٧-١٢٠٥م / ٥٩٣-٦٠١هـ). وكان أماريك هذا يدين بالولاء الكامل للإمبراطور الألمانى هنرى السادس الذى كان قد توجه ملكًا على قبرص من قبل، وذلك ردًا على السفارة التى أرسلها أماريك لهنرى بقيادة رينيه Rinier أسقف جبيل يقدم له فيها فروض الطاعة والولاء . فرد عليه الإمبراطور بتتويجه ملكًا على قبرص ١١٩٧م / ٥٩٣هـ (٢).

وفى معمعة تلك الأحداث عاشت جبيل فترة من الاستقرار النسبى تحت سادتها آل امبرياتشى ما قاموا به من جهود ضخمة من أجل قدوم الحملة الثالثة وما تلاها من حملات . ولذلك أصبح لأسرة امبرياتشى منذ عام ١١٩٠م / ٥٨٦هـ الحق فى الكثير من الممتلكات

١- أبوشامة : الذيل على الروضتين ، ص١٠-١١ وابن واصل : مفرج الكروب، ج٣، ص٧٥ ، راجع أيضًا : سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢ ، ص٩١٨-٩٢٤ .

٢- على الرغم من اتحاد قبرص ومملكة بيت المقدس تحت تاج واحد ، إلا أن أماريك لم يحقق آمال الإمبراطور هنرى والبابا . فقد أعلن مجرد توليه عرش بيت المقدس أن المملكتين سوف تجرى إدارتهما منفصلتين، وأنه لن ينفق من أموال قبرص على الدفاع عن مملكة بيت المقدس. فالملكية فى قبرص وراثية ويعتبر ابنه هيو ولى العهد بها، فى حين كان أماريك يدين لزوجته بملكية بيت المقدس «ايزابيلا» فإذا مات يكون لها الحق فى الزواج مرة أخرى وأن وريثها ستكون ابنتها ماريا مونتفرات. لذلك حرص أماريك على تدعيم مملكة قبرص نظرًا لأحقيته بوراثة العرش بها . أنظر:

Livre De Philippe De Navarre , in Assises de Jerusalem t. I, p. 69 .

العقارية. بل أن جنوة أعفت الأسرة من ديونها مكافأة لها على نجاحها فى استعادة جبيل ، بالإضافة إلى دورها فى أخذ عكا . حقيقة أن وجود تلك الأسرة قد تزعزع بانتصارات صلاح الدين، لكنها كانت من أولى العناصر الفرنجية التى استفادت من الدبلوماسية الرائعة التى سلكها كل من صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، ونعنى بهذا الهدنة التى اتفقا عليها . فقد ازدهرت حركة التجارة فى الشرق واستفاد منها آل امبرياتشى . وكان لهذا أثره على وضع جبيل الاقتصادى بعد عودتها للصليبيين. ونظراً لتزايد نفوذ تلك الأسرة داخل جبيل بدأت علاقاتها بجنوة الأم فى التقلص والانكماش . وتفرغ آل امبرياتشى للمشاركة فى الأحداث التى مرت بها دولة الفرنج فى الشام بعد ذلك(١).

على أية حال ، فبعد أن نجح الفرنج فى أخذ جبيل وبيروت ، تشجع الألمان لاستكمال القتال ضد المسلمين. وواصلوا سيرهم صوب بيت المقدس(٢). فى الوقت الذى كان فيه أمراء الفرنج بالشرق فى حاجة ماسة لتجديد الهدنة مع الملك العادل. ولم يكن لهم أى نوايا فى القتال مع المسلمين، ولكنهم فشلوا فى أن يثنوا جنود الحملة الألمانية عن عزمهم أو أن يوقفوا القتال. ففى نوفمبر ١١٩٧م / محرم ٥٩٣هـ تقدم الألمان نحو الجليل وحاصروا حصن تبنين(٣). وكان حصاراً قوياً أرهق الحامية الإسلامية بالحصن لدرجة أنها فكرت فى تخليها عنه مقابل النجاة بنفسها. هذا، فى الوقت الذى سعى فيه أمراء الفرنج إلى تدعيم سياستهم مع العادل وكسب صداقته أملاً فى تجديد الهدنة والحصول على فترة من الهدوء يتنفسون فيها الصعداء . وأثناء ذلك وصلت إمدادات للعادل من مصر فى الوقت الذى أرهق فيه الألمان القائمين على حصار تبنين ، وخفت حدة هجومهم . يضاف إلى ذلك وصول الأخبار بوفاة الإمبراطور هنرى السادس فى سبتمبر ١١٩٧م / ذى القعدة ٥٩٣هـ (٤). مما أثر فى معنويات الجنود الألمان الأمر الذى جعل الكثيرين منهم يفضلون العودة إلى بلادهم. فرفعوا الحصار عن تبنين وقفلوا عائدين إلى ديارهم. وإذا كان تراجع الألمان بهذه الصورة يعنى فشلهم، إلا أننا

١- Byrne, Op. cit., pp. 159-160 .

٢- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣ ، ص٣٦ .

٣- ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٧٥ ، أبوشامة: الروضتين، ج٢ ، ص٢٣٣ .

٤- Setton , Op. cit., vol . II, p. 530 .

نعتبر سقوط جبيل وبيروت من أكبر النتائج التى حققها الفرنج الألمان فى الشرق [١]. ذلك أن قدوم الحملة الألمانية رفع من الروح المعنوية للفرنج ببلاد الشام، فى الوقت الذى عاش فيه المسلمون فترة تفكك وضعف بعد وفاة صلاح الدين حسبما أسلفنا .

ولم يكد الألمان يعودون إلى بلادهم، حتى أسرع أماريك باجراء المفاوضات وعقد الصلح مع الملك العادل وكان الأخير بحاجة ماسة هو الآخر لهذا الصلح حتى يعيد تنظيم البيت الأيوبى بعد الصراعات التى فرقته. وعقدت الهدنة فى ٢٤ من شعبان ٥٩٤هـ/ أول يوليو ١١٩٨ [٢]. وقد نصت على احتفاظ الصليبيين بجبيل وبيروت، وتملك العادل يافا، مع اقتسام صيدا مناصفة بينهما، وأن تكون مدة الهدنة خمس سنوات وثمانية أشهر.

وقد اختلف المؤرخون العرب، مرة أخرى، حول مدة تلك الهدنة. فذكر العينى وابن واصل وابن أيبك أن مدتها ثلاث سنوات ، وهذا غير صحيح . إذ قال كل من ابن بهادر وأبى شامة أن الهدنة انقضت عام ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م . ونظراً لأنها عقدت أواسط عام ١١٩٨م (أواسط٥٩٤هـ) ، لذا لايمكن أن تكون مدتها ثلاث سنوات. وعلى هذا فإن رأى أبى شامة وابن بهادر أقرب إلى الصحة والصواب [٣].

لقد رحب العادل بهذه الهدنة، هو الآخر، رغبة منه فى توجيه نشاطه نحو المصالح التجارية والاقتصادية فى ظل ظروف هادئة بعيدة عن القتال ، فقد ظهرت أهمية الهدنة بعد وفاة العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان صلاح الدين سنة ١١٩٨م / ٥٩٤هـ، إذ تفرغ العادل للتدخل فى أمور مصر وتسوية النزاعات الداخلية، وإعادة توحيد الجبهة الإسلامية فى الشرق .

١- القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٧٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب، جـ٣ ، ص٧٥، أبوشامة : الذيل على الروضتين، ص٦ .

٢- ابن واصل : مفرج الكروب، ج٣ ، ص٧٨ .

٣- ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ٩٧، أبوشامة : الذيل على الروضتين ، ص١٣ ، العينى : عقد الجمان، جـ١ ، ق٢ ، ورقة ٢١٨ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج٧ ، ورقة ١٢٥ ، القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٧٧ . راجع أيضاً :

King, Op. cit., p. 269 ; Conder, Op. cit., p. 290 ; Setton, Op. cit., vol , II, p. 530 .

فاستولى على كل ممتلكات العزيز (١)، مما أدى إلى تماسك الجانب الإسلامى وتكتله تحت قيادة واحدة مثلما كان الحال أيام مؤسس الأسرة الأيوبية .

وفى عام ١٢٠١م / ٥٩٧هـ تعرضت بلاد الشام لزلازل عنيفة، وتحطمت مدن بأكملها مثل صور وطرابلس وعكا ونابلس، كما تأثرت مدينة جبيل كثيراً بهذه الزلازل . فقد قتل فيها خلق كثير(٢). ولاشك أن هذه الظروف الطبيعية غير المواتية قد تركت بصماتها على الجانبين المتصارعين وعلى طبيعة العلاقات بينهما .

ومهما يكن من أمر ، فإن المحافظة على السلم بين الطرفين لم يكن مسألة هينة أو أمراً سهلاً. فلاشك أن كلا من الصليبيين والمسلمين كان يتربص بالآخر، فى وقت بدأ فيه ميزان القوى فى الصراع بينهما يعتدل لصالح المسلمين، وفى وقت بدأ الكيان الصليبى فى الشام فى الانهيار بعد الخلافات التى ازدادت حدتها واتسعت هوتها بين الفرنج على المصالح الخاصة والأهواء الذاتية، وبعد أن انشغل الغرب بمشاكله الداخلية عن تقديم يد العون والمساعدة إلى إفرنج الشام مثلما كان الحال فى بدايات الحركة الصليبية .

ففى نهاية ١٢٠٢م / ٥٩٨هـ حدث أن قام الفرنج بشن غارات متفرقة ضد المسلمين وقد وقف أماليرك موقفًا سلبيًا منها. لذلك فإنه حين قام أحد أمراء المسلمين بالإغارة على السواحل التابعة للصليبيين قرب صيدا، سلك معه العادل نفس الموقف ولم يردعه ، مما جعل أماليرك يقوم باعتراض قافلة للمسلمين تحمل متاجر ثمينة وهى فى طريقها إلى اللاذقية ، فاستولى عليها ثم أغار على الجليل . فاضطر العادل إلى الخروج للقائه ، وتقدم حتى بلغ جبل الطور، غير أن الملك الصليبى لم يشأ أن يصطدم مع العادل أو أن ينشب بينهما قتال مكشوف . وحدث أن جماعات من الاسبتارية خرجت من حصنى الأكراد والمرقب وأغارت (٣). على بعض

١- ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص٨٢ ، الفازانى: تاريخ الفازانى، جـ٢، ورقة ٩٣ .

٢- النويرى : نهاية الأرب، ج٢٧ ، لوحة ٥٥، ابن كثير : البداية والنهاية، ، ج١٣ ، ص٢٧ .

٣- حصن الأكراد : هو الحصن الخلفى الرئيسى للاسبتارية وقد كان تابعًا لحاكم طرابلس، وكان يحمى الممر الرئيسى الذى يصل ساحل لبنان الشمالى بسورية . وكان هذا الحصن فى طليعة الحصون التى بنيت بتسيطر على الممرات التى امتدت بين الأقاليم الإسلامية الداخلية، والمناطق الفرنجية الساحلية، أنظر: فيليب حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جـ٢ ، ص٢٤٥ . =

المدن الإسلامية فخرج إليهم العادل وقد أقسم على هلاكهم ، حيث تجمعت لديه جيوش كثيرة من دمشق . وسار إلى حصن الأكراد ولم يحدث قتال يذكر بينهما، فقد ارتدوا بقدوم العادل . وفى عام ١٢٠٤م / ٦٠٠هـ كانت قد انتهت الهدنة بين المسلمين والفرنج ، غير أن أماليك سعى إلى تجديدها حرصًا منه على وقف القتال. ويقول رانسيمان أن العادل بعد أن رأى تفوق المسيحيين فى القوة البحرية أثار هذا قلقه، وأثر الاتجاه نحو التجارة على الساحل السورى، بل أنه كان على استعداد ليس فقط للتنازل عن جبيل وبيروت لأماليك بمقتضى الهدنة السابقة، بل تنازل أيضًا عن يافا والرملة ، وقدم التسهيلات للحجاج القادمين إلى بيت المقدس(١). وقد رحب أماليك كثيرًا بهذه الشروط ، غير أنه مات فى أبريل ١٢٠٥م / ٦٠١هـ .

وثمة تساؤل يطرح نفسه ملحًا فى طلب الإجابة عليه، وهو كيف يسعى الملك العادل للصلح مع الفرنج بالشام، وتقديم التنازلات العديدة لهم، فى الوقت الذى كان فيه فى مركز القوة لصالح المسلمين؟ والإجابة بكل بساطة أنه ليس ثمة تناقض فى موقف العادل المتساهل من الصليبيين بينما مركز الثقل يميل بقوة إلى جانبه. فقد أراد اتاحة الفرصة له ليتنفس فيها الصعداء وليعيد ترتيب البيت الأيوبى الذى مزقته الصراعات الداخلية . حتى يتسنى له بعد تجميع قواه توجيه ضربة قوية مؤثرة إلى الصليبيين استكمالاً لسياسة أخيه صلاح الدين فى توحيد الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى وضمان سلامتها. وهذا ما عرف باسم الجهاد الأصغر توطئة لمواصلة الهجوم على باقى المعاقل الصليبية فى الشام فيما عرف باسم الجهاد الأكبر .

ولم تتوقف المناوشات بين الطرفين على الرغم من وجود الهدنة بينهما، ففى عام ٦٠٣هـ / ١٢٠٧ م أغار جماعة الفرسان الاسبتارية مرة أخرى على مدن المسلمين فى الشام فخرج إليهم العادل، وحدثت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير وضيق عليهم وفتح حيفًا وأعزاز(٢)

= أما حصن المرقب: فهو ثغر منيع على رأس شاهق مطل على البحر ، كبير مثلث ، بناه الرشيد، ثم ملكه النصارى ثم أعاده المسلمون . أنظر : شيخ الربوة الدمشقى نخبة الدهر، ص٢٠٨ ، وأيضًا : فيليب حتى، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

١- Runciman , Op. cit., t. III , p. 70 .

٢- أعزاز : هى بليدة فيها قلعة لها رستاق ، شمالى حلب بينهما يوم، وهى طيبة الهواء عذبة الماء، أنظر شيخ الربوة الدمشقى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص٢٠٥ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ٤ ، ص١١٨ .

وما يهمنا من هذه الغارة أن العادل باقترابه الشديد من طرابلس التى كانت تحت النفوذ الصليبى ومنازلتها ، فإنه من المنطقى أن جبيل شاركت فى هذه الأحداث لقربها الشديد من طرابلس من جهة، ولرغبة آل امبرياتشى فى المشاركة أملاً فى الحصول على المزيد من النفوذ والمزيد من الامتيازات من جهة أخرى . وإن كانت المصادر ، من عربية وغير عربية، لم تزودنا بأدلة دامغة بهذا الخصوص.

ومع بداية عام ١٢١٠م / ٦٠٧هـ انتهت الهدنة الثانية بين المسلمين والفرنج ، وكان يوحنا دى بريين John de Briene المرشح الجديد لملكة بيت المقدس وصل إلى عكا بالفعل ١٢١٠-١٢٢٥م / ٦٠٧-٦٢٢هـ. وكان بحاجة شديدة إلى استمرار الهدنة بينه وبين المسلمين حتى يتفرغ لإقرار الأمور داخل مملكته. وكان العادل قد أرسل إلى يوحنا يقترح عليه تجديد الهدنة. لذا عجل الفرنج فى تلبية طلبه خاصة عندما شرع العادل فى بناء حصن قوى فوق جبل الطور المطل على عكا، الأمر الذى أرهب الصليبيين، فعقدت الهدنة للمرة الثالثة لمدة ست سنوات أخرى ابتداء من عام ٦٠٨هـ / ١٢١١م (٢).

وفى نفس الفترة التى عقدت فيها الهدنة كان الملك يوحنا دى بريين صاحب عكا والملك الأسمى لبيت المقدس لايكف عن إرسال السفارات إلى روما طالبًا الدعوة إلى حملة صليبية جديدة قبل انقضاء الهدنة المبرمة مع العادل. ولاشك أن الحصن الذى شيده العادل فوق جبل الطور كان له أسوأ الأثر بالنسبة للصليبيين. إذ أحكم المسلمون قبصتهم على المناطق المجاورة لعكا، وأصبحت لديهم القدرة على شن هجوم قوى على كل الممتلكات الصليبية فى الشام. على أن الصراع سرعان ما اشتد بين طرابلس وأنطاكية، وكان هذا بداية انقسام شديد وخطير بين إفرنج الشام. إذ انقسم على أثره الداوية والاسبتارية من الجماعات الرهبانية والجنوية

= وحيفا : حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا ولم يزل بأيدى المسلمين إلى أن أخذه الصليبيون عام ٤٩٤هـ وبقى فى أيديهم إلى أن فتحه صلاح الدين عام ٥٧٣هـ . أنظر : ياقوت الحموى ، معجم البلدان، ج٢، ص٣٣٢ .

١- ابن أيبك : كنز الدرر، ج٧ ، ص١٤٧ ، ابن أيبك: درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان، ورقة ٣٨٥، العينى: عقد الجمان، ج٢ ، ق٢ ، ورقة ٣٠٧ ، ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، جـ٩ ، ورقة ٢٠ .

٢- ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧٦ .

والبنادقة من الجاليات الإيطالية ليعضد كل فريق منهم مدينة ضد الأخرى، وذلك عندما نصب بوهمند كونت طرابلس Bohemond V نفسه أميرًا على أنطاكية دون وجه حق بعد وفاة بوهمند الثالث صاحب أنطاكية ، متحديًا فى ذلك حقوق ريموند روبين Raymond Robin الوريث الشرعى لأنطاكية . غير أن ليو Leo ملك أرمينيا وخال ريموند وقف إلى جواره مطالبًا بحقه فى الحكم ، ثم نشب صراع بين ليو والداوية [١]، فى حين أخذ الاسبتارية جانب ليو ضد بوهمند والداوية وذلك فى الفترة التى بدأت العلاقات بين طرابلس وجبيل تسير من سئ إلى اسوأ ، ليصبح حاكم جبيل العدو الأول لكونت طرابلس. وهذا ما سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد .

وفى الواقع فإن هذه الفترة من تاريخ جبيل، تتميز بأهميتها نظرًا لتأرجحها بين حكم إسلامى وآخر صليبى، مما أضفى على الدور الذى قامت به فى الصراع الصليبى الإسلامى أهمية خاصة. وقد ترك هذا الدور بصماته على موقفها من الأحداث التى ستكون منطقة الشرق الأدنى مسرحًا لها منذ ذلك الحين وحتى سقوط آخر المعاقل الصليبية على الساحل الشامى فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (أواخر القرن السابع الهجرى) .

١- نشب الصراع بين ليو والداوية عندما رفض ليو منح الداوية قلعة بغراس ، لذا تدخل البابا أنوسنت واقنع ليو بتسليمهم القلعة حرصًا على مصالح الصليبيين ورفض ليو ذلك، فى حين اعتبر بوهمند كونت طرابلس أن تدخل البابا أمر غير مقبول فى مسألة إقطاعية بحتة مما أدى إلى نشوب صراع كبير بين هذه الأطراف . أنظر:

Runciman, Op. cit., vol . III, p. 138 .

الفصل الرابع

دور جبيل فى الصراع الصليبى الإسلامى

فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى/ النصف الأول من القرن السابع الهجرى

فترة الحكم الثانية لآل امبرياتشى ، وعلاقتهم بملوك أرمينيا وأمراء الفرنج بالشام ابتداء من عام ١٢٠١م / ٥٩٧هـ، وأثر ذلك على الصراع الصليبى الإسلامى - حملة رينارد دى دامبيار ضد المسلمين ببلاد الشام، وموقف جاى امبرياكو منها عام ١٢٠٨م / ٦٠٥هـ - دور جبيل فى الحملة الهنغارية ضد المسلمين ببلاد الشام (١٢١٧م / ٦١٤هـ) - مساهمة جبيل الإيجابية فى تدعيم جيوش الحملة الخامسة ضد مصر (١٢١٨- ١٢٢١م / ٦١٥-٦١٨هـ) - موقف جبيل من الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى أثناء وجوده ببلاد الشام (١٢٢٩م / ٦٢٥هـ) ونتائج ذلك بالنسبة للصراع بين المسلمين والصليبيين. - آل امبرياتشى ودورهم فى صراع الفرنج بقبرص منذ رحيل فردريك الثانى عن بلاد الشام. - حملة لويس التاسع على مصر ودور جبيل فيها (١٢٤٨-١٢٥٠م / ٦٤٦-٦٤٨م) - دور جبيل فى الصراع الصليبى الإسلامى أثناء إقامة لويس التاسع ببلاد الشام (١٢٥٠-١٢٥٤م / ٦٤٨-٦٥٢هـ).

لقد تبلور الدور الخطير الذى قامت به جبيل فى تلك الفترة من الحروب الصليبية ، فى كافة الأحداث التى شاركت فيها المدينة مشاركة فعلية، والتى كان لها أكبر الأثر فى العلاقات الإسلامية الصليبية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى، النصف الأول من القرن السابع الهجرى . فقد كانت عودة جبيل للفرنج حصيلة جهد وعرق كبير بذله آل امبرياتشى ، الذين لم يغب عن خاطرهم القيمة الاستراتيجية للمدينة، إن هم استحوذوا عليها مرة أخرى. فإذا كان آل امبرياتشى قد دفعوا مبلغ ٦ آلاف بيزانت من الذهب رشوة لصاحب جبيل الأيوبى، فإنهم قد وضعوا أيديهم على كنوز وثروات عظيمة داخل المدينة، كما تمكنوا من إعادة أحكام قبضتهم على الساحل [١].

١- Bruc, Op. cit., p. 134 .

ولم يتوقف الجنوية عن ممارسة نشاطهم التجارى قط، حتى فى الفترة التى استعاد فيها صلاح الدين المدينة. إذ نجدهم انتشروا على سواحل آسيا وبلاد فارس، وكانت موانئ أرمينيا مسرحًا لنشاط الجنوية التجارى بصفة عامة ، ولآل امبرياتشى بموجب هذه الاتفاقيات الحق فى إقامة المصارف والمراكز التجارية فى كل مدن سيس وماميسترا [١]، كما سمح لهم بإقامة جاليات متكاملة داخل أرمينيا وقد ورد فى العديد من الوثائق أسماء فرسان من قبرص وطرابلس وجبيل [٢]، وبورهم الواضح فى كثير من الأحداث فى أرمينيا . كما كان مسموحًا لهم بإقامة محاكم خاصة بهم تبت فى كافة الشئون الجنوية دون التدخل من حكومة أرمينيا .

لقد دأبت أسرة امبرياتشى على الاستقلال بشئونها الداخلية، حتى وهى بعيدة عن سواحل الشام. فلم تندمج فى المجتمع الجنوى خاصة فيما يتعلق بالنواحى التجارية ، الأمر الذى عجل بتقطع أوصال العلاقات الطيبة التى تربطها بجنوة الأم. فمنذ تولى جاى الأول امبرياكو Guy Ambriaco حكم مدينة جبيل (١١٩٩-١٢٤١م / ٥٩٦-٦٣٨هـ) كان يرفض دفع أية أموال من خزانة جبيل لصالح جنوة . وقد برر ذلك الموقف بأن آل امبرياتشى هم أصحاب الفضل الأول فى عودة المدينة إليهم دون أية مساعدات من أحد. حقيقة أن جنوة كانت تعلم ذلك، بل كثيرًا ما تنازلت عن حقوقها لصالح تلك الأسرة ، ولكن هذا الأسلوب من حاكم جبيل كان له أسوأ الأثر على العلاقات بين الطرفين [٣]، وانعكاساته على مسلمى الشرق الأدنى.

لقد أصبحت مهمة الدفاع عن جبيل منذ عودتها إلى الصليبيين أصعب من ذى قبل . فقد كانت معظم المدن المحيطة بها يحكمها المسلمون ، مما كان يهدد أمن المدينة فى كثير من الأوقات، ولذلك فقد عمل جاى امبرياكو على إحكام الدفاع عنها . فأعاد بناء الأسوار التى هدمها صلاح الدين قبيل مجئ الحملة الثالثة. ثم بدأت جبيل بعد ذلك تمارس نشاطها المألوف بالتدخل فى شئون المدن الصليبية الأخرى وخاصة عكا ففى عام ١٢٠٦م / ٦٠٣هـ ذكرت

١- سيس : هى مدينة مشهورة بأرمينيا ، بينها وبين بلدة كيلكوين مسافة قريبة وهى مدينة طيبة مقتصرة، أما ماميسترا : فهى من أشهر المدن الأرمينية فى العصور الوسطى، وكانت بمثابة العاصمة الأول لأرمينيا . للمزيد أنظر : ابن حوقل ، صورة الأرض ، ج٢ ، ص٣٥٠ .

٢- Actes Genois d'Armenis , in A. O. L., t. I, pp. 436-436 .

٣- Bruc, Op. cit., p. 134 .

الوثائق أن مجلس مدينة عكا اجتمع خصيصًا للعمل على تقنين بعض القوانين الخاصة لاثنين من أسرة امبرياتشى ، قاما بشراء منزل خاص بالفيكونت أوجوفا راريو Ogova Rario كما ورد فى تلك الوثائق أسماء العديد من الفيكونتات والقناصل الذين يحملون لقب امبرياتشى منذ عودة المدينة إليهم. فلم تكن مهمة هؤلاء القناصل قاصرة على البت فى شئون أمراء الفرنج بالشام فحسب، بل أنهم كثيرًا ما تدخلوا فى كافة الحقوق والامتيازات الخاصة بحكومة جنوة فى الشام [١]. لقد كانت تلك المزايا التى تمتع بها آل امبرياتشى دليلاً واضحًا على ثقتهم بأنفسهم، بعد النجاح الذى أحرزته الأسرة بإعادة المدينة إليهم وأضحت جبيل وطرابلس من أكبر المراكز التجارية للمدن الإيطالية بصفة عامة، وللجنوية بصفة خاصة فى حين اتخذ البنادقة مدينة صور مركزًا لممارسة نشاطهم، وتمركز البيارنة فى بيروت [٢].

ولقد ذكر المؤرخ كوندر أن مدينة جبيل كان لها من السطوة فى تلك الفترة الثانية للحكم الصليبى لها ، أن منحت البندقية نفسها الكثير من الامتيازات التجارية داخل جبيل وخارجها، وتساوت فى هذا مع ما منحه الملك العادل أخو صلاح الدين إليهم. لقد حرصت جبيل على منح البندقية ما لم تحصل عليه جنوة نفسها فى الشام، مما يدل على سوء العلاقات بين جبيل والوطن الأم[٣].

وتعد الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨-١٢٢١م / ٦١٥-٦١٨هـ) من أهم الأحداث التى شاركت فيها جبيل تلك الفترة. ذلك بعد أن غيرت الحملة الرابعة مسارها نحو القسطنطينية ، بعد أن كان مقررًا لها مهاجمة مصر رأس الأفعى بالنسبة للفرنج من وجهة نظرهم، رأى الصليبيون ضرورة السعى الجاد لإرسال حملة أخرى إلى مصر. وقد بذل كل من البابا إنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦م / ٥٩٧-٦١٣هـ) والبابا هونوريوس الثالث Hon-orius III (١٢١٦-١٢٢٧م / ٦١٣-٦٢٤هـ) جهودًا ضخمة لإنجاح مساعيهما فى إعداد حملة جديدة تعوض ما فشلت فيه القوة الصليبية التى قدمت إلى الشرق للاستيلاء على بيت المقدس. وفى تلك الفترة التمهيدية للحملة الخامسة قدم إلى بلاد الشام عام ١٢٠٨م / ٦٠٥هـ

١- Actes du Nothaire Genois Lamberto Di Sambuceto, in R. O. L., t. II, p. 6 .

٢- Nant, Op. cit., p. 71 .

٣- Conder, Op. cit., pp. 324-325 .

رينارد دى دامبيير Renard de Dampierre على رأس حملة متواضعة لمهاجمة المسلمين. وقد بذل جهوداً كبيرة لحث الأمراء الفرنج على المشاركة معه فى القيام بهجوم مكثف ضد المدن الإسلامية فى بلاد الشام، فى الوقت الذى كانت فيه الهدنة بين الفرنج والمسلمين لاتزال قائمة لذلك لم يجد أى تشجيع من إفرنج الشام للدخول فى حرب ضد المسلمين . فتظاهر بتدخله فى مسألة وراثة العرش القائمة بين أنطاكية وطرابلس، وكان رينارد يعضد جانب بوهمند الرابع ضد ريموند روبين الوريث الشرعى لأنطاكية. ولذا قرر السير نحو أنطاكية ومعه عدد من الجنود والفرسان بلغ ٨٠ فارساً ، ووصل إلى طرابلس ومنها إلى جبيل استقبله أميرها جاى امبرياكو بكل حفاوة وترحاب. وعرض عليه مساعدته لأن جاى كان حليفاً قوياً لبوهمند أيضاً، وقد طلب رينارد من جاى أن يتوسط لدى المسلمين فى حلب ليستأذنهم فى السماح له بالمرور عبر أراضيهم . ولكنه لم ينتظر الرد، وبدأ سيره نحو حلب يصاحبه بعض الجنود المسلمين من جبيل(١) الذين كانوا بمثابة أدلاء له ووصلوا حتى حدود جبيل . وفيما بين اللاذقية وأنطاكية وقع رينارد وجنوده فى كمين أعد لهم، الأمر الذى شتت شملهم، ولحقت بهم هزيمة فادحة من قبل المسلمين. وكل من تمكن من الهرب من الموت وقع فى الأسر، واقتيدوا جميعاً إلى حلب فيما عدا جيل دى ترازيجين Gilles de Trazegen كونت الفلاندرز ، فقد تمكن من الهرب وأبلغ الأمراء الصليبيين بتلك النتيجة التى وصلت إليها حملة رينارد تحت ستار المشاركة فى حل مشكلة أنطاكية (٢).

وقد انفرد «أرشيف الشرق اللاتينى» بذكر هذه الحادثة التى شاركت فيها جبيل دون غيرها من مدن الشام الصليبية. ولم ترد أية إشارات فى المصادر العربية أو المراجع الحديثة عن حملة رينارد هذه وقد آثرنا سردها لعدة أسباب ، منها ذلك الموقف المنفرد الذى اتخذه جاى امبرياكو من رينارد دون غيره من أمراء الفرنج، لمهاجمة المسلمين. فلم تكن النية للهجوم على المسلمين خافية على كل الأمراء الصليبيين . وهذا يثير احتمالاً بأنه ربما وجدت بعض الخلافات بين جاى وهؤلاء الفرنج. يضاف إلى ذلك ما ذكر من أن المسلمين الذى كانوا مع رينارد كانوا من مسلمى جبيل. ويرجح أن هؤلاء المسلمين كانوا عيوناً على رينارد، وأنهم ربما

١- Chartes des Comtes de Dampierre, in . A. OL., t. II, pp. 188-189 .

٢- Chartes des comtes de Dampierre , Op. cit., p. 190 .

قد انتقموا منه بإعداد هذا الكمين الذى فوجئ به ورجال حملته . فالمسلمون فى جبيل لم يميلوا قط لعودة الوجود الصليبى إلى مدينتهم، والدليل على هذا ما سبق أن ذكرناه عن وصف كافة المعاصرين من المؤرخين العرب للحالة الطيبة التى عاشها أهالى جبيل من المسلمين فى ظل الحكم الإسلامى بعد استعادة صلاح الدين للمدينة .

وعلى أية حال ، فقد أسفرت الجهود التى بذلها البابا هونوريوس الثالث استكمالاً لمسيرة البابا انوسنت الثالث الذى توفى عام ١٢١٦م / ٦١٣هـ عن قدوم الحملة الهنغارية إلى الشام، وقد واجهت تلك الحملة الأمرين نظرًا لتعذر اشتراك العديد من ملوك أوربا فيها [١]. ثم وصلت طلائعها إلى عكا فى سبتمبر ١٢١٧م / جمادى الآخرة ٦١٤هـ، وكان فى مقدمتها الملك أندرو الثانى Andrew II ملك هنغاريا ، الذى ما لبث أن أرسل إلى جميع الأمراء المسيحيين بالشرق يطلب منهم المشاركة فى صفوف تلك الحملة. وكان ليوبولد دوق اوستريا Leopold أحد القادة الذين انخرطوا فى سلك الحملة فقد وصل هو الآخر إلى الشام قبل مقدم اندرو نفسه، ووجه نفس النداء لأمراء الفرنج. وكان جاى امبريكو أول من لبى نداء هولاء القادة، وتقدم إلى عكا معه شخص يدعى برتراند Bertrand وآخر يدعى وليم William وهما من جبيل أيضًا . كما قدم جوتييه الثالث Gautier III سيد قيسارية وهيو ملك قبرص Huge [٢]. وكان جاى من أكثر المتحمسين لها، وبذل نشاطًا جمًا فى محاولة إنجاحها ، ولكن دون جدوى. فقد وصلت الرسل من الشرق إلى البابا هونوريوس تعلمه أن الجاليات الإيطالية الممثلة فى جنوة وبيزا والبندقية هى وحدها المتحمسة للقتال وتعيش فى حياة اقتصادية مستقرة، ولاتزال تمارس نشاطها التجارى المألوف ولكن الصراعات بينها لاتنقطع وأما باقى أفرنج الشام فكانوا يكرهون الحالة

١- كان اندرو الثانى ملك هنغاريا ، وقائد تلك الحملة يعانى من نشوب حرب أهلية فى بلاده ، الأمر الذى جعل البابا أوسنت الثالث يحله من الوفاء بوعده للقيام بالحملة. غير أنه رفض وتمسك بحمل الصليب والسير إلى الأراضى المقدسة، فى الوقت الذى مات فيه انجى الثانى Engy II ملك النرويج وكان من أكثر المتحمسين للحملة كما اعتذر كل من الإمبراطور فردريك الألمانى Fredrick والملك يوحنا John ملك انجلترا . انظر:

Runciman, Op. cit., t. III, pp. 147-148 .

٢- Estoire d'Eracles, pp. 320-321 ; cf. also : Runciman , Op. cit ., t. III, pp. 149-150 .

وأيضًا : محمود فهمى ، البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ، جـ٢ ، ص٢٦٤ .

السيئة إلى وصل إليها رجال الدين من بذخ وخمول ، فى حين أن المسلمين كانوا يؤثرون السلم ولايميلون قط للقتال، بل وجهوا نشاطهم للتجارة .

وعلى الرغم من تلك المصاعب ، فقد اتفق على مهاجمة بيسان[١]. ولما علم الملك العادل أبوبكر بن أيوب بهذا خرج لملاقتهم، ثم أرسل ابنه المعظم عيسى للدفاع عن دمشق . ولكن حدث فجأة خلل وانقسام بين قادة الحملة، إذ جعل الملك يوحنا أوف إبلين نفسه John of Iblin قائداً عامًا للحملة، فى حين انحاز الجنود الهنغاريون إلى ملكهم أندرو بينهما انضم القبارصة إلى ملكهم هيو، مما أدى إلى انقسام قيادة الجيش إلى عدة قيادات وفرق دون وجود من يوحد كلمة الجميع لتنفيذ خطة محكمة تسعى لتحقيق الهدف الذى جاءت من أجل الحملة. ولذا لم يتمكنوا إلا من الوصول إلى بيسان فى نوفمبر ١٢١٧م / شعبان ٦١٤هـ [٢]، وقاموا بنهبها وتخريبها وقد انسحب الملك العادل فجأة من أمام بيسان ، عندما رأى قوة العدو وجيوشه، وأشعل النيران[٣] فيها الأمر الذى أتاح الفرصة للفرنج لأعمال السلب والنهب وتخريب المنطقة الواقعة بين بانياس وبيسان. ثم قفلوا بعد ذلك عائدين إلى عكا وقد اعتبرت تلك الحملة، على الرغم من النتائج الضئيلة التى حققتها، المقدمة التى حملت كل أهداف وآمال الصليبيين فى الحملة الخامسة .

والجدير بالذكر أن المصادر ، من عربية ولاتينية، معاصرة ومتأخرة زمنيًا ، أغفلت الدور المستقل الذى قام به آل امبرياتشى فى أحداث بيسان وبانياس ، كما صمتت عن الدور الذى

١- بيسان : هى مدينة بالأردن بالغور الشامى وهى بين حوران وفلسطين، وتوصف بكثرة النخيل ، تقع بين جبلين هى وطبرية ولذلك سميت أحيانًا الغور ، انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، جـ١ ، ص١٧٠ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ١ ، ص٥٢٧ .

٢- ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص٢٥٤-٢٥٥ .

٣- أبوشامة : الذيل على الروضتين ، ص١٠١ .

هذا وقد اختلف كل من المقريزى وابن واصل وأبوشامة بشأن موضوع إضرام العادل النيران فى بيسان. فلو أنه قد فعل ذلك لما طمع الفرنج فى نهب المدينة والاستيلاء على الغنائم والأسلوب التى بها ، ولما تمكنوا من مواصلة تقدمهم نحو بانياس ولكنه قرر الانسحاب نظراً لعدم تكافؤ جيوشه مع جيوش الفرنج. انظر:

ابن واصل : مفرج الكروب، ج٣ ، ص٢٥١، المقريزى : السلوك، ج١ ، ق١ ، ص١٨٦ .

لعبه الجنوية بصفة خاصة وباقى المدن الإيطالية بالشرق بصفة عامة رغم أهميته، ولكن كاميللو مانفروتى Camello Manvroty ذكر أن وثائق أرشيفات جنوة وفرنسا قد كشفت النقاب عن دور جمهوريات المدن الإيطالية فى ذلك الصراع [١]. وقد أدرك كل من الملك أندرو الثانى والملك هيو ملك قبرص صعوبة البقاء فى الشام، خاصة بعد الغارة الفاشلة التى قامت بها بعض فرق الحملة الهنغارية على سهل البقاع عام ١٢١٨م / ٦١٥هـ. ولذا قررا العودة إلى بلديهما، ولكنهما توجها قبل ذلك إلى طرابلس حيث احتفل بوهمند الرابع بزواجه من ميليسند أخت الملك هيو صاحب قبرص ، وذلك بعد ترمله من زوجته الأولى بلايسانس سيدة جبيل «وقد ذكرت مجموعة» قوانين بيت المقدس أن هذا الزواج قد تم عام ١٢٢٢م / ٦١٩هـ وليس عام ١٢١٨م / ٦١٥هـ [٢]، مما يدل على طول الفترة التى مكثها الملك اندرو فى الشرق أملاً فى حدوث أى تطورات تخدم تلك الحملة وتعمل على إنجاحها . والدليل على هذا أن ليوبولد دون استريا قد آثر هو الآخر البقاء فى الشرق. وكان لزامًا عليه فى نفس العام أن يرحل إلى أوربا بعد الحرج الذى وصلت إليه الحملة ولكنه كان من أكثر الصليبيين المتحمسين لمواصلة القتال فى الشام والاستيلاء على بيت المقدس. فكان لزامًا عليه أن يدعم وجوده بالكثير من الأموال العتاد. ولم يجد من يقف إلى جانبه فى الشام سوى جاى امبرياكو سيد جبيل بسبب حالة الاستقرار الاقتصادى التى تمتعت بها المدينة، مما جعل بعض القادة والأمراء والفرنج، يعتمدون عليها من الناحية المادية أكثر من أية مدينة أخرى. لذلك اقترض ليوبولد مبلغ ٥٠ ألف بيزنت من جاى امبرياكو [٣]، ليدعم موقفه بالشرق ، استكمالاً لاستعداداته ضد المسلمين ، ولم يتأخر جاى عن دفع المبلغ خاصة وأنه كان يعلم أن ليوبولد سيستخدمه فى إعادة استحكامات الكثير من المدن والقلاع الهامة مثل قيسارية [٤]، وقلعة عثليث [٥]. ثم أنه كان من أكثر المقربين إلى

١- مصطفى الكتانى: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى، ص١٣٦ .

٢- Assises de Jerusalem, t . I , p. 325 ; cf, also : Les Seineurs de Giblet Op. cit., t. 4 . p. 308 .

٣- Brehier , Op. cit., p. 122 ; Bruce , Op. cit., p. 134 ; Runciman, Op. cit., t. III, p. 182 .

٤- حسن عبد الوهاب قيسارية ، ص١٨٠-١٨٦ .

٥- عثليت : بفتح أوله وسكون ثانيه وكسر لامه وهو اسم حصن بسواحل الشام، ويعرف بالحصن الأحمر، كان قد فتحه صلاح الدين عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م. أنظر: ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٨٥ .

ليوبلد، وأول من لبى نداءه للانضمام إلى صفوف الحملة الهنغارية لقد كانت تلك الأموال بمثابة دعم مادى ومعنوى للصليبيين، إذ حفزتهم على توجيه المزيد من الهجمات ضد معظم القلاع والحصون الإسلامية بالشام، خاصة بعد أن كلف السلطان العادل ابنه المعظم عيسى بإنشاء حصن على جبل الطور، الأمر الذى أثار حنق الفرنج وتخوفهم. فشنوا العديد من الغارات على المسلمين لشغلهم عن هذا الحصن الذى كان يهدد الكيان الصليبى بأكمله ، بل كان الهدف الأساسى الذى قدمت من أجله الحملة الخامسة .

لقد كان الملك يوحنا دى برين صاحب عكا والملك الأسمى لبيت المقدس غير مقتنع بتلك الجهود المبعثرة التى قام بها الفرنج والمتمثلة فى تلك الحملات المتواضعة والتى لم تعد عليهم إلا بالغنائم والأسلاب دون إحراز نصر كبير لذلك آثر الإعداد لخطة محكمة تهدف حصن الطور، ولم تكن آراء الفرنج مجتمعة على هذا الهدف خاصة وأن الملك هيوواندرو كانا على وشك الرحيل. حقيقة أننا لانعرف على وجه التحديد موقف صاحب جبيل من الملك الصليبى. ولكن من المرجح أنه وافق على المشاركة فى مهاجمة الحصن الذى كان يمثل خطراً على الوجود الصليبى فى بلاد الشام. وعلى هذا فقد اتجهت قوة صغيرة إلى حصن الطور وهاجمته على حين غفلة فى ٢٠ من نوفمبر ١٢١٧م ١٨ من شعبان ٦١٤هـ . وضربت حوله حصاراً شديداً ولولا استماتة المسلمين الذين بداخله فى الدفاع عنه ، لتمكن الفرنج من الاستيلاء عليه، وقد قتل عدد كبير من المسلمين والصليبيين فى هذا الحصار [١]، ووقع عدد كبير من أطفال المسلمين أسرى فى قبضة جاك دى فترى Jaques de Vitry ورادلف Radulph بطريرك بيت المقدس اللاتينى اللذين قاما بتعميدهم ، مما يدل على التزمت الدينى عند الصليبيين وارتباط الناحية التبشيرية بالفكرة الصليبية العسكرية خلال القرن الثانى عشر الميلادى / القرن السادس الهجرى[٢].

١- Olivar of Padenborn, The Capture of Damietta, p. 16 .

أنظر أيضاً : ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٥٧ ، أبوشامة : الذيل على الروضتين ، ص١٠٢-١٠٣ .

٢- جوزيف نسيم يوسف : العرب الروم واللاتين ، ص٦٩-٧٠ .

ولم يكتف الصليبيون بهذا الفشل الذى حل بهم، بل قاموا أيضًا بمهاجمة صيدا بعد عودتهم من حصن الطور ولم يكونوا أسعد حظًا، إذ أبادهم المسلمون قتلاً وأسرًا [١]. وهنا أدرك الملك أندرو أنه لاخير ولامنفعة من بقائه بعد هذا الفشل الذريع الذى ألم بحملته والنتائج الضئيلة التى حققتها. فغادر الشام عائدًا إلى أوربا، وتفرق بعد هذا شمل الفرنج خاصة بعد وفاة هيو ملك قبرص بطرابلس .

لقد شهدت تلك الفترة قدرًا من الاضطراب والضعف داخل مملكة العادل. فقد تقدم به السن، وصادف متاعب كثيرة فى حلب، حيث الصراع على العرش بين الأفضل أكبر أبناء صلاح الدين ، والطواشى طغرل الوصى على عرش حلب، فى الوقت الذى اشتدت فيه قوة السلاجقة الذين كانوا يساعدون الأفضل ضد الملك العادل مما جعل العادل وابنه يأملان فى تجميد الموقف على هذا الوضع، وألا يوجه الفرنج مزيدًا من هجماتهم ضد المسلمين فى هذه الفترة الحرجة من تاريخهم ، فى الوقت الذى كان فيه الصلبيون يواصلون تعزيز استحكامات قيسارية وعثليت، الأمر الذى شكل خطورة كبيرة على المسلمين. فبدأوا فى شن هجوم متواصل على قلعة عثليت والتى لم تكن تقل فى أهميتها عن حصن الطور الذى شيده المسلمون من قبل[٢]. وكان الصليبيون ينتظرون قدوم الحملة المرتقبة إلى الشرق . هذا، بالإضافة إلى سعيهم لإعداد الترتيبات اللازمة للمشاركة فيها. ولقد ساهمت جبيل مساهمة فعلية فى هذا الإعداد، حيث يشير المؤرخ «سيتون» أن جاى امبرياكو أمد الصليبيين المجتمعين بعكا بالكثير من العتاد والأموال . فقد كان يعد من أخطر بارونات سوريا على الإطلاق ، ومن أكثرهم تأثيرًا فى الوجود الصليبى[٣]. وقد أكد المؤرخ هذا بقوله «أن جاى امبرياكو من أثرى بارونات الفرنج وأكثرهم تأثيرًا فى تلك الأحداث[٤].

ولقد منح هيو امبرياكو الابن الأصغر لجاى ، الاسبتارية فى طرابلس هبات عظيمة وأموالاً كثيرة وسجلت تلك الهبات والأموال على نقش كبير يحمل صورة امبرياكو . وقد وجد هذا

١- Estoir d' Eracles, p. 324 .

وأيضًا : أبوشامة : الذيل على الروضتين ، ص١٠٢ .

٢- حسن عبد الوهاب : قيسارية، ص١٨٥ .

٣- Setton, Op. cit., t. II, p. 412 .

٤- Bruce, Op. cit., p. 134 .

النقش على هيئة نجمة لها ثمان نقاط وهو الختم الذى كان يمثل شعار أسرة امبرياتشى داخل مدينة جبيل. وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على السطوة الاقتصادية التى مارستها جبيل على باقى الفرنج بالشام. وقد ذكر المؤرخ بروس أيضًا أن آل امبرياتشى كانوا من أخلص الأسر الفرنجية فى الشرق، وأنهم قد اندمجوا فى المجتمع الفرنجى، وأثروا فيه تأثيرًا كبيرًا. فمنذ أن حضر جاك دى فترى إلى جبيل للدعوة إلى الحملة الخامسة ، لم يجد صعوبة تذكر فى استحواذ مشاعر تلك الأسرة للاشتراك فى صفوف الصليبيين المجتمعين فى عكا لحمل الصليب المقدس تحت إمرة بوهمند الرابع صاحب طرابلس(١)، وجدير بالذكر أن بروس وهو الكاتب الفرنجى ، إنما يعبر عن الأحداث من وجهة نظر غربية بحته، إذ يبدو تعاطفه واضحًا مع بنى جنسه من اللاتين . ولعل اشتراك جبيل فى الحملة الخامسة تحت قيادة بوهمند الرابع يوضح أنها كانت الابنة المقربة، والحليف القوى لكونتيه طرابلس فى كافة الأحداث التى اشتركت فيها طرابلس منذ باكورة الحملات الصليبية وحتى ذلك الحين، إذ ستتغير العلاقات بينهما فيما بعد .

ومن بين الأسباب التى جعلت جبيل تشارك فى تلك الحملة هو أنها ربما تكون قد تعرضت لبعض الهجمات من قبل قوات المسلمين بقيادة المعظم عيسى مثلما تعرضت قيسارية وعثليت وغيرهما . فقد كانت خطة العادل أنذاك هى مهاجمة الصليبيين فى كل موقعهم ومعاقلهم بالشام حتى يشغلهم عن مهاجمة مصر، وعلى أية حال، فقد توافدت الجيوش القادمة من أوربا على عكا فى ٢٦ إبريل ١٢١٨م / ١٧ من محـــرم ٦١٥هـ، إذ وصلت نصف قطع أسطول الفريزين(٢). كما تواترت الأنباء أن بقية الحملة فى طريقها إلى عكا . ثم وصلت أعداد كبيرة من الهنغاريين والإسكندنافين والنمساويين وجميعهم مدربون على استعمال السهام والمنجنيقات(٣)، استعدادًا للصمود أمام هجمات المسلمين أو التصدى لحصار طويل. وقد أدرك

١- Bruce, Op. cit, p. 135 .

٢- فريزيا : إحدى المدن التى انقسمت إليها الإمبراطورية الرومانية بعد موت شارلمان حيث كونت فريزيا ولوثار وبرجنديا ولمبارديا وبقية إيطاليا من بحر الشمال إلى البحر المتوسط القسم الثالث من الإمبراطورية. أنظر جوزيف نسيم الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى ، ص١٣٦ .

٣- المنجنيق : آلة حربية تستخدم لرمى الحجارة وهى من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التى يوضع فيها الحجر يجذب حتى أسافله على أعاليه ثم =

المسلمون خطورة موقفهم خاصة عندما سمعوا بتوجه الحملة إلى مصر. وكانت مصر آنذاك هى معقل القوى الإسلامية وقلبها النابض بالحركة والحياة، ومركز إمدادها بالمال والرجال والمؤن والسلاح .

وسوف نتناول أحداث تلك الحملة بإيجاز شديد بما يسمح بإبراز الدور الذى لعبته جبيل فيها. ذلك أنه بعد أن تقدم الملك العادل لتجهيز جيوشه بالشام، قام ابنه الكامل وتوجه من القاهرة تجاه دمياط، إذ كانت دمياط هى مفتاح مصر ، ولذلك جهز الصليبيون مؤنًا تكفيهم أكثر من ستة أشهر رغم أن الوصول لدمياط لايتعدى بضعة أيام ، مما يدل على ضخامة استعدادهم لمواجهة أى خطر(١).

وعلى هذا تقدم الملك العادل وعسكر فى العادلية(٢) فى حين استقر الفرنج بجيزة دمياط فى المنطقة المقابلة للمدينة وتقدم الأسطول المصرى واستقر فى شارمساح(٣)، ولم يعط المسلمون لهذه الأحداث الأهمية الكافية والاستعداد اللازم مما مكن الفرنج بعد طول صراع مع المسلمين من احتلال برج دمياط (٢٤ من جمادى الأولى ٦١٥هـ / ٢٤ من أغسطس ١٢١٨م) وتوفى

= يرسل فيرتفع الذنب الذى فيه الكف فيخرج الحجر منه، فما أصاب شيئًا إلا هلكه . ومما يلتحق بالمنجنيق الزيارات وهو اللوالب والحبال التى يجذب بها المنجنيق حتى ينحط ليرمى به الحجر. أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى ، ج٢ ، ص١٣٦-١٣٧ . وآلة المنجنيق هذه مختلفة الأصناف متباينة التراكيب ، فمنها الفرنجى ومنها الفارسى والتركى ومنها العربى وهو أفضلها من حيث الصناعة والإتقان وهناك آلة مصغرة من المنجنيق تسمى اللعب وهى تستخدم للرماية. أيضًا : أنظر ابن منكلى: الأحكام ، لوحة ٢٣-٢٥ . راجع أيضًا :

Cahen, Un Traite d' Armurerie Compose Pour Sladin , p. 16 .

١- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج١٢ ، ص٣٥٠ .

٢- العادلية : هى من القرى القديمة التى أسسها الملك العادل بن أيوب فى ٦١٤هـ / ١٢١٧م عندما تتابع ورود الامدادات للفرنج بالشرق زمن الحروب الصليبية وبدأوا يهددون مدينة دمياط. وهى تقع بين دمياط وفارسكور على الضفة الشرقية للنيل فى مقابل قرية بورة. أنظر : معجم البلدان، ج٣ ، ص٣٠٨ .

٣- هى قرية كبيرة كالمدينة بمصر بالقرب من دمياط ، وهى من كور الدقهلية . أنظر: ياقوت الحموى : معجم البلدان، ج٣ ، ص٣٠٨ .

الملك العادل مجرد سماعه هذه الأنباء [١]. أما عن دور جبيل في حصار دمياط فهذا ما لم تتحدث عنه المصادر من عربية ولاتينية . ولكن نستشف من الأحداث التي شارك فيها كافة الأمراء الفرنج بأن صاحب جبيل كان ضمن هؤلاء القادة وإن كان لايوجد أى سند أو دليل على هذا الرأى.

وقد تقهقر الجيش المصرى بعد وصول المندوب البابوى الكاردينال بيلاجوس Pelagius وحدوث مؤامرة ابن المشطوب [٢]. مما مكن الفرنج من محاصرة العادلية وعزلها. ورغم أن الكامل والمعظم حاولا استرجاعها إلا أنهما لم يتمكنا من ذلك، وبقى الصليبيون بالعادلية إلى أن سقطت مدينة دمياط نفسها فى أيدى الفرنج فى ٢٥ من شعبان ٦١٦هـ / ٥ نوفمبر ١٢١٩م [٣].

وقد رد المعظم عيسى على هذا بأن توجه إلى بلاد الشام وشن هجومًا عنيفًا على مدن قيسارية وعثليت . وكان هدفه من وراء تلك الهجمات هو شغل الفرنج عن ملك مصر وتوجيه اهتمامهم نحو بلاد الشام [٤]، وفى خضم هذه الأحداث شعر الطرفان بضرورة عقد الصلح خاصة عندما قرر الملك جان دى بريين العودة إلى عكا. ومعه عدد كبير من الفرسان الصليبيين وذلك فى عام ١٢٢٠م/ ٦١٧هـ .

١- فى وفاة الملك العادل: أنظر البغدادى : عيون الأخبار، ج٢، ورقة ٤١٠ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٨٩ ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، لوحة ٢١ ، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، ج١٢ ، ص٣٥٠ وأيضًا: Grousset, Op. cit., t. III, p. 222 .

٢- ابن المشطوب : هو أحد الأمراء الهكاريين، وأحد القواد التابعين للملك الكامل . وقد تآمر ضده على أن يتم خلعه ويتولى أخوه الملك الفائز ، حيث كان صبيًا لايتأتى منه بشر، وقد تسربت أنباء تلك المؤامرة للملك الكامل ، غير أنه لم يستطيع القيام بعمل إيجابى ضد المتآمرين لعظم مكانتهم بين العساكر من جهة ، ولتربص الفرنج من جهة أخرى، فأضطر للاستنجاد بأمراء البيت الأيوبى، أنظر : أبوشامة : الذيل على الروضتين ، ص١١٦ .

٣- ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : جـ١٢ ، ص٣٢٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٥ ، ص٣٣٠، ابن أيبك : درر التيجان ، ص٦٩٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية، جـ١٣ ، ص٩٥ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين، ورقة ٩٨ ، البغدادى : عيون الأخبار، ج٢ ، ورقة ٤١٠ .

٤- Oliver of Padenborn, Op. cit., pp. 58-59 ; Estoire d'Eracles, p. 344 .

لقد كان أبرز دور أدته جبيل فى هذا الصراع هو ما ذكرته المصادر المعاصرة من أن صاحبها جاى امبرياكو هو الذى أوفد على رأس السفارة المرسلة إلى الملك الكامل محمد للتفاوض معه على شروط الصلح مقابل انسحاب الفرنج من دمياط (١). ولعل هذا يؤكد أهمية الدور الذى قام به الجنوية بصفة عامة وآل امبرياتشى بصفة خاصة، أما سعيًا وراء المزيد من الامتيازات بمصر والشام تسهيلاً لتجارتهم آنذاك، وإما حبًا فى الجهاد المقدس وسعيًا مخلصًا لدعم القوة الصليبية. ويعد إرسال جاى للتفاوض مع الكامل الإشارة الوحيدة والصريحة لدور المدينة فى الحملة الصليبية الخامسة.

وفى خضم هذه الأحداث وأثناء تغيب جاى امبرياكو عن جبيل تعرضت المدينة لهجوم عنيف من قبل قوات الأمير ريموند روبين وريث عرش أنطاكية ، ذلك لأنها كانت الحليف القوى لبوهمند الرابع كونت طرابلس ومغتصب عرش أنطاكية من الوريث الشرعى ريموند . واضطر ريموند روبين للتوجه إلى مصر وطلب المساعدة من الكاردينال بيلاجيوس ضد بوهمند ، والغريب أن بيلاجيوس أمده بالأموال والعتاد لمهاجمة كونت طرابلس، ولكنه هاجم مدينة جبيل ولم ينقذها منه سوى الاسبتارية الذين كافأهم بوهمند على هذا بالكثير من الهبات والأملاك وقبض على ريموند وزج به فى السجن إلى أن مات وانتهت مطالبته بعرش أنطاكية (٢). وجاء فى بعض الروايات أن مدينة جبيل كانت طرفًا فى المفاوضات بين المسلمين والصليبيين إذ ورد أنه من بين شروط الصلح المقدمة من جاى امبرياكو للملك الكامل أن الصليبيين قد تفاوضوا مع الملك الكامل على تسليم دمياط مقابل حصولهم على مدينة جبيل (٣). وفى هذه الرواية خلط بين جبله وجبيل، لأنه من المعروف أن مدينة جبيل كانت بالفعل فى أيدى الصليبيين ولكن جبله هى التى كانت لاتزال بأيدى المسلمين وهى التى حاول الفرنج مرارًا أن يستحوذوا عليها. وهذا ما أكده المؤرخ الفيومى فى مخطوطه «نثر الجمان» فقد ذكر «أنه عام ٦٢٨هـ / ١٢٢٨م قصد الفرنج مدينة جبله وغنموا وسلبوا الكثير»(٤). وقد أخذ المؤرخ الفرنسى رينو برواية الفيومى

١- Estoire d'Ercles, Op. cit., p. 351 .

راجع أيضًا : مصطفى الكنانى: العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى، ص٢٤ ، ١٣٦ .

٢- Oliver of Padenborn, Op. cit., p. 63 ; Estoire d'Eracles, p. 347 .

٣- Reinaud, Op. cit., p. 413 ; Histoire des Princes d'Antioche, in R.O.L., t. 4 , p. 385 .

٤- الفيومى : نثر الجمان. القطعة الثانية ، ورقة ٢١ .

ولكنه تصور أنها جبيل وليست جبلة التى كانت محور الصراع بين الصليبيين والمسلمين إبان هذه الفترة . ونستشف من هذه الأحداث أن مدينة جبيل كانت مركزًا للصراع الفرنجي آنذاك، وأن كونت طرابلس كان بمثابة القائد الأعلى للمدينة فى غياب صاحبها جاى امبرياكو . مما يدل على مدى الترابط العسكرى بين جبيل وكونتيه طرابلس وقتذاك .

على أية حال ، لقد تقررت الهدنة بين الطرفين: الصليبى بقيادة بيلاجيوس الذى أصبح هو المهيمن على كل أمور الحملة آنذاك بسبب رحيل جان دى برين إلى عكا ، والطرف الإسلامى بقيادة الملك الكامل محمد، على أن يتبادل الطرفان الأسرى، مع عدم اعتداء أى منهما على الطرف الآخر. إلا أن الملك الكامل حاول استغلال حالة التراخى والكسل التى عاشها الصليبيون آنذاك، وشن هجومًا قويًا على دمياط أملاً فى استخلاصها من الفرنج ووقف زحفهم نحو مصر. واستكمل الكامل استعداد جيوشه لهذا الهدف فى الوقت الذى التزم فيه جان دى برين بسياسة المهادنة مع الدفاع .

ولكن حدث فجأة اضطراب كبير داخل المعسكر الصليبى، خاصة بعد رحيل الكثير من قادة الفرنج وزعمائهم، ومعهم عددهم وعتادهم . وفى تلك الأثناء أعلن البابا هونوريوس الثالث أن الإمبراطور فردريك الثانى سوف يشارك فى هذه الحملة. وكان الإمبراطور قد وعد قبل ذلك بالمجئ إلى الأراضى المقدسة أكثر من مرة ولكنه لم يف بوعده ، وكان يتعلل فى كل مرة، وبدأ فى مساومة البابا منذ عام ١٢١٥م / ٦١٢هـ على أن يتوجه إمبراطورا مقابل المشاركة فى الحملة وبعد ذلك أخذ فريدريك يرتب أمور دولته فى ألمانيا وصقلية ، قبل الإبحار إلى بلاد الشام . والمعروف أنه نكث الوعود التى بذلها لكل من أنوسنت الثالث وهونوريوس الثالث بالحضور إلى الأراضى المقدسة. وقد أدى هذا التراخى من قبل فردريك إلى قيام النزاع بين القادة الصليبيين وبعضهم البعض حين أعلن البابا مجيئه (١).

ولكن مع منتصف عام ١٢٢٨م / ٦٢٥هـ قرر الإمبراطور فردريك أخيرًا المجئ إلى الشرق ليضيف للتاريخ حملة أخرى، وهى التى عرفت بالحملة الصليبية السادسة . ولم يتلق أمراء الفرنج بالشام خبر مقدم فردريك بالسرور، فمنذ أن وصل الإمبراطور إلى قبرص حتى بدأ الصراع بينه وبين آل إبلين (٢)، حيث كان يزعم لنفسه حق فرض سيطرته على قبرص ، لأن

١- Les Gestes des Chiprois , R. H. C. Doc. Arm, t. II, p. 677 .

٢- Livre de Jean d'Iblin, in Assises de Jerusalem , t. I, p. 325 .

والده الإمبراطور هنرى السادس هو الذى كان قد توج الملك عمورى الثانى Amury ملكًا على كل من الجزيرة وبيت المقدس من قبل (١). وادعى فردريك لنفسه حق الوصاية على عرش قبرص من هذا المنطلق ، كما طالب أيضًا بمدينة بيروت ، مما أثار حنق يوحنا إبلين ورفض مطالبه، الأمر الذى عجل بقيام صراع عنيف بينه وبين الأمراء الفرنج . ولكن حرصًا على الكيان الصليبى الذى بدأ فى التداعى آنذاك ، تم التنازل عن عرش قبرص لفردريك . أما مشكلة بيروت ، فقد أرجئ أمرها لتعرض على المحكمة الصليبية العليا. أما عن موقف جاى امبرياكو صاحب جبيل من هذه الأحداث ، فالمعروف أنه كان نصيرًا قويًا لفردريك ، وذلك لحنقه الشديد على آل إبلين (٢). بعد ذلك استدعى الإمبراطور فردريك جميع الأمراء للقاء به فى قبرص . وبالفعل توجه إليه فى أغسطس ١٢٢٨م / شعبان ٦٢٥ هـ كل من جاى امبرياكوو صاحب جبيل وباليان سيد صيدا. وقد اقترض فردريك مبلغًا كبيرًا من المال من صاحب جبيل حتى يدعم استعداداته العسكرية. ويدل هذا على خطورة الدور الذى لعبته جبيل فى تحقيق مصير الكثير من الأحداث الهامة التى عاشها الفرنج آنذاك .

ثم اتجه فردريك بعد ذلك إلى عكا ، فى حين أسرع يوحنا إبلين إلى بيروت لتحصينها ضد أى محاولة من قبل الإمبراطور فردريك للاستيلاء عليه. ولم يهتم فردريك بأمر بيروت، خاصة عندما بلغه حرمان البابا له من الكنيسة لتوجهه إلى الشام قبل أن يحل نفسه من قرار الحرمان السابق . كما واجه فردريك بعض الصعوبات داخل المعسكر الصليبى، لأن العدد من كبار الداوية والاسبتارية آثروا عدم الانضمام إليه بسبب حرمانه من رحمة الكنيسة . ولم يحبذوا السير فى ركابه أو تقديم العون له، فلم يكن له من معين سوى الفرسان التيوتون . وقد ضاعف من قلق الإمبراطور فردريك، وصول أنباء تفيد وقوع اضطرابات داخل إمبراطوريته وعدم قدرة نائبه رينالد دى سباليتو Rinald de Spaletto فى قمعها . لذلك وقع فردريك فريسة القلق والصراع النفسى بين الهدف الذى قدم من أجله وبين حرصه الشديد على إقرار الأمور داخل إمبراطوريته . لذلك آثر مراسلة الملك الكامل فى طلب الصلح وعقد الهدنة بينهما. وقد حرص فردريك على مراسلة الكامل بأسلوب دبلوماسى رائع أكثر منه عسكرى.

١- Livre de Philippe de Navarre, in Assises de Jerusalem, t. I, p. 545 .

٢- Assises de la Haute Cour, in Assises de Jerusalem , t. I, p. 488 ; Richard , Op. cit., vol , I , p. 233 ; Setton , Op. cit, vol , II, p. 544 ; Grousset , Op. cit, t. III, p. 276 .

على أنه سرعان ما اشتد الصراع داخل البيت الأيوبى نفسه. ذلك أن المعظم عيسى صاحب دمشق بدأ يحقد على أخيه الملك الكامل محمد، وبدأت تساوره الشكوك فى أن الكامل والأشرف يتفقان ضده وأنهما سيقومان بالاستيلاء على أملاكه ، الأمر الذى جعل المعظم يطلب المساعدة من جلال الدين خوارزم شاه، بينما طلب الملك الكامل من فردريك مساعدته ضد أخيه المعظم وإقرار الصلح [١]. بل أنه عرض على الإمبراطور استعداده لتسليم القدس إليه مقابل تلك المساعدة . ولكن المعظم عيسى توفى فجأة فى أواخر ذى الحجة ٦٢٤هـ/ ١١ من نوفمبر ١٢٢٧م، فى الوقت الذى ارتفعت فيه الروح المعنوية للصليبيين بسبب ما حدث من تفكك داخل البيت الأيوبى[٢]. وتعثرت المفاوضات بين الطرفين . لقد انتهز الكامل فرصة موت المعظم واتجه إلى الشام ليستولى على أملاك أخيه من ابنه الناصر داود. وبالفعل تمكن من وضع يده على بيت المقدس ونابلس. وعلى الرغم من استنجاد الناصر داود بعمه الأشرف ضد الكامل[٣]، إلا أن الأخوين اتفقا على أن يستوليا على ممتلكات المعظم. فهرب الناصر إلى دمشق واحتمى بصاحبها الملك الصالح اسماعيل . وهنا شعر الملك الكامل بالأسف لمقدم فردريك فى تلك الآونة التى تمكن فيها من تحقيق حلمه بالاستيلاء على معظم بلاد الشام، وخاصة وأن الخوارزمية سلكوا موقفًا سلبيًا من الناصر ولم يؤيدوه ضد عمه الكامل . ولكن بوصول الأخبار من دمشق ضد الكامل، أصبح الملك الكامل فى حيرة من أمره . فهو يخشى أن ينقلب فردريك ضده وينحاز إلى جانب الناصر والصالح إسماعيل خاصة وأنه لم يكن موضع ثقة أى من القادة المسلمين أو الصليبيين آنذاك لذلك آثر الكامل استكمال الجهود لإقرار الصلح، وقد تلاقى الطرفان الكامل وفردريك فى رغبة واحدة هى عدم العودة للقتال، خاصة وأن الملك الكامل كان بحاجة إلى فترة من الهدوء تمكنه من توحيد الصف داخل البيت الأيوبى. وتوصل الطرفان إلى عقد اتفاق يافا فى ١٨ من فبراير ١٢٢٩م/ ٢٢ من ربيع الأول ٦٢٦هـ، حيث كان من أهم شروطهم تسليم الفرنج بيت المقدس وبيت لحم والشريط الذى يمتد من اللد إلى يافا

١- ابن واصل : مفرج الكروب، ج٤ ، ص٢٠٦ ، ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧ ، ص١٩٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣ ، ص١٢٣ .

٢- ابن كثير: البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٣ .

٣- الفيومى : نثر الجمان، القطعة الثانية ، ص١٢٤ .

على البحر وكذلك الناصرة وغرب الجليل وبعض الأراضى حول صيدا، وأن تكون مدة الاتفاق عشر سنوات [١]، تنتهى عام ١٢٣٩م / ٦٣٧هـ .

لقد كانت تلك الشروط طعنة وجهت إلى المسلمين ونجاحا لفردريك حيث تمكن أن يحقق سلمًا ما فشلت فيه الكثير من الحملات الصليبية العسكرية، فى حين امتعض باقى الأمراء الفرنج بما حققه فردريك من نجاح، ولم يتلقوا نبأ الحصول على بيت المقدس إلا بكل استياء ، بل أن أحدًا لم يطلب رفع قرار الحرمان عن فردريك رغم كل هذه الإنجازات التى حققها بالنسبة *للهدف الصليبى العام*[٢].

وقد قرر فردريك بعد ذلك العودة إلى بلاده ، واصطحب معه أصدقائه الأربعة وهم هيو ابن جاى امبرياكو Huge ، وجافين شينشى Gavin Shinshy ، وعمورى سيد بيسان Amaury، ووليم سيد ريفته William Rivet، حيث توجه إلى قبرص . وعين هؤلاء نوابًا عنه على الجزيرة، وعلى رأسهم املريك بارليس Amalric Barlais . وقد أثرنا التعرض للصراعات القائمة بين الفرنج فى قبرص وبلاد الشام ، وذلك لأن مشاركة هيو ابن صاحب جبيل فيها على أنه أحد نواب فردريك بقبرص [٣]، قد أثر على الأحوال السياسية لمدينة جبيل. إذ وجهت المدينة شطرًا كبيرًا من جهودها لتعضيد هيو امبرياكو فى صراعه ضد آل ايلين ، مما أثر على علاقة جبيل فى صراعها مع المسلمين . إذ صمتت المصادر ، من عربية ولاتينية، عن ذكر أى مناوشات بين صاحب جبيل وباقى المسلمين ببلاد الشام. بل أشارت تلك المصادر بإسهاب عن دور جبيل فى صراعها ضد الفرنج بقبرص وبلاد الشام. ورغم أن هذا الصراع قد يبدو خارجًا عن موضوع هذا البحث الذى يركز على العلاقات الصليبية الإسلامية، إلا أنه يثير لدينا احتمالاً بوجود

١- حول تسليم الفرنج بيت المقدس انظر : أبوشامة : الذيل على الروضتين ، ص١٥٤ ، ابن أيبك : كنز الدرر، ج٧ ، ص٣٤٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١١٨ ، السلامى : مختصر التواريخ ، ورقة ٦٣، وأيضًا : محمود فهمى: البحر الزاخر ، ج٣، ص٢٦٤ . أنظر أيضًا :

Annles de Terre Sainte, A. O. L., t. II, p. 438 ; cf . also : Grousset , Op. cit., t . III, p. 290; Richard , Op. cit., vol . I , 257 .

٢- Runciman , Op. cit., vol . III, pp. 196-7 .

٣- Assises de la Haute Cour, in Assises de Jerusalem , t. I, p. 488 ; cf. also : Grousset, Op. cit., t. III, p. 290 .

علاقات ودية بين جبيل والمسلمين آنذاك حتى تتفرغ المدينة لتعضيد نواب فردريك داخل جزيرة قبرص، وإن كان لايوجد تحت أيدينا سند تاريخي يؤكد هذا الاحتمال .

على أية حال ، كانت سلالة امبرياشي تعد حليفًا قويًا للإمبراطور فردريك ومن ألد أعداء آل ابلين، ولذلك كثيراً ما ساندته فى صراعه الدائم ضدهم. غير أن ما حققه فردريك من نجاح لم يعد على مملكة بيت المقدس أو قبرص إلا بالمزيد من الاضطرابات والحروب الأهليـة المريرة وذلك أن بيت المقدس أضحت بحاجة ماسة إلى تأمين حدودها، وخاصـة المنطقة المؤدية إلى الساحل التى أصبحت مسلكًا سهلاً للمسلمين يشنون إغارتهم عليها فى أى وقت ، بل كثيراً ما أتيحت للكامل الفرصة فى استعادة بيت المقدس. أما فى قبرص فقد نشبت الحرب الأهلية بين نواب فردريك وبخاصة بين هيو امبرياكو وآل ابلين [١]، الذين سعوا إلى توطيد مركزهم فى قبرص بمجرد رحيل الإمبراطور الألمانى، ولكن فردريك أرسل إلى نوابه يطلب منهم طرد كل فرد من أسرة إبلين، وقد عاملهم أماريك ونوابه معاملة سيئة ، ولما كانوا بحاجة إلى الأموال لإرسالها إلى فردريك ، لذا قاموا بمصادرة أملاك الإبلين وفرضوا ضرائب باهظة عليهم وعلى من يناصرهم فى قبرص ، وازداد الأمر سوءًا عندما تدخل فيليب دى نافار Philippe de Navarre لفض النزاع القائم، أصر نواب الإمبراطور على حضور فيليب إلى نيقوسيا للتباحث فى عقد معاهدة صلح مع الإبلين ولكن بمجرد وصول فيليب ألقى القبض عليه غير أنه تمكن من الهرب واتجه إلى احدى قلاع الاسبتارية، حيث أرسل إلى يوحنا ابلين وأبلغه بما جرى من نواب الإمبراطور ، وكان فيليب هذا صديقًا حميمًا لآل ابلين وعلى هذا أعد يوحنا إبلين جيوشه وتوجه إلى قبرص حيث التقى الطرفان ودارت بينهما معركة كبيرة انهزم على أثرها نواب فردريك فى يوليو ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ وفروا هاربين . غير أن يوحنا اقتفى أثرهم وتمكن من القبض على هيو امبرياكو أما جافين شينشى ووليم ريفنه فقد لقيا مصرعهما فى تلك المعركة، ولم يلحق بهيو امبرياكو أى أذى من قبل يوحنا بل منحه الأمان، الأمر الذى استاء له كل أنصار الإبلين الذين أرادوا الانتقام منه لما اقترفه ضد الإبلين[٢].

ولقد شاركت جبيل كثيراً فى هذه الأحداث، حيث وقفت إلى جانب الإمبراطور ونوابه، وكثيراً ما أرسلت المؤن والعتاد من جبيل إلى قبرص لتدعيم جانب هيو امبرياكو ومن معه ضد

١- Assises de la Haute Cour , Op. cit., pp. 488-489 .

٢- Grousset , Op. cit., t. III, pp. 328-329 .

آل إبلين، وساءت العلاقات بين فردريك وأمراء الشرق الفرنجي بأجمعهم خاصة بعد مقدم نائب فردريك ريتشارد فيلانجيرى Richard Filangiry إلى بلاد الشام وصراعه ضد آل إبلين (١).
ومن ناصرهم من الأمراء الفرنج، في الوقت الذي توفى فيه بوهمند الرابع كونت طرابلس عام ١٢٣٣م / ٦٣٠هـ . وتولى بعد ابنه بوهمند الخامس . وقد لعبت مدينة جبيل دوراً خطيراً ضد المسلمين منذ تلك اللحظة ، مستغلة هى وطرابلس أنهما لم يكونا ضمن الهدنة إلى عقدها الملك الكامل محمد مع الإمبراطور فردريك الثانى ففى عام ١٢٣٧م / ٦٣٤هـ أرسل بوهمند أخاه هنرى مع كتيبتين من عكا لمساعدة الاسبتارية فى شن هجوم على قلعة بعرين(٢) التابعة للمسلمين ، فى نفس الوقت الذى قام فيه جاى امبرياكو ومعه وليم مونتفرات مقدم الداوية William Montefrat بمهاجمة قلعة دربساك(٣) التابعة للمسلمين أيضاً . وقد قاومت كل من بعرين ودربساك هذا الهجوم ، كما وصلت إمدادات ضخمة من حلب تمكن المسلمون بها الحاق الهزيمة بوليم وجاى امبرياكو(٤).

لقد كان المسلمون فى تلك الفترة يؤثرون السلم والهدوء، وعلى الرغم من المحاولات الاستفزازية التى كان يقوم بها الفرنج وفى مقدمتهم حكام جبيل . إلا أن تزايد خطر الخوارزمية فى شمال الشام وانقلاب سلاجقة الروم فجأة ضد الكامل ، أديا إلى اشتداد الصدع داخل البيت الأيوبى نفسه. فقد ثار الأشرف موسى بشمال الشام ضد الملك الكامل محمد فى مصر، وانقسم البيت الأيوبى إلى أحزاب ضد بعضهم البعض فى فترة حرجة من تاريخهم إلى أن توفى الملك الكامل فى ٢١ من رجب ٦٣٥هـ / ١٠ من مارس ١٢٣٨م، وخلفه ابنه الملك العادل الثانى(٥). وقد أثرت تلك الظروف السيئة التى مرت بها الدولة الأيوبية على

١- Les Gestes des Chiprois , Op. cit., p. 711 ; Annales de Terre Sainte, pp. 438-39 .

٢- بعرين : هى بلد بين مدينة حمص والساحل . ويتلفظ به العامة بعرين وهو خطأ وأنما بارين، أنظر : ابن اسحق الفارسى: المسالك والممالك، ص٦١ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان، جـ١ ، ص٤٥٢ .

٣- دربساك : أحد الثغور الساحلية الجبلية ببلاد الشام. الدمشقى: نخبة الدهر وعجائب البر والبحر ، ص٣٠٦ .

٤- Les Gestes des Chiprois , Op. cit., p. 725 ; Estorie d'Eracles, p. 404 .

٥- عن وفاة الملك الكامل أنظر: الصفدى: الوافى بالوفيات ، جـ٣ ، ق١ ، ص١٠٧ ، الذهبى : تاريخ الإسلام، القطعة الثانية ، ص٢٩ ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، لوحة ٥٥ ، ابن أيبك : كنز الدرر، ج٧، ص٣٢٩ .

علاقاتها بالصليبيين فى الشام. إذ بدأ المسلمون يتجهون إلى إصلاح شأن الدولة الأيوبية ومحاولة القضاء على كل مظاهر التفتت التى استفحل أمرها فى المشرق الإسلامى، دون الخوض فى معارك حاسمة ضد الفرنج وضد العدو التقليدى جاى امبرياكو صاحب جبيل .

أما فى داخل المملكة الصليبية ، فعلى الرغم من حدوث تقارب شديد بين كل من طرابلس وجبيل وجزيرة قبرص، وذلك بزواج بوهمند الخامس ابن بلاسيانس سيدة جبيل من أليس Alice أخت الملك هيو صاحب قبرص، إلا أن بوهمند قام فجأة بخطبة لوسيا ابنة الكونت بولس الثانى Paule II، مما أدى إلى قيام أزمة فى العلاقات بين هذه الأطراف الثلاثة. وفقدت جبيل من جراء هذا الكثير من الامتيازات التجارية التى كانت تتمتع بها داخل قبرص . وأيضاً نظراً لاحتجاج امبرياكو على هذا التصرف من قبل بوهمند تأثرت علاقة جبيل بكونتية طرابلس وفقد آل امبرياتشى بعض الممتلكات والعقارات داخل المدينة[١].

وفى غمرة هذه الأحداث كانت هدنة الملك الكامل والإمبراطور فريدريك على وشك الانتهاء فبادر البابا جريجورى التاسع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١م- ٦٢٤-٦٣٨هـ) بارسال مندوبين إلى ملكى فرنسا وانجلترا للدعوة إلى حرب صليبية جديدة تعوض ما فشلت فيه الحملتان الخامسة والسادسة. ولم تكن ظروف انجلترا وفرنسا تسمح لهما بالقدوم بحملة إلى الشرق. ولم يستجب للبابا سوى تيبالد Tibald كونت شامبانيا وملك نافار ثيوبولد Theobald وعدداً من الأمراء والكونتات [٢]. وقد وصلت طلائع هذه الحملة إلى بلاد الشام. واختلفت الآراء فيما يتعلق بوجهتها فقد آثر البعض أن تتجه نحو مصر، فى حين اقترح البعض الآخر أن تكون وجهتها دمشق . ولكن الصليبيين رأوا مهاجمة غزة وعسقلان ، حيث يربطان دمشق بمصر ، فإن هم استولوا عليهما تمكن الفرنج من منع وصول أية امدادات من مصر إلى دمشق . وبالفعل أبحرت تلك الحملة من عكا ووصلت حتى حدود مصر فى نوفمبر ١٢٣٩م / ربيع آخر ٦٣٧هـ وفى طريقها علم بطرس كونت بريتانى Peter Brittany والذى كان ضمن قادة الحملة، أن قافلة إسلامية بالغة الثروة فى طريقها إلى دمشق . وفى الحال نصب لها كمينا وتمكن من نهبها والاستيلاء على غنائم كثيرة منها، ثم انضم هو ورجاله إلى باقى قادة الجيش

١- Histoire des Princes d'Antioche, Bohemond V, in R.O.L., t. 4, p. 398 .

٢- Richard, Op. cit., vol . II, pp. 318 - 319 .

الصليبى(١)، مما أثار حقد وغضب باقى الأمراء الفرنج الذين أرادوا تحقيق نصر مماثل على قوافل المسلمين . وقد أحدث هذا اضطرابًا كبيرًا داخل صفوفهم وتمكن المسلمون منهم، إذ أخذوهم على غرة وأحاطوا بهم من كل جانب . فأسرع العديد من قادتهم بالفرار، وسقط منهم حسبما جاء فى «حوليات الأراضى المقدسة» المئات من القتلى والأسرى(٢). وإن كنا لانتفق مع ما ذكره هذا المصدر من سقوط المئات من القتلى والأسرى فى حادثة عابرة بين المسلمين والفرنج تمثلت فى هجوم صغير على قافلة إسلامية لايمكن أن يكون ضحاياه بالمئات .

وقد ساهمت جبيل فى طلائع تلك الحملة بالكثير من القادة والفرسان والعتاد تلبية لنداء البابا وأملاً فى الحصول على أية امتيازات تجارية سواء فى مصر أو الشام، وهو الهدف الذى كانت تسعى إليه دائمًا أسرة امبرياتشى الجنوية ببلاد الشام.

لقد استاء المسلمون لهذه الأعمال الاستفزازية ضدهم، خاصة عندما قام الفرنج بانشاء الكثير من الاستحكامات الدفاعية داخل بيت المقدس وهو ما يخالف شروط الهدنة بين فريدريك والكامل. لذلك زحف الناصر داود صاحب الكرك على بيت المقدس فى ديسمبر ١٢٣٩م/ جمادى الأولى ٦٣٧هـ (٣)، ولم يجد صعوبة فى الاستيلاء عليه. وقد اشتدت المصادمات بين كل من الصليبيين والمسلمين آنذاك، واضطربت أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية. إذ كثيرًا ما أغار المسلمون على بيت المقدس وكانت جبيل فى كل مرة ترسل المساعدات العسكرية الضخمة لإنقاذه من المسلمين. ولكن نظرًا لاستمرار تلك الخلافات التى لاتنقطع بين الفرنج أنفسهم انتهى الأمر بسقوط بيت المقدس نهائيًا فى أيدى المسلمين عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م (٤). فقد انقسم الفرنج قسمين واتجه كل فريق منهم يعضد جانبًا من المسلمين المتصارعين أيضًا. إذ تحالف الداوية مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق ضد الناصر داود صاحب الكرك والسلطان الصالح نجم الدين الأيوبى سلطان مصر الجديد (٦٣٧-٦٤٧هـ / ١٢٤٠-١٢٤٩)، على أن يقوم الداوية بحماية ممتلكات الصالح إسماعيل ضد أعدائه ، مقابل تسليمهم حصنى

١- Les Gestes des Chiprois , p. 726 ; Annales de Terre Sainte, 440 .

٢- Annales de Tarre Sainte, Op. cit., p. 440 .

٣- الذهبى: تاريخ الإسلام، القطعة الثانية، ورقة ١٢ ، المقريزى: السلوك ، جـ١ ، ق٢، ص٢٩٣ .

٤- جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص٤٧ .

صفد وهونين (١). وقد انزعج الاسبتارية لذلك، فآثروا إجراء مفاوضات مع الصالح نجم الدين، حصلوا بمقتضاها على عسقلان مقابل الوقوف موقف الحياد وعدم الدخول في معارك ضده وأثار هذا حنق الداوية مرة أخرى، فقاموا في عام ١٢٤٢م / ٦٤٠هـ بمهاجمة مدينة حبرون الإسلامية (٢). واضطر الناصر داود إلى الرد على هذه الغارة بقطع الطريق المؤدي إلى بيت المقدس ومضايقة الحجاج اللاتين هناك. ورد عليه الداوية بالانقضاض على نابلس حيث دمروا وحرقوا مساجدها وبيوتها. وكثيراً ما شاركت جبيل في تلك الأحداث لصالح الصليبيين .

وفجأة ثارت الخلافات بين الصالح نجم الدين والناصر داود صاحب الكرك، قام الناصر على أثرها بتسليم الفرنج مدينة القدس(٣)، بعد عقد محالفة معهم ضد الصالح نجم الدين ومما زاد من تفاقم الخلافات، استغلال الفرنج لتلك الحالة التي وصل إليها المسلمون. فقاموا بعقد تحالف بينهم وبين صاحب دمشق والمنصور صاحب حمص ، ضد الصالح نجم الدين أيوب والخوارزمية مما أدى إلى حدوث معركة بين الطرفين عرفت بمعركة غزة في أكتوبر ١٢٤٤م / ربيع آخر ٦٤٢هـ. وكان جاي امبرياكو في مقدمة القادة الفرنج الذين اجتمعوا أمام غزة لمنازلة الصالح نجم الدين والخوارزمية. وقد أسفرت المعركة عن هزيمة فادحة للصليبيين ومن ناصـــرهم (٤). فقد تساوت معركة غزة في فداحتها وعدد من قتل فيها بمعركة حطين، مع اختلاف الظروف السياسية التي أحاطت بالصالح نجم الدين أيوب، فيما يتعلق بخلافاته مع صاحب دمشق الناصر داود وغيرهم من أمراء الصليبيين، على عكس الظروف التي عاشها صلاح الدين قبيل حطين . فقد كانت له من السطوة العسكرية على بلاد مصر والشام ما مكنه من احراز نصر كبير أسهم في تدعيم وحدة المشرق الإسلامي تحت لوائه في مواجهة الفرنج الدخلاء .

١- الفيومي: نثر الجمان، القطعة الثانية، ص١٢١ .

٢- مدينة حبرون : هو اسم القرية التي فيها قبر إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ببيت المقدس، وقد غلب على اسمها الخليل، ويقال لها أيضاً حبرى: أنظر: ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك، ص٤٢ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان، جـ٢ ، ص٢١٢ .

٣- الفيومي : نثر الجمان، القطعة الثانية، ورقة ١٢٤ ، ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٧ .

٤- أبوشامة : الذيل على الروضتين ، ص١٧٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص٣٣٨، المقريزي: السلوك ، ج١، ق٢، ص٣١١-٣٩٧، وأيضاً : جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٤٧ .

لقد كانت تلك الخلافات التي عاشها المسلمون آنذاك، المنفذ الوحيد الذى استفاد منه الصليبيون بعد هذه المعركة، فقد التقطوا أنفاسهم على الرغم من ضياع بيت المقدس نهائيًا من أيديهم ، وعلى الرغم من الأسلوب العنيف الذى استولى به الخوارزمية على المدينة المقدسة(١).

وتوقع الخوارزمية أن يسمح لهم الصالح نجم الدين بالتقدم نحو مصر بعد هذه الخدمات التى بذلوها له ولكنه رفض ذلك، الأمر الذى اضطرهم لمهاجمة يافا وعكا والعديد من مدن الفرنج. كما قاموا بمحاصرة دمشق قرابة ستة أشهر ، مما اضطر الصالح إسماعيل إلى التنازل عنها مقابل حصوله على بعلبك وحوران ونظرًا لأن الخوارزمية لم يحصلوا من الملك الصالح نجم الدين على ما يشفى الغليل، رغم كل الخدمات التى قدموها إليه، فقد انقلبوا ضده وعقدوا تحالفًا مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق على أمل استعادتها مرة أخرى ولكن دون جدوى. فقد تعرضوا لهزيمة شديدة فى مايو ١٢٤٦م / محرم ٦٤٤هـ. وعلى الرغم من أن جبيل كانت حريصة على أن توطد علاقاتها بالفرنج ، خاصة فى هذه الظروف العصيبة التى كان يمر بها المعسكر الإسلامى، إلا أنه ببداية ظهور التتار واستفحال خطرهم، تراءى إلى ذهن جاى امبرياكو صاحب جبيل أن يقوم بمحالفة المسلمين والبعد عن الصراعات داخل المعسكر الفرنجى. وقد اشترك معه فى هذا الرأى عدد كبير من فرسان الداوية وبعض سكان عكا من الفرنج ويوحنا إبلين صاحب بيروت. وجوليان سيد صيدا (٢)، حتى يتمكنوا من إقامة جبهة موحدة لصد هذا الخطر الوافد من الشرق الأقصى، خاصة بعد تقلص نفوذ الفرنج فى الشام وانحصاره فى شريط ساحلى ضيق تمثل فى عسقلان وبيروت وطرابلس وجبيل وبعض المعاقل القليلة الأخرى(٣)، والتى كانت بحاجة إلى جبهة موحدة متماسكة لدفع الخطر التترى عنها.

١- الذهبى : تاريخ الإسلام، القطعة الثانية، ورقة ١٣، وأيضًا :

Runciman , Op. cit., vol . III, p. 225 .

٢- ابن أيبك : كنز الدرر، جـ٧ ، ص٣٥٧ ، راجع أيضًا : السيد عبد العزيز سالم: دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص١٣٧ .

٣- Setton, Op. cit., t. II, p. 588 .

وعلى أية حال ، فبعد هذا الانتصار الذى تمكن الملك الصالح نجم الدين من تحقيقه بمساعدة الخوارزمية، استطاع أن يفرض سلطانه على بلاد الشام ومصر فيما عدا حمص وحلب وحماه[١] . كما وجه قوة من جيشه نحو مدينة عسقلان التابعة للصليبيين، وفعلا تم الاستيلاء عليها وتدمير تحصيناتها فى ١٣ من جمادى الآخرة ٦٤٥هـ / ١٥ من أكتوبر ١٢٤٧م[٢].

وفى خضم هذه الأحداث وصلت إلى مصر سفن الملك لويس التاسع ملك فرنسا فى ٤ من يونيو ١٢٤٩م / ٢٠ من صفر ٦٤٧هـ، وأرست بمدينة دمياط . ولم يكن الملك الصالح نجم الدين يتوقع قدوم الحملة إلى مصر قبل الشام وكان موجودًا بالشام آنذاك. ولكنه ما أن علم بسقوط دمياط فى أيدى الفرنج[٣]. حتى اتجه إلى مصر على الفور ولكن بعد فوات الأوان. ففى عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب وسط هذه الاضطرابات التى عاشتها المملكة الأيوبية على عهده ولتنتهى بذلك الدولة الأيوبية بمصر لتقوم دعائم دولة جديدة هى دولة المماليك البحرية المعروفة بالدولة المملوكية الأولى [٤]. ولن نتعرض لدقائق هذه الحملة

١- مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع ، ص٧٩ .

٢- حاول الفرنج إنقاذ مدينة عسقلان . وأرسلت قوات من عكا وقبرص عن طريق البحر، لرفع حصار المسلمين عنها . وبالفعل وصلت تلك القوات حتى الميناء، ولكن نظرًا للعواصف الشديدة أقلعت تلك السفن وسقطت عسقلان فى أيدى المسلمين . أنظر:

Annales de Terre Sainte, p. 442 ; Estoire d'Eracles, pp. 432-435 .

وأيضًا : أبوشامة : الذيل على الروضتين، ج٢ ، ص١٨٠، ابن دقماق: نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام، القطعة الثانية، لوحة ٧٠ .

٣- النويرى : نهاية الأرب، ج٢٧ ، لوحة ١٩، الكتبى: عيون الأخبار، ج٢ ، ورقة ١٨ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين، ص٩٨ .

٤- يذكر النويرى أن مدة الدولة الأيوبية بمصر كانت منذ أن تولى أسد الدين شيركوه وزارة الخليفة العاضد إلى أن ملك المعز عز الدين أيبك التركمانى الصالحى، فى حين اختلف المؤرخون حول نهاية الدولة الأيوبية فقد ذكر البعض أن الصالح نجم الدين أيوب هو آخر ملوكها، وذكر البعض الآخر أن المعظم تورانشاه هو آخرهم بينما أورد ابن أبى السرور أن شجر الدر هى أول من مثل المماليك فى حكم مصر لإنقطاع الصلة التى بينها وبين الصالح نجم الدين بموته وللمزيد انظر: النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، لوحة ١١٠، ابن أيبك: كنز الدرر، ج٧ ، ص٣٨٢-٣٨٧ ، الذهبى : تاريخ الإسلام، ص٢٤ ، الصفدى: الوافى بالوفيات ، ج٣ ، ق١ ، ص١٤٦ ، ابن أبى السرور، عيون الأخبار ، ورقة ١٦٥-١٦٦ . وأيضًا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام، ص١٤٠ .

ألا بالقول أنه بعد أن تطورت الأحداث الخاصة بطرفي الصراع، اضطر الملك لويس إلى الرحيل إلى بلاد الشام حتى يتمكن من تحقيق قدر من النجاح يعوضه فشله عن الاستيلاء على مصر . وكانت أبرز أعماله في الشام هي إقامة العديد من التحصينات بكافة مدن الشام ومعاقله التابعة للفرنج. وإن كنا لم نحصل على ما يفيد اتجاهه إلى جبيل وإقامة أية تحصينات بها، إلا أننا لانستبعد قيامه بذلك ، فقد كانت جبيل من القلاع الساحلية القليلة القوية التي يرتكز عليها الفرنج آنذاك . ومن الطبيعي أن يوجه الاهتمام إليها . ولقد اضطر الملك لويس للإقامة ببلاد الشام، بعد توسل الأمراء الفرنج له بالبقاء أملاً في جمع شملهم وتوحيد صفوفهم ضد المسلمين. وكانت الإجراءات الدفاعية التي قام بها بالغة الأهمية، خاصة بعد الإغارات التي كان يقوم بها الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب على كثير من مدن الشام الصليبية(١).

وقد عاني الملك لويس كثيراً أثناء إقامته ببلاد الشام من الجنوية بصفة خاصة وباقي الجاليات الإيطالية بصفة عامة، وكان هذا القلق سبباً في رحيله منها، ذلك أن آل امبرياتشي الجنوية كانوا قد بذلوا جهوداً عظيمة للملك لويس منذ وجوده بجزيرة قبرص استعداداً لحملته على مصر. إذ كانوا يعلقون الآمال على نجاح لويس في الحصول على امتيازات بمصر، ولكن نظراً لعدم تحقيق ما كانوا يأملون فيه اتهم آل امبرياتشي أصحاب جبيل الجنوية، الملك لويس بأنه السبب في ضياع آمالهم وفي طردهم من مصر، وانتقموا منه بالقيام بأعمال عدوانية ضد الفرنسيين ببلاد الشام . والأدهى من ذلك أنهم قاموا بأعمال القرصنة البحرية ضد السفن الفرنسية ، واستولوا على تجارتهم وثرواتهم. يضاف إلى ذلك أن تلك الجاليات عاشت فترة من التمزق والضعف داخل بلاد الشام نفسها. فكثيراً ما اشتدت الصراعات الدامية بين البنادقة والجنوية والبيازنة في الشوارع والميادين لتكون نذيراً بنهاية تلك الجاليات في الأرض المقدسة. فقد اختتم الصليبيين بصفة عامة وآل امبرياتشي بصفة خاصة وجودهم بالشام بنقاط سوداء لاتزال باقية على صفحات تاريخهم (٢)، وذلك في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي / نهاية القرن السابع الهجري .

١- الفيومي : نثر الجمان، القطعة الثانية، ورقة ١٢٤ ، ابن أيبك : كنز الدرر، ج٧، ص٣٨٩ .

١- Byrne, Op. cit., pp. 173-174 .

جوزيف نسيم: العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص٣٠١ ، ٣٠٢ .

وفى ضوء هذه الظروف السيئة التى أحاطت بحملتى لويس التاسع على مصر والشام، أبحر عائداً إلى فرنسا فى ٢٥ من أبريل ١٢٥٤م / ٥ من ربيع الأول ٦٥٢هـ، وعلى الرغم من أن إقامته ببلاد الشام كانت ذا نفع كبير على الفرنج ومعاقلهم وخاصة المعاقل الساحلية مثل جبيل حيث اجتمع القادة الفرنج بأكملهم تحت إمرته، إلا أن فريقًا من المؤرخين يرى أن ما حدث على عهده من خسائر بشرية وعسكرية لايمكن أن يعوض أو أن يتجاهله التاريخ، ويرى هذا الفريق أنه لو كان قد مكث بالشرق ولم يرحل، لكان خيراً للفرنج، ورغم كل هذا ، فلم يخلف لويس وراءه الشخصية القوية التى تملأ الفراغ الذى تركه، الأمر الذى أدى إلى استفحال الخطر داخل الكيان الصليبى المنهار. وزاد الطين بله تلك الانقسامات التى حدثت داخل المدن الصليبية نفسها تبعًا لانقسام الجنوية والبنادقة والبيازنة ، فأصبحت كل مدينة تؤيد طائفة ضد الأخرى. وقد تأثرت مدينة جبيل بهذه الأحداث تأثراً شديداً . بل أصبحت جبيل هى مكمن الخطر الجنوى آنذاك فاشتدت الفتنة بين هذه الطوائف التجارية إلى درجة جعلت الكيان الصليبى داخل بلاد الشام على شفا هاوية . هذا ، فى الوقت الذى كانت فيه الدولة المملوكية تحاول توطيد أقدامها فى مصر والشام ، واثبات وجودها على مسرح الأحداث خاصة ضد أعدائها بقايا الأيوبيين فى الشام، الذين لم يعترفوا بها .

وفى ظل هذه الظروف ، وتحت وطأة هذه الأحداث ، بدأ العد التنازلى بالنسبة للوجود الصليبى فى الأراضى المقدسة بصفة عامة ، وبالنسبة للجنوية وآل امبرياتشى حكام جبيل بوجه خاص، هذا، بينما كانت هناك قوة إسلامية جديدة تفرض نفسها على مسرح الأحداث فى الشرق الأدنى، ألا وهى دولة المماليك البحرية. وأصبحت آخر حلقات الصراع بين المسلمين والصليبيين مسألة زمن فحسب، وإن كانت كل الدلائل تؤذن بقرب وقوعه. وهذا ما سيكشف عنه الفصل الخامس والأخير.

الفصل الخامس

دور جبيل فى الصراع الصليبى الإسلامى

فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى/

النصف الثانى من القرن السابع الهجرى

دور جبيل فى الصراع بين الجنوية والبنادقة عام ١٢٥٦م / ٦٥٤هـ وأثره على علاقاتها بالمسلمين- موقف جبيل من السلطان قطز حين اشتد خطر المغول وموقعة عين جالوت (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) - تشابك العلاقات الصليبية الإسلامية على عهد السلطان بيبرس، وأثرها على جبيل (١٢٥٨-١٢٨٥م / ٦٥٦-٦٨٤هـ) - استيلاء المنصور قلاوون على حصن المرقب وبلدة مرقية وإنقاذ أسرى جبيل الذين بداخل برج مرقية (٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) - استيلاء المنصور قلاوون على طرابلس (١٢٨٩م / ٦٨٨هـ) - السلطان قلاوون يمنح سيرجى امبرياكو مدينة جبيل مقابل جزية سنوية - استيلاء الأشرف خليل على جبيل ونهاية الحكم الصليبى فى الشرق الأدنى الإسلامى (١٢٩٢م / ٦٩٢هـ) .

تعد تلك المرحلة من تاريخ مدينة جبيل ذات أثر بالغ على أوضاع الفرنج بالشام آنذاك. فقد كانت جبيل هى مركز الصراع الفرنجى وبدايته فى هذه الآونة لخلافاتها الشديدة مع طرابلس مما كان له أسوأ الأثر على الفرنج بصفة عامة. هذا، فى الوقت الذى كانت فيه الدولة المملوكية تعمل على توطيد أقدامها فى مصر والشام على الرغم من الصعوبات الجمة التى واجهتها وهى فى مهدها . فقد تمكن سلاطين المماليك الذين عاصروا تلك الفترة وهم قطز وبيبرس وقلاوون والأشرف خليل أن يحكموا قبضتهم على بلاد الشام، خاصة وأن الظروف السياسية السيئة التى عاشها الفرنج من صراع وتفتت، كانت إحدى الأسباب التى دعمت من جهود هؤلاء السلاطين، ومنحتهم دفعة قوية ضد الفرنج ، الأمر الذى أدى بهم فى النهاية إلى القضاء على الكيان الصليبى المتداعى فى الأراضى المقدسة .

ولعل صراع الجنوية كان من أهم عوامل هذا الضعف . وكان رحيل الملك لويس التاسع عن بلاد الشام فى أبريل ١٢٥٤م / ربيع أول ٦٥٢هـ، دون أن يترك قائداً قوياً يستطيع أن يجمع شمل الفرنج أمام المسلمين ، مدعاة لشعور الفرنج أمام المسلمين بفراغ كبير لإفتقارهم إلى

القائد الذى يرسم لهم سياسة موحدة تهدف إلى جمع كلمتهم أمام الصحوة الإسلامية ، وتعمل على مواجهة خطر المغول المحدق بهم. وليس خافيًا ما حدث بين الجنوية والبنادقة من صراعات دامية على أرض قبرص قبل قدوم لويس التاسع إلى مصر، وكان ذلك الصراع هو باكورة النزاعات الخطيرة بين كافة الفرنج فى الشرق الأدنى بعد ذلك.

وقبل الخوض فى تفاصيل صراع الجنوية الممثلين فى أسرة امبرياتشى أصحاب جبيل ضد البنادقة يجب إلقاء الضوء على طبيعة العلاقات بين كونتية طرابلس وجبيل، ولماذا ومتى بدأت تسوء، وانعكاس ذلك على علاقات جبيل بالمسلمين . لقد تولى هنرى امبرياكو Heney Ambriaco حكم جبيل (١٢٥٢-١٢٦٢م / ٦٦٠هـ) ، وكان يعد العدو اللدود لبوهمند السادس صاحب طرابلس . ومنذ اللحظة الأولى التى تولى فيها أعلن تخلصه الفورى من تبعية سادة جبيل لكونت طرابلس ، وأكد الاستقلال التام لمدينته عن طرابلس. كما اعترف بفضل الجنوية أولاً وأخيرًا عليه وعلى سلالته ، بل والأكثر من ذلك فإن برتراند امبرياكو Bertrand Ambriaco ابن عم هنرى قام بمهاجمة بوهمند السادس داخل طرابلس، وذلك عندما عزل بوهمند لوسيين Lu-cin الإيطالية الأصل من الوصايا على العرش[١] ، الأمر الذى أثار حنق برتراند خاصة عندما قامت لوسيين بتعيين عدد كبير من الشخصيات الإيطالية فى مراكز مرموقة بكونتية طرابلس. فاشتد حنق كافة البارونات من آل امبرياتشى، وظفروا جميعًا بزعامة امبرياكو عليهم . وكان برتراند يمتلك ضياعًا شاسعة داخل جبيل، وتقدم البارونات وحاصروا مدينة طرابلس حيث أقام بوهمند ، فأضطر إلى مهاجمتهم . غير أنه منى بالهزيمة وأصابه برتراند بجرح فى كفه . وهكذا ظل محاصرًا داخل المدينة، ولكن بعض فرسان الداوية تمكنوا من إنقاذه . وأقسم بوهمند على الانتقام من برتراند ، وبالفعل بمجرد أن شفى من جرحه أخذ يراقبه فى كل خطواته. وذات يوم بينما كان برتراند يقوم بجولة فى بعض الضياع القريبة من جبيل وكان ممتطيًا صهوة جواده، انقض عليه أثنا عشر من الفلاحين المسلمين وقد تخفوا فى ملابس غربية بينما كان يحمل سيفه فى يده، وأوقعوه من فوق جواده . وقاومهم برتراند فى البداية، لكنهم استطاعوا قطع رأسه وإرسالها هدية إلى بوهمند [٢]، الأمر الذى أثار فزع ورعب كل

١- لوسيين هى زوجة الكونت بوهمند الخامس، وكانت تنتمى إلى أسرة البابا انوسنت الثالث أنظر :

Runciman , Op. cit., t. III, p. 17 .

٢- Les Gestes des Chiprois, R.H.C. - Doc . Arm, pp. 744-749 .

أتباع آل امبرياكو المتمردين على كونت طرابلس فهرب الجميع إلى جبيل، ومنذ تلك اللحظة- أى منذ عام ١٢٥٨م ٦٥٦هـ فصاعداً - بدأت الأمور سير من سئ إلى أسوأ بين المدينتين . وأصبحت المسألة قضية ثأر بين جبيل وكل من أنطاكية وطرابلس، لأن يوحنا الأنطاكى John d'Antioche ، ابن عم بوهمند وسيد البترون كان قد اشترك فى تلك الأحداث الدامية ضد سادة جبيل (١).

وقد آثرنا التعرض لأسباب صراع جبيل وطرابلس قبل الإشارة إلى صراع جنوة والبندقية لأن الصراع الأول هو السبب الرئيسى للتمزق الذى حدث بين مدن الجمهوريات الإيطالية فى الأراضى المقدسة. وقد بدأ بصراع الجنوية والبنادقة حول دير القديس سابا St. Saba الذى يقع أعلى تل النبى صمويل. وعلى الرغم من أن كلاً منهما له حيه الخاص به ، إلا أنهما ادعيا ملكيتهما لهذا الدير، لأهميته الاستراتيجية ، حيث كان يطل على ميناء عكا، ومن يمتلكه يصبح له حق التحكم فى الميناء. لذلك قام الجنوية منذ عام ١٢٥٦م / ٦٥٤هـ بمحاولات متعددة للاستيلاء على هذا الدير الذى كان يفصل حى البنادقة وحى الجنوية . وتمكنوا من امتلاك الدير وأطلقوا النيران على البنادقة أعلى التل، كما قاموا بنهب البيوت والسفن التابعة للبنادقة التى كانت راسية فى ميناء عكا، مما أثار غضب البنادقة وأيضًا البيازنة الذين سبق أن عقدوا حلفًا معهم ضد الجنوية.

وكان يؤازر الجنوية آنذاك فيليب دى مونتفرات Philippe de Montefrat صاحب صور وتبنين، والذى كانت أسرته تكن الكراهية الشديدة للبنادقة منذ عام ١١٢٤م / ٥١٨هـ، لذا قام على الفور بطردهم من صور ، كما استولى على العديد من الأراضى والقرى قرب صور فى الوقت الذى كان فيه البنادقة عاجزين عن ردع الجنوية أو فيليب . وقد حاولت حكومة جنوة التدخل لوقف الصراع، وعرضت وساطتها مقابل شروط طيبة للصلح ترضية للبنادقة ، ولكن دون جدوى، هذا فى الفترة التى اختارت فيها كل مدينة منهما فريقًا من أمراء الصليبيين أو الهيئات الدينية الصليبية، لكى يقف إلى جوارها ضد خصومها ، مما أدى إلى انقسام المعسكر الصليبى إلى قسمين :

١- Les Seigneurs de Giblet, in R. O. L., t, III, pp. 399-402 ; Grousset, Op. cit., t, III, p. 555; cf. also : Bruc, Op. cit., pp. 135-136 ; Setton, Op. cit vol. II, pp. 569-570.

وأيضًا : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١١١١ .

الأول بقيادة الجنوية يؤازرهم الاسبتارية وفيليب دى مونتفرات ومعهم آل امبرياكو أصحاب جبيل، فى حين وقف بوهمند السادس صاحب طرابلس إلى جانب البنادقة ومعهم الداوية والتيوتون . وعلى الفور أرسل هنرى امبرياكو سيد جبيل المساعدات العسكرية الضخمة إلى الجنوية فى عكا متحدياً بذلك كل سلطات الكونت بوهمند السادس، ومع أن بوهمند حاول ضبط مشاعره والوقوف على الحياد ، إلا أن العداوة الشديدة بينه وبين آل امبرياكو أجبرته على الانغماس فى تلك الصراعات على الرغم من القرابة الوطيدة بين هذه الأطراف عن طريق زيجات المصاهرة . فالمعروف أن أم فيليب مونتفرات وزوجة هنرى سيد جبيل تنتميان إلى أسرة ابلين، كما أن جدة بوهمند السادس كانت من أسرة امبرياكو . ولكن تلك العلاقات أصبحت لاقيمة لها أمام هذه الخصومات المتفاقمة (١).

وفى تلك الفترة قام الجنوية بمهاجمة الحى الخاص بالبيازنة فى عكا انتقاماً منهم لموقفهم العدائى. ولكن البنادقة انقضوا عليهم فجأة ، واستولوا على دير سابا وطردوا الجنوية منه. كما تعرضت قوات فيليب مونتفرات للهزيمة على يد قوات عكا المحلية، مما اضطر الجنوية إلى الجلاء عن عكا وجعلوا من صور مستقر لهم(٢). وهكذا تأثرت كل القوى الصليبية بهذا الصراع ، وتحطمت الكثير من المدن، وأصبحت الاضطرابات والقلاقل أمرٌ عادياً داخل شوارع وأحياء الفرنج، مما أدى إلى تدهور أحوالهم وازدياد ضعفهم فى مواجهة المسلمين. حدث كل هذا فى الوقت الذى اعتدل فيه ميزان القوى فى الصراع الصليبى الإسلامى لصالح المسلمين بشكل واضح.

تقع كل هذه الأحداث فى الوقت الذى كان فيه خطر المغول يهدد البلاد الفرنجية والإسلامية على السواء (٣). فقد اكتسحوا أمامهم مدناً بأكملها مثل حلب وصيدا(٤)، وغيرهما. وكانوا قد

١- Assises de Jerusalem , t. II. pp. 465-466 ; Les Seigneurs de Giblet , R.O.L., p. 404 ; Richard, Op. cit., p. 366 .

وأيضاً : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١١٠٦-١١٠٧ .

٢- Actes du Notaire Genois Lamberto di Sambuceto, R.O.L., II, p. 7 .

٣- Annales de Terre Sainte, in A.O.L., t. II. p. 445 .

٤- بيبرس الداودار : زبدة الفكرة، جـ٩ ، لوحة ٢٦ .

وصلوا بغداد وحطموا قصورها وخربوها ، كما سفكوا دماء المسلمين فى المساجد فأصبحت مهمة سلطان مصر آنذاك ، وهو سيف الدين قطز (٦٥٧-٦٥٨هـ/ ١٢٥٨-١٢٦٠م) مهمة عسيرة ، وهى العمل على وقف هذا الخطر (١). وبالفعل تمكن قطز فى ١٥ من رمضان ٦٥٨هـ/ ٣ من سبتمبر ١٢٦٠م من هزيمتهم فى موقعة عين جالوت (٢)، التى قتلت فيها أعداداً هائلة من المغول، فكانت هذه أول كارثة تحل بهم. وما يهمنا فى هذه الحادثة دور جبيل، فقد طلب قطز من الفرنج تقديم العون اللازم، والسماح له بالمرور عبر أراضيهم لمواجهة المغول.

وقد اختلف المؤرخون العرب واللاتين حول هذا الموضوع . فقد ذكرت المصادر الأجنبية أنه رغم مطالبة قطز من الفرنج عقد حلف معه، إلا أنهم رفضوا ذلك وقدموا له فقط العون والمساعدة دون أن يتقيدوا بأحلاف عسكرية (٣)، هذا فى حين أشار المؤرخون العرب أنه نظراً لما ألم بالصليبيين من تمزق وضعف شديدين، ولما حل بمدينة صيدا من خراب ودمار على أيدى المغول، فإنهم أسرعوا إلى طلب المساعدة من السلطان التركى قطز لكى يكونوا معه جبهة موحدة ضد هذا الخطر المشترك. كما نوهت تلك المصادر أن السلطان قطز لم يطلب منهم التحالف معه ، بل أنه هددهم بضرورة الوقوف على الحياد فقط دون محاولة استغلال الموقف، وأنه لن يتردد فى قتالهم قبل ذهابه للقاء المغول أن هم فكروا فى مهاجمته(٤) . والرأى الأرجح هو ما أشار إليه المؤرخون العرب نظراً لأن كل الوقائع والظروف التى كان يمر بها الفرنج تدل دلالة واضحة أنهم كانوا بحاجة ماسة إلى من يأخذ بيدهم فى محنتهم ، وفى اعتقادنا أن مدينة جبيل كانت على رأس هذه المدن التى أسرعت إلى التقرب من السلطان قطز خاصة فى هذه المرحلة الحرجة من تاريخها . فكان من الطبيعى أن تتحالف مع المسلمين وتلبى مطاليهم بعد تمزق علاقاتها بكونتية طرابلس التى كانت أكبر عون لها وحائطاً قوياً

١- السلامى: مختصر التواريخ، ورقة ٦٧ .

٢- بيبرس الدوادار : زبدة الفكر، ج٩ ، المقريزى: الخطط ، ج٢، ص٣٨٦، القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٣٤ ، ابن أيبك : درر التيجان ، ص٦٣٧ .

٣- Rothelin , Continuation de Guillaume de Tyre, in R.H.C., H, Occ., t. II, p. 636 .

٤- المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٣٠، الكتبى : عيون التواريخ ، ج٢٠ ، ورقة ١٧٩، الرمزى: تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار من وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، ج١، ص٤١٤، ٤١٩ .

يدفع عنها الأخطار ويدافع عنها في كثير من الأوقات. وبالفعل أسرعت صيدا وجبيل إلى محالفة المسلمين ضد المغول [١]. وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن المصالح الخاصة لدى الفرنج كانت أهم من الصالح العام.

وكان لموقعة عين جالوت أكبر الأثر في قمع الصليبيين آنذاك . إذ تفرغ قطز لمواجهتهم خاصة بعد أن ضعفت حدة الخطر المغولي على البلاد الأمر الذي سهل مهمته في احتواء معظم بلاد الشام . كما تمكن من السيطرة على جميع الأمراء الأيوبيين المعادين له هناك الأمر الذي عزز نفوذه وسيطرته على مصر والشام ، وتمكن من أن يحقق نتائج باهره لدولة لاتزال في مهدها . وبعد أن فرغ قطز من مهمته ، توجه من دمشق إلى مصر. وفي طريقه دبرت له مؤامرة انتهت بقتله في ١٥ من ذي القعدة ٦٥٨هـ/ ٢٢ من أكتوبر ١٢٦٠م [٢]. واعتلى العرش بعده السلطان الظاهر بيبرس في ١٧ من ذي القعدة ٦٥٨هـ / ٢٤ من أكتوبر ١٢٦٠م. وقد اشتهر بيبرس بحسن الإدارة في الحكم والسياسة، كما اشتهر بالدهاء وحسن معاملته للشعب المصري حتى يكسبه إلى جانبه، وليمحو المشاعر السيئة ضد المماليك البحرية. وقد حرص بيبرس على تدعيم الحكم داخل مملكته حتى يتفرغ تمامًا لمواجهة الفرنج، وليعيد أحكام قبضته على كل ثغرة متبقية من بلاد الشام لاتزال بأيدي الفرنج. فكان حكمه هو نقطة مشرفة أضيفت لتاريخ سلاطين المماليك. وأهم ما قام به هو العمل على تلافي خطر المغول الذين ازدادت قوتهم في شمال شرق بلاد الشام بصورة أزعجته . ورأى ضرورة السعي الجاد إلى الدبلوماسية معهم. وكان لتقرب بركة خان ابن عم هولاكو زعيم المغول من السلطان بيبرس واعتناقه الإسلام، تحقيقيًا لآمال بيبرس في عدم الاصطدام بهم. هذا بالإضافة إلى أن العداء بين هولاكو وبركة خان شغل الأول تمامًا عن مواصلة مهاجمة المسلمين[٣] في المنطقة .

١- السيد عبد العزيز سالم : دراسة في تاريخ مدينة صيدا، ص١٥٩ .

٢- اختلفت الروايات حول مقتل السلطان قطز فالبعض أشار إلى أنه قتل بيد السلطان بيبرس نفسه، والبعض الآخر أشار إلى أن أنص سلاح دار هو الذي قتله. كما اختلفت الروايات حول اليوم الذي قتل فيه من شهر ذي القعدة . فقد ذكر البعض أنه يوم ١٥، وأشار آخرون إلى يوم ١٦، وأشارت رواية ثالثة إلى يوم ١٧ . ولكن أغلب الروايات اتفقت على يوم ١٥ ذي القعدة . أنظر : بيبرس الداودار : زبدة الفكر ، جـ٩ ، لوحة ٣٣، ٣٤ ، القلقشندي: صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٣٤ ، ابن أيبك :درر التيجان ص٦٣٧، السلامي: مختصر التواريخ ، ورقة ٦٧ .

٣- الرمزي : تلفيق الأخبار تلقيح الآثار، جـ١ ، ص٤١٩ .

وقد دأب بيبرس على مهاجمة الحدود الفرنجية بين حين وآخر، فى الوقت الذى كان فيه الفرنج فى حالة لاتسمح لهم بالرد على هذه الضربات بسبب استمرار الصراعات بين كافة الطوائف الإيطالية من ناحية، وأيضًا لتفكك الجماعات الدينية العسكرية المشهورة والتى كان لها ثقلها فى تعزيز قوة الفرنج. كل هذا أضعف الكيان الصليبى كله فى الوقت الذى كان فيه بيبرس حريصًا على قمع كل أعدائه داخل مملكته نفسها أما بالقوة أو بالتفاوض لإعادة تماسك الجبهة الداخلية وكان هذا أمرًا ضروريًا للمواجهة الحاسمة مع الفرنج. ففى صفر ٦٥٩هـ/ يناير ١٢٦١م أرسل جيشًا كبيرًا لقمع ثورة سنجر الحلبى فى دمشق التى هددت نفوذه فى بلاد الشام . وعلى الرغم من أن أهالى دمشق وقفوا بجوار سنجر الحلبى، إلا أن قوات بيبرس تمكنت من هزيمتها ، وأحضر سنجر مكبلاً بالأغلال إلى القاهرة [١].

وفى تلك الفترة بلغ بيبرس أن التتار قد تحالفوا مع بعض أمراء الفرنجة وأغاروا على حلب، واستولوا على المراعى والأغنام . فقام بيبرس بتوجيه أعداد ضخمة من جيوشه ضد أولئك الفرنج، وألحق بهم هزيمة فادحة فى ديسمبر ١٢٦١م / محرم ٦٥٩هـ[٢] وعلى أثر ذلك سعى كل من يوحنا John سيد بيروت ويوحنا الثانى صاحب يافا للتقرب من بيبرس وعقد هدنة معه، أملاً فى إرجاع عدد من أسراهم، وأيضًا إعادة مدينة زرين إليهم [٣]. وكان السلطان عز الدين أيبك قد وعدهم بذلك بمقتضى معاهدة عام ١٢٥٦م / ٦٥٤ هـ والتى كانت مدتها عشر سنوات [٤]. كذلك طالبوا بدفع تعويض عنها. ولكن السلطان بيبرس رفض كل ما عرضه هؤلاء الأمراء، رغم علاقته الطيبة بيوحنا كونت يافا ، وفى فبراير ١٢٦٣م/ ربيع آخر ٦٦١هـ عاود الفرنج مسعاهم لدى بيبرس لعقد هدنة معه، ونجح يوحنا صاحب يافا فى إقناعه هذه المرة. ولم يكن بيبرس أقل رغبة منهم فى المهادنة، وليس المعاداة، خاصة فى هذه السنوات الأولى من بداية حكمه . وقد روت المصادر المعاصرة أن بيبرس عقد هذه الهدنة مع يوحنا كونت يافا وصاحب بيروت فقط. وكان من بين نصوصها أن تظل مدينة بيروت على وضعها الحالى فى

١- المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص٤٣٨ وأيضًا : Runciman , Op. cit., vol . III, p. 287 .

٢- ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ٢٥٨ .

٣- زرين أو زرعين تقع إلى الشمال الشرقى من عين جالوت ، أنظر : ياقوت الحموى: ج٤، ص١٤ .

٤- Annales de Terre Sainte , in A.O.L., t. II, p. 446 ; Estoire d'Eracles, p. 442 ; cf , also Runciman, Op. cit., vol . III, p. 282 .

أيدى الفرنج ، ويضاف إليها كل الأراضى الواقعة من حد جبيل إلى حد صيدا[١]. أما صاحب جبيل فلم يدخل طرفًا فى هذه المعاهدة، وإن كانت جبيل ستسهم بدور فى هذه العلاقات ستتناوله فيما بعد . وكان من بين شروط المعاهدة دفع مبلغ من المال للسلطان بيبرس، ولم تشر المصادر إلى قيمة هذا المبلغ أو سبب دفعه . ولعله كان على سبيل التعويض لما قام به أمراء الفرنج من محالفة المغول ضد المسلمين. كذلك عوضهم بيبرس عن زرعين بقرية عيون، واشترط عليهم عدم بناء أى تحصينات أو أسوار حول مدنهم، وألا يتعرضوا مطلقًا لرسل السلطان حين يمرون عبر بلادهم ، وأن يكونوا خير عون له إذا ما تعرض للغزو من قبل المغول[٢].

وإذا أمعنا النظر فى شروط هذه الهدنة نجد أن الفرنج كانوا فى حالة ضعف واستكانة حتى أنهم قبلوا كل هذه الشروط صاغرين. كما يتضح منها أنها كانت هدنة حقيقية بالنسبة لبيبرس الذى كان يعد عدته لتوجيه ضربة شديدة للفرنج غير أنه آثر الانتظار فى ظل هذه الهدنة ليعيد الترتيبات اللازمة لذلك. وبالفعل حدث أن تقض الفرسان الداوية والاسبتارية تنفيذ أهم شرط فى هذه الهدنة ، وهو إعادة أسرى المسلمين الذين قاموا باستغلالهم فى الكثير من الصناعات الدقيقة . وارتاع بيبرس لهذه الأخبار، وصمم على مقاتلتهم . فتوجه إلى قرية الناصرة[٣] وقام بتدميرها، كما شن هجومًا مفاجئًا على عكا فى ٤ من أبريل ١٢٦٣م / ٤ من جمادى الآخرة ٦٦١هـ . ودار قتال عنيف خارج أسوار عكا، أصيب فيه جفرى سارجنيس Geffry Sargines صنجيل المملكة الصليبية ، غير أن بيبرس لم يكن وقتذاك مستعدًا للبقاء طويلاً على حصار عكا، فانسحب عائدًا إلى مصر[٤].

وقد حرص الفرنج بعد هذه الأحداث على بذل كافة المحاولات لكسب ود السلطان وتجنب القتال معه . ولكن الظروف التى كان يمر بها المعسكر الإسلامى من القوة والتماسك، جعلت

١- ابن بهادر : فتوح النصر ، ورقة ٢٢٦ ، ابن أبى سرور : عيون الأخبار ونزهة الأبصار، ورقة ١٧٣، القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٤ ، ص٤٠-٤٢ .

٢- بيبرس الداودار : زبدة الفكر، جـ٩ -٥٠ المقريزى: السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤٦٣-٤٦٤ .

٣- الناصرة: مدينة عبرانية تسمى عاسير، وفيها ظهر المسيح (عليه السلام) ، وتوضع البشارة به من الملائكة لأمه مريم. وهى مكان معروف يزوره النصارى. أنظر: الدمشقى : نخبة الدهر، ص٢١٢ .

٤- Annales de Terre Sainte, in A.O.L., t. II, p. 450 ; Estoire d'Eracles p. 443 ; cf . also : Runciman , Op. cit. vol . III, p. 317 .

بيبرس يرفض هذه المطالب وبخاصة تجديد الهدنة معه. وأرسل ناصر الدين القميرى[١] للإغارة على مدينة قيسارية وقلعة عثليت، ردًا على ما قام به الداوية والاسبتارية بالإغارة على عسقلان وبلدة اللجون [٢]. وكانت تسمى أيضًا الليزون أو مجدو. غير أن بيبرس لم يكن مقتنعًا بهذه المناوشات المتفرقة بين الجانبين ، ورأى ضرورة القيام بعمل عسكرى ضخم يستهدف الكيان الصليبى المتداعى فى الشام. وبالفعل ظهر بيبرس فجأة أمام أسوار قيسارية للوقوف على أحسن السبل لحصارها، فى الوقت الذى اشتدت فيه الصراعات الدامية بين البنادقة والجنوية مرة أخرى [٣]. وكان لذلك أسوأ الأثر على الوجود الصليبى بأجمعه فى هذه الفترة الحرجة من تاريخهم . وفى نفس الوقت كان المغول قد قاموا بهجمات متتالية على شمال سوريا حتى البيرة[٤]. فأصدر بيبرس أوامره إلى جيوشه بشمال الشام لمواجهة هذا الاعتداء ، وتمكنوا بالفعل من قمعهم ، الأمر الذى منحه الفرصة للتقدم نحو قيسارية ، وشرع فى حصارها ومهاجمتها . وكان الحصار شديدًا لدرجة أن المدينة لم تصمد طويلاً ، فسقطت فى ٥ من مارس ١٢٦٥م / ١٥ من جمادى الأولى ٦٦٣هـ [٥]. وقد استمرت قلعة قيسارية فى مقاومة الحصار، ولكنها سقطت بعد المدينة بأسبوع . ثم توجه إلى قلعة عثليت ، ولكنها تمكنت بفضل حصانتها الشديدة من مقاومة حصار بيبرس لها، الأمر الذى اضطره إلى رفع حصاره عنها. ثم واصل السير إلى أرسوف ، وتقدم نحو عكا وحاصرها . ولكنه رفع حصاره عنها

١- هو الأمير ناصر الدين أبو المعالى حسين بن عزيز بن أبى الفوارس القميرى الكردى، وكان مقدم العساكر بالساحل ، وكانت وفاته عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م. أنظر ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٢٢٢ .

٢- اللجون : من أعمال مدينة صفد ببلاد الشام، أنظر : الدمشقى: نخبة الدهر، ص٢١٢ .

٣- Williams, J., Kinghts of the Crusades, p. 135 .

٤- البيرة : حصن منيع شرقى الفرات. أنظر : الدمشقى: نخبة الدهر، ص٢٠٦ .

٥- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٤٤ ، ابن الشحنة: روض المناظر، ورقة ١٥٩، ١٦١ ، بيبرس الداودار : زبدة الفكر، ج٩ ، لوحة ٩١ ، ابن أيبك : درر التيجان ورقة ٥٧٠ .

وأيضًا : Estoire d'Eracles , p. 441 ; Annales de Terre Saint in , A.O.L., t. II, p. 452 .

وأيضًا : حسن عبد الوهاب : قيسارية وعلاقتها السياسية بالمسلمين ، ص٢٣٣-٢٣٧ .

عندما علم بقدوم هيو Huge الوصى على عرش المملكة الصليبية الاسمية من قبرص [١]. ثم واصل حملاته على كافة المدن والمعاقل الصليبية [٢]. أما عن موقف بيبرس من جبيل وطرابلس فقد قام فى ٤ من شوال ٦٦٩هـ/ ١٦ من مايو ١٢٧١م بمنازلة مدينة طرابلس، وأرسل جيوشًا ضخمة ليحكم حصاره حولها، مما اضطر أميرها بوهمند السادس إلى مراسلته قائلاً: «أيها السلطان ما مرادك فى هذه الأرض؟ فقال : جئت لأرعى زرعكم وأخرب دياركم». فاستعطفه صاحب طرابلس على عقد الصلح[٣]، فبعث إليه الظاهر بيبرس فارس الدين الأتابك وسيف الدين بليان الرومى الدوادار لمفاوضته على أن يكون لبيبرس من أعمال طرابلس النصف وأن يعطيه بوهمند جبله واللاذقية بخراجهما ، وأن يدفع له نفقة عسكر المسلمين. لكن أمام اشتداد حصار بيبرس للمدينة اضطر بوهمند إلى قبول هذه الشروط . كما لجأ بيبرس إلى عدم التشدد ومعاملته بالحسنى نظرًا لاشتداد خطر التتار، وما أشيع من تكتل الفرنج ضده بعكا . وتم عقد الهدنة بينهما على أن تكون مدتها عشر سنوات وعشرة أيام، وقد تضمنت بنود المعاهدة ما يلى :

أولاً : أن تكون عرقة وجبيل وأعمالهما لبوهمند ، مع التأكيد أن عرقة وأعمالها وهى ٥٦ قرية صدقة من الملك الظاهر بيبرس عليه.

ثانيًا : أن تؤول نصف غلات انطرطوس والمرقب وبانياس للسلطان والنصف الآخر للداوية والاسبتارية .

ثالثًا : أن تؤول بعرين وحمص القديمة إلى السلطان .

رابعًا : مدة الصلح عشر سنوات ، وعشرة أيام [٤].

١- Annales de Terre Saint, in A.O.L., t. II., p. 452 ; Estoire d'Eracles, p. 450 .

٢- للمزيد عن فتوحات بيبرس أنظر: السلامى: مختصر التواريخ ، ورقة ٦٨ ، الكتبى: عيون التواريخ ، ورقة ١١٠ .

٣- العينى عقد الجمان ، ج-٢٠ ، المجلد الثالث ، ورقة ٥٦٦ .

٤- انفرد السلامى فى مختصر التواريخ أن مدة هذه الهدنة خمسة سنوات فقط. بينما أجمع كافة المؤرخين على أن مدة الهدنة عشر سنوات . أنظر : السلامى: مختصر التواريخ ، ورقة ٦٧ ، بيبرس الداودار=

لقد جاء فى البند الأول من المعاهدة منح جبيل وعرقة لبوهمند . ومن واقع الأحداث التى سبق ذكرها كانت مدينة جبيل على خلاف حاد مع كونت طرابلس، ولم ينس سادة المدينة ما فعله بوهمند السادس ضد برتراند ابن عم هنرى امبرياكو صاحب جبيل السابق، والذى كان وقد أعلن فى بداية حكمه قطع كل وساطة تربط بين جبيل وطرابلس، واعتبار جبيل مدينة مستقلة بذاتها، الأمر الذى أدى إلى اتساع هوة الخلاف بين المدينتين . هذا بالإضافة إلى أن صاحب جبيل وقتها، وهو جاى الثانى Guy II امبرياكو (١٢٧١-١٢٨٢م / ٦٦٩-٦٨٠هـ) كان قائدًا له ثقله بصورة أعطت للمدينة وزنًا لايستهان به فى غمرة التطاحن الصليبى الإسلامى . وكان لجبيل القدرة على التفاوض عن نفسها فقط دون تدخل من طرابلس، حيث كان لها استقلالها السياسى والعسكرى عن الكونتية بل عن كافة المدن الصليبية المتبقية فى أيدى الفرنج . لذا ليس من المستبعد أن يكون المقصود هنا جبله وليس جبيل ، لأن جبلة كانت بالفعل تابعًا وطيدًا لأنطاكية، والتى كان يحكمها بوهمند السادس هى وطرابلس ، مع عدم وجود أى صلة أو تبعية بينه وبين جبيل .

وكان رد فعل الغرب على هذه الأحداث أن تكونت حملة بقيادة الأمير ادوارد Edward ابن الملك هنرى الثالث Henry III ملك انجلترا. وكان الملك لويس التاسع حريصًا هو الآخر على القيام بعمل عسكرى ضخم يعوض عن فشله فى مصر . لذا قرر المشاركة فى هذه الحملة ، وكما أعد عدته لشن هجوم على تونس وشمال أفريقيا [1]. واتفقت الآراء بينه وبين ادوارد على موضوع تمويل الحملة وميعاد توجهها إلى بلاد الشام . يضاف إلى ذلك أن البابا كلمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٨٨م) رحب هو الآخر بتدعيم جيوش الحملة، أملاً فى إيقاظ الغرب من غفوتهم للتوجه نحو الشرق لإحراز النصر على المسلمين وغزو بيت المقدس. كذلك وافقت البابوية على سداد الأموال التى دفعها لويس التاسع إلى قادة الحملة . ثم توجه الأمير

= زبدة الفكر ، ج٩ ، لوحة ٩٨ ، وأيضًا : محمد جمال الدين سرور: دولة الظاهر بيبرس فى مصر، ص٨٤ ، السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام، ص٢٧٠ .

١- Annales de Terre Saint , in A.O.L., t. II., p. 454 ; cf . also : Runciman , Op. cit., vol ., III , pp. 221-222 .

إدوارد إلى قبرص وهناك قامت خلافات مريرة بينه وبين بارونات الجنوية الذين رفضوا الاشتراك معه فى تلك الحملة وأعلنوا أنهم ليسوا مجبرين على الانغماس فى أية حروب خارج الجزيرة. وفى النهاية وافقوا على المشاركة فى الحملة لمدة أربعة أشهر فقط. ويوضح ذلك الموقف الحالة السيئة التى وصل إليها الفرنج، فقد يئسوا من كثرة الحملات الموجهة ضد المسلمين دون جدوى ، فضلاً عن أن الاستيلاء على بيت المقدس أصبح فكرة تافهة فى نظر كل الهيئات والطوائف المسيحية آنذاك . فقد كان الصراع الدموى المرير بين المسلمين والمسيحيين لاتزال آثاره باقية فى الأذهان ، ولم ينس الفرنج ما فقدوه من أرواح وأموال من جراء ذلك(١). على أية حال ، بعد أن وصل إدوارد إلى عكا شاهد ما هو أسوأ من ذلك ، وهو صراع الجنوية والبنادقة ، الذين رفضوا أيضًا عقد حلف عسكرى معه .

لقد دهش ادوارد لهذا الموقف المتخاذل من قبل أمراء الفرنج، خاصة أنه لم يأت إلى الشرق إلا لنجدتهم، الأمر الذى اضطره للعودة إلى بلاده بعد قيامه ببعض الهجمات المتناثرة على بعض مدن الشام التابعة للمسلمين ، خاصة وأنه لم يكن لديه حلفاء يضمنون له البقاء بالشرق . فعاد إلى انجلترا فى ٢٢ من سبتمبر ١٢٧٢م / ٢٦ من صفر ٦٧١هـ، بعد أن تعرض لمحاولة قتله من قبل اثنين من الحشيشية تسللوا إلى معسكره وقام أحدهما بطعنه بخنجر مسموم ولكن الإصابة لم تكن قاتلة (٢). وفى طريقه إلى بلاده علم بوفاة والده الملك هنرى الثالث فأصبح إدوارد ملكًا على انجلترا .

وتلقى حملة إدوارد الضوء على أحوال الفرنج ببلاد الشام، ومدى ما وصلوا إليه من ضعف وتخاذل . فقد استطابوا الحياة الهادئة بالشرق، وكرهوا أى حرب أو صراع بل استكانوا وأذعنوا لكل ما فرضه المسلمون من قيود وشروط ، يحدث كل هذا على الرغم من وصول النجدات الضخمة إليهم، وهو ما كانوا يسعون إليه فى الماضى، فى نفس الوقت الذى كانت فيه القوة الإسلامية فى طريقها إلى المزيد من إحكام قبضتها على كل الساحل الشامى.

لقد اختفى دور مدينة جبيل فى حملة ادوارد ، وذلك لعدة أسباب :

١- Rohricht, La Criosade du Prince Edward , in A. O. L., t., II, p. 620 .

٢- الكتبى : عيون التاريخ، ج٢ ، لوحة ٣٤٦، وأيضًا:

Rohricht, Op. cit., pp. 626-627 ; Richard, Op. cit., vol. II, pp. 397-398 .

أولها : انشغال آل امبرياتشي الجنوية فى الصراع المتجدد بين الجنوية والبنادقة فى الأراضى المقدسة، ورغبة مدينة جبيل فى الاحتفاظ بقدر من العلاقات الطيبة بينها وبين المماليك، والعمل قدر استطاعتها على عدم الخوض فى صراعات معهم فقد كانت علاقة جنوة بالدولة المملوكية فى مصر آنذاك ذات طابع إيجابى ، وبخاصة العلاقات الاقتصادية ، وعقدت الاتفاقيات بينهما بهذا الشأن .

ثانيها : هو انشغال جاى الأول امبرياكو صاحب جبيل فى صراعه المتجدد ضد بوهمند السادس، الأمر الذى كان له أسوأ الأثر على فشل حملة الأمير إدوارد فى تحقيق أى من أهدافها فى بلاد الشام . بل والأكثر من ذلك أنه برحيل إدوارد عن بلاد الشام لم يترك نائبًا عنه ليوحد كلمة الصليبيين، خاصة وأن هيو ملك قبرص رحل هو الآخر عن بلاد الشام(١)، دون التفكير فى مصير الفرنج المتطاحنين فيما بينهم . وجدير بالذكر أن المصادر المعاصرة الأخرى لم تشر إلى أى دور عدائى من قبل جبيل ضد السلطان بيبرس، مما يدل على استقرار العلاقات بين جبيل والمسلمين آنذاك، على الرغم من أن بيبرس قد ضيق الخناق تمامًا على الإفرنج بصفة عامة وألزمهم بالبقاء داخل مدنهم المتبقية لهم على الساحل الشامى، وهى عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل . واستمر الوضع على هذا الحال إلى أن توفى السلطان بيبرس فى صفر ٦٧٦هـ/ يوليو ١٢٧٧(٢) بعد العديد من الإنجازات الضخمة التى تمكن من تحقيقها ، والتى كانت استكمالاً لمسيرة السلطان قطز ، ومقدمه لمزيد من الانتصارات التى سيحرزها من حكم بعده من سلاطين المماليك .

لقد ابتهج الصليبيون لوفاة بيبرس ، إذ ترك على العرش أكبر أبنائه واسمه بركة، وكان شابًا ضعيفًا وجه جهوده نحو إقرار الأمور الداخلية، دون القيام بعمل عسكرى ضخم ضد الصليبيين، فى الوقت الذى كانت فيه المشاكل الخارجية أكبر من أن توجهها مثل هذه الشخصية الضعيفة ثم تولى بعده ابن بيبرس الثانى وهو العادل ابن بدر الدين سلامش، ولم

١- Annales de Terre Sainte , A.O.L., t. II, p. 456 .

٢- ابن أيبك : درر التيجان ، ورقة ٤٤٣، القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣ ، ص٤٣٤ ، ابن أبى سرور ، عيون الأخبار، ورقة ١٦٩ .

يكن أفضل من الأول، مما مكن المنصور قلاون من الإطاحة به واغتصاب العرش فى شعبان ٦٧٨هـ/ ديسمبر ١٢٧٩م[١].

وفى نفس العام كانت الخلافات قد ازدادت حدتها بين كونتية طرابلس وجبيل، وذلك عندما قام شجار عنيف بين بوهمند السابع كونت طرابلس وجاى الثانى امبرياكو سيد جبيل. إذ أن جاى على الرغم من العلاقات الوطيدة التى تربطه ببوهمند ، إلا أنه لم يتراجع عن معاداته ، عندما قرر تزويج شقيقه يوحنا John من وريثة أسرة أليمان Aleman وهى أسرة ثرية جداً بطرابلس . ورغم أن بوهمند قد أيد هذا الزواج فى بداية الأمر، إلا أن بارثلميو Barthlemio أسقف أنطرطوس تمكن من التأثير عليه وتغيير رأيه، لأن كان يأمل فى أن يجعل هذا الزواج من نصيب ابن أخته ، وذلك للنسب العريق والميراث الضخم الذى امتازت به تلك العروس . وبالفعل ظفر بارثليمو بتأييد بوهمند ضد جاى وأخيه، فقام جاى على الفور باختطاق الفتاة وتزويجها من أخيه يوحنا . ونظراً لخوفه من غضب بوهمند على هذا التصرف ، فقد توجه إلى معاقل الداوية ليحتمى بها فأسرع بوهمند بتحطيم كل معاقل الداوية الأمر الذى اضطر وليم بوجيه Guillaume de Beaujau مقدم الداوية للقيام بمظاهرة خارج أسوار طرابلس، ثم انسحب بعد أن أشعل النيران فى قلعة البترون .

على أنه أثناء عودة وليم بوجيه إلى عكا قام بوهمند بمهاجمة مدينة جبيل، غير أن مقدم الداوية كان قد ترك بعض الفرق من فرسانه للوقوف إلى جانب جاى امبرياكو . فدارت معركة عنيفة بين الطرفين على مسافة بضعة أميال شمالى البترون واشترك فيها نحو مائتى فارس وكان من بينهم باليان سيد صيدا وابن عم كل من بوهمند وجاى امبرياكو [٢]. مما عرض مدينة صيدا للكثير من الضربات والخسائر . فقد قامت خمس عشرة سفينة تابعة لبوهمند بشن هجوم عليها ونزلت قواته عند الشاطئ بالقرب من صيدا، وشهدت المدينة تساقط رجال

١- اختلف بعض المؤرخين حول تاريخ تولية قلاوون سلطنة البلاد، فيذكر البعض أنه عام ٦٧٧هـ والبعض الآخر أشار إلى أنه عام ٦٧٨هـ، بينما أشارت رواية ثالثة أنه كان عام ٦٧٦هـ والرأى الغالب الذى أجمعت عليه الغالبية هو عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م أى بعد الإطاحة بالعادل سلامش ، وللمزيد انظر: ابن أيبك درر التيجان، ص٤٤٧، وكنز الدرر، جـ٨ ، ص٢٥٠، المقريزى: الخطط، ج٣ ، ص٣٨٧ ، ابن أبى السرور ، عيون الأخبار، ورقة ١٨٠ .

٢- ابن بهادر: فوج النصر: ورقة ٣٣ وأيضاً: Les Seigneurs de Giblet, R.O.L., III. pp. 405-406.

بوهمند بين أسير وقتيل مع تعرضها هى الأخرى لأضرار فادحة [١]. فاضطر بوهمند إلى قبول عقد هدنة بينه وبين صاحب جبيل تكون مدتها عامًا واحدًا[٢]. ولم يكد يمضى هذا العام، حتى قام جاى امبرياكو بمساعدة الداوية لمهاجمة طرابلس عام ١٢٧٩م / ٦٧٨هـ. وحاصر جاى قصر نيفان Nivan، وبعد معركة شديدة هزم بوهمند مرة أخرى فى ١٦ من يوليو ١٢٧٩م/ ٥ من ربيع الأول ٦٧٨هـ، وتهادن الطرفان ولكن على مضض، فلم تنته الكراهية بينهما. إذ قرر جاى فى (يناير ١٢٨٢م / شوال ٦٨٠هـ) مهاجمة طرابلس بهدف الاستيلاء عليها من الكونت وأبعاده تمامًا عنها. وبالفعل تمكن من الوصول إلى منطقة قريبة من طرابلس ومعه العديد من أتباعه الفرنج وعلى رأسهم فرسان الداوية غير أنه ما لبث أن دب الخلاف بينه وبين قائد الداوية حول خطة مهاجمة طرابلس، واختل معسكر جاى امبرياكو ، وخاصة بعد هرب الكثير من أتباعه إلى أحد أبراج الاسبتارية الذين كان جاى قد لجأ إليهم للوقوف إلى جانبه عوضًا عن الداوية. ولما علم بوهمند كونت طرابلس بهذه المؤامرة وبالاضطراب الذى حدث داخل صفوف جيش جاى وأتباعه ، قام بمحاصرتهم جميعًا داخل هذا البرج. وبعد ساعات قليلة وافقوا على الاستسلام بشرط الإبقاء على حياتهم . ورغم موافقة بوهمند على ذلك، إلا أنه نقض وعده وقام بسمل عينى كل قائد من الداوية اشترك مع جاى. كما قام بنقل جاى امبرياكو وأخيه يوحنا ووليم بوجيه إلى مكان فسيح وأنزل الجميع داخل حفرة عميقة ودفن أجسادهم حتى الأعناق ، وتركهم حتى ماتوا جوعًا، وكان ذلك فى فبراير ١٢٨٠م / ذى القعدة ٦٨٠هـ [٣].

١- السيد عبد العزيز سالم : دراسة فى تاريخ مدينة صيدا، ص١٥٣ .

٢- Grousset , Op. cit., t. III, pp. 686-687 ; Setton, Op. cit., vol . II, p. 587 .

٣- على الرغم من اتفاق المصادر، من عربية وأجنبية، على أن وفاة جاى كانت بدفنه وتعذيبه إلا أن الفيومى أشار «أنه فى عام ٦٨٠هـ غرق سيركى صاحب جبيل وكان من الفرسان المشهورين عند الفرنج ، وسبب غرقه أنه قد كان أخذ معه جماعة من الفرنج وتوجه إلى البحر لفتح طرابلس على أن تكون مناصفة بينه وبين المسلمين فعرف به صاحب طرابلس فغرقه وأسر جماعة من مسلمى حلب كانوا معه». وسيركى هذا كان السبب فى فتح المرقب وطرابلس. أنظر الفيومى : نثر الجمان ، القطعة الثانية، ورقة ٢٥٣، وأيضًا :

Les Seigneurs de Giblet, Op. cit., p. 407 ; Bruc , Op. cit., p. 136 ; Grousset, Op. cit., t. III, pp. 688-691 .

لقد تألم الكثيرون من أنصار بوهمند وأعدائه لهذا المصير البشع الذى تعرض له جاى امبرياكو . أما الجنوية فقد أسرعوا بالتحالف مع المغول والأرمن، حيث كان لآل امبرياتشى علاقات وطيدة مع ملك أرمينيا كما سبق القول [١]، فى حين تجهز يوحنا مونتفرات صاحب صور للانتقام من بوهمند . فقد كان صديقًا حميما للجنوية بعامة وأسرة امبرياتشى بصفة خاصة، واضطر بوهمند إلى الإسراع نحو مدينة جبيل وعسكر أمامها، وقد فرح البيازنة والبنادقة كثيرًا عند سماعهم بهذه الأحداث التى كانت تسير بسرعة فى غير صالح أعدائهم الجنوية أصحاب جبيل. ويلاحظ أنه بعد مقتل جاى امبرياكو ، اختفى اسم أسرة امبرياتشى من كافة المؤلفات التى تناولت تاريخ تلك السلالة بالتفصيل . فعلى الرغم من أن جاى كان زوجًا لمارجريت Margrett ابنه باليان Balian سيد صيدا وكان له منها ولدان هما بيير Pierre وسوف Souve، إلا أننا لم نعثر على أية اشارات إلى حكم أحدهما للمدينة . فقد هرب بيير إلى قبرص عقب مقتل والده ولم يظهر اسمه فى الوثائق القبرصية إلا ضمن أحداث عام ١٣٠٧م / ٧٠٧هـ حيث عين واحدًا من فرسان الملك هنرى الثانى[٢] وذكر جروسيه أن سوف الابن الثانى لجاى قد قتل وهو فى مقتبل العمر على يدى بوهمند السابع صاحب طرابلس عام ١٢٨٢م / ٦٨١هـ[٣]. ولعل السبب فى عدم ذكر فرع أسرة جاى امبرياكو على مسرح الأحداث فى جبيل، هو الفزع الذى انتاب هذه الأسرة بموت جاى، ولكن ظهر فرع آخر من أسرة امبرياتشى تمثلت بدايته فى بارثلميو امبرياكو Barthlemio Ambriaco ابن برتراند الذى قتله بوهمند السادس من قبل ، وسوف يظهر بارثلميو كأول حاكم لجبيل من هذا الفرع الثانى الجنوى فى بلاد الشام[٤]. وثمة احتمال آخر لعدم ذكر اسم آل امبرياتشى فى هذه الفترة، وهو أنه ربما يكون بوهمند السابع قد تمكن من أن يحكم قبضته على جبيل لفترة من الوقت وأن يفرض سيطرته بالقوة على المدينة، الأمر الذى أرهب كل فرد من هذه السلالة من الظهور على مسرح الأحداث بعد كل ما أصاب جاى . فاختفوا فترة من الوقت ، وبعد أن استقرت الأمور بدأوا

١- Actes Genois d'Arménie , in , A.O.L., t. I, p. 434 .

٢- Les Seigneurs de Giblet , Op. cit., p. 407 .

٣- أنظر الجدول الخاص ببيت جبيل فى نهاية الجزء الثالث من كتاب رينيه جروسيه عن الحروب الصليبية، وقد نقل جروسيه هذ الجدول عن ريى Rey.

٤- Bruce, Op. cit., p. 136 .

يمارسون نشاطهم السياسى من جديد . وهذا الاحتمال هو أقرب إلى المنطق من احتمال وجود فرعين لأسرة امبرياتشى، لأنه لو حدث هذا فلا يعقل أن يكون هناك فاصل قاطع بين السلالتين لدرجة اختفائهم تمامًا ، خاصة أن كل فرع من الأسر الفرنجية فى الشرق كان مكملا للفرع الآخر وليس نهاية له .

أما السلطان قلاوون فلم يتجاهل هذه الأحداث الدامية بين الفرنج وبعضهم الآخر بل كان يرقب هذه الأحداث عن كثب إعدادًا لخطة تهدف كل القوى الصليبية المتبقية ببلاد الشام . وقد صمتت المصادر من عربية وأجنبية، عن الإشارة إلى أى صراع بين قلاوون وجبيل، بل أنه عقد معهم هدنة عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م [١]. بهدف التفرغ التام للخطر المغولى الذى بدأ يظهر من جديد ، واشتبك قلاوون مع المغول بالفعل فى معركة ضارية قرب حمص وتمكن من هزيمتهم فى ١٥ من رجب ٦٨٠هـ / ٣٠ من أكتوبر ١٢٨١م [٢]. بعد ذلك لم يتردد السلطان قلاوون فى مناوشة الفرنج داخل حصن المرقب بحجة أن بوهمند السابع صاحب طرابلس ومقدمى الداوية والاسبتارية لم يدخلوا فى هدنته [٣]، وكان حصن المرقب تابعًا للاسبتارية ، ورقيبًا على كل من الفرنج والمسلمين، فلم يغفل السلطان قيمته، لذا قرر الاستيلاء عليه وحاصره حصارًا شديدًا، مما اضطر الفرنج الذين بداخله إلى طلب الصلح وتقديم كافة التنازلات ما عدا الحصن ولكن قلاوون صمم على الاستيلاء عليه، فهدم كل أبراجه بعد أن دكها بالمناجيق وتمكن من احتلاله فى ١٨ من ربيع الأول ٦٨٦هـ / ٣ من مايو ١٢٨٧م [٤]، ومنح الأمان لكل من فيه من الفرنج. ثم مضى إلى بلده صغيرة بالقرب من الحصن وهى مرقبة [٥]. وكانت تابعة للكونت بوهمند

١- المقريزى: السلوك ، جـ١ ، ق٣ ، ص٦٨٥ .

٢- الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ٧ ، ق١ ، ورقة ٩٧ ، الداودار: زبدة الفكرة ، ج٩ ، لوحة ١٧٩ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى، جـ٣ ، ورقة ٣٧ .

٣- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، جـ١٢ ، ورقة ٤٨ب ، بيبرس الداودار: زبدة الفكرة، جـ٩ ، لوحة ١٩٦، القلقشندى : صبح الأعشى، جـ١٤ ، ص٥١ .

٤- ابن تغرى برديك المنهل الصافى ، جـ٣ ، ورقة ٣٧ ، الفيومى: نثر الجمان، القطعة الثانية، ورقة ٢٨٣ .

٥- برج مرقبة : بناه الفرسان الداوية وكان لهم شأن عظيم داخل طرابلس وجبيل وكانوا يمتلكون حصونا قوية داخل العديد من مدن الشام. أما مرقبة: فهى مدينة ساحلية رومية ولها عمل متسع ببلاد الشام. أنظر : الدمشقى : نخبة الدهر، ص٢٠٨ .

السابع صاحب طرابلس ، وقد بنى عليها برجا عظيما لاتصله النشاب ولاحجر المناجيق(١). وضرب السلطان الحصار حول مرقية بهدف الاستيلاء على البرج وتم هذا فى الوقت الذى وصلت إليه رسل من قبل بوهمند كونت طرابلس تعرض عليه الصلح مع عدم هدم البرج حيث ادعى بوهمند ملكيته له بأنه اشتراه من الداوية بعدة قرى وذهب كثير، فقام السلطان بدفع هذه الأموال على أن يقوم بوهمند بإخراج كل الأسرى الجبليين فيه والذين كانوا مع جاى امبرياكو حين قتله بوهمند (٢). وبعد ذلك قام السلطان بدك هذا البرج بالمناجيق واستطاع أن يريح المسلمين من خطورة كل من حصن المرقب وبرج مرقية.

ثم اتجه السلطان بعد ذلك إلى مصر، وبقى بها حتى عام ١٢٨٧م / ٦٨٦هـ. وهناك وجد ذريعة لنقض الهدنة مع الفرنج، وذلك عندما اشتكى له تجار حلب المسلمين من سوء معاملة الصليبيين لهم بميناء اللاذقية . فقام السلطان بمحاصرتها ، وساعدته الظروف فى تسهيل مهمة الاستيلاء عليها، إذ اشتد الصراع الداخلى بين البيازنة والجنوية والبنادقة مما شغلهم تماما عن إنقاذ المدينة، خاصة وقد وقع زلزال عنيف أتى على معظم برجها القائم على البحر ويعرف ببرج البيزانية (٣). وذلك فى أبريل ١٢٨٧م / صفر ٦٨٦هـ . وقد توفى بوهمند السابع بمجرد سماعه أنباء ضياع اللاذقية. ولم يترك وريثًا على عرش طرابلس سوى أخته لوسيا Lu-cia التى أصبحت لها السلطة المطلقة على كل من طرابلس وجبيل . إلا أن النبلاء داخل طرابلس لم يحبذوا قدوم لوسيا لتحكمهم بسبب المساوئ العديدة التى ارتكبها أسرتها ضد سادة جبيل وطرابلس وغيرهم من قادة الفرنج . فقاموا بمراسلة سيبيلا Sebilla أميرة

١- اختلف ابن تغرى بردى فى مخطوطه «المنهل الصافى»، حول ما حدث من السلطان نحو برج مرقية فقد ذكر أن السلطان فتح هذا البرج عنوة حين رفض بوهمند هدمه، ثم عاد وذكر فى «النجوم الزاهرة» أن قلاوون قام بالاستيلاء على البرج بعد أن قام بوهمند بهدمه ارضاء له. وللمزيد من التفاصيل أنظر: القيومى نثر الجمان، ق٢ ، ورقة ٢٨٣، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى، جـ٣ ، ورقة ٣٨،٣٧ ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٣١٥ .

٢- الجبلين: هم جماعة من المسلمين من سكان مدينة جبيل كانوا مع صاحب جبيل سيرجى Sir Guy الفارسى التمبلارى . أنظر : ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ، ج٧، ص٣١٦ .

٣- ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة المنصور، تحقيق د. مراد كامل، ص١٥٢ .

أرمينيا، وطلبوا منها الحضور إلى كونتية طرابلس . وقد رحبت بعرض نبلاء جبيل وطرابلس وأرسلت على الفور صديقها بارثلميو أسقف أنطرطوس ليكون نائبًا عنها على المدينتين . ولكنه أبلغها بعدم رغبة النبلاء فى وجوده بهذا المنصب ، فأصرت على رأيها ، مما اضطر نبلاء طرابلس إلى خلع كل سلالة بوهمند السابع عن عرش طرابلس ، وقرروا اقامة قومون جديد كان على قمته بارثلميو امبرياكو سليل أسرة امبرياتشى أصحاب جبيل . وكان بارثلميو عدوًا لدودًا لكونتات طرابلس ابتداء من بوهمند السادس الذى قتل برتراند امبرياكو ، والد بارثلميو وأيضًا لمقتل جاى امبرياكو على يدى بوهمند السابع. ولذلك سعى بهمة للتخلص منهم، فى الوقت الذى أخذت فيه الأميرة لوسيا تطالب بحقها الشرعى فى حكم طرابلس، مما أزعج القومون الجديد. فبادر بتقديم قائمة طويلة بكل الإساءات التى وجهها كل من بوهمند السادس والسابع ضد أسرة امبرياتشى بصفة خاصة والجنوية عامة، والتى كانت نقاطًا سوداء فى تاريخها . وأعلن إفرنج طرابلس أنهم لن يقبلوا بأى حال عودة هذه الأسرة لحكمهم، مما ساعد على نجاح بارثلميو فى تثبيت أقدامه داخل جبيل خلال عامى ١٢٨٧-١٢٨٨م / ٦٨٧-٦٨٨هـ [١]. كما رأى ضرورة السعى الجاد لفرض سيطرته على حكم طرابلس، خاصة وأن جميع النبلاء داخل المدينة وضعوا أنفسهم تحت سيطرة جنوة . وقد رحبت حكومة جنوة الأم بهذا، وأرسلت على الفور أمير البحر بنيتو زكريا Benito Zakaria ومعه أسطول يتألف من خمس سفن ضخمة للوقوف إلى جوار القومون، فى الوقت الذى وقف فيه مقدمو الداوية والاسبتارية والتيوتون ومعهم البنادقة والبيازنة إلى جوار لوسيا ، ودافعوا عن حقها فى ميراث طرابلس، وكان هذا الموقف من البنادقة والبيازنة بسبب الكراهية الشديدة لحكومة جنوة التى أضحت لها السيطرة الكاملة على زمام الأمور داخل كل من طرابلس وجبيل. وقد حرص زكريا عند وصوله إلى بلاد الشام على منح آل امبرياتشى والجنوية عامة الكثير من الحقوق والأملاك داخل طرابلس وخارجها ، الأمر الذى أثار حنق أهل طرابلس خاصة بعد ظهور نوايا آل امبرياتشى فى تملك المدينة وتأكدوا من ذلك حين قام بتزويج ابنته اجينس Agines من ابن عمه بطرس بن جاى الثانى امبرياكو . وسار الجميع يطالبون بحكم

١- Les Gestes des Chiprois, R.H. C - Doc Arm , t. II, pp. 801-802 .

انظر أيضًا : القائمة الخاصة بحكام جبيل فى نهاية الجزء الثالث من كتاب رينيه جروسيه عن الحروب الصليبية نقلا عن ريى.

كونتيه طرابلس نفسها. بل الأكثر من ذلك قام بارثلميو [١]. بمراسلة السلطان قلاوون سراً طالباً منه مساعدته فى تملك طرابلس ولحسن الحظ أن المصادر العربية والأجنبية أشارت إلى مراسلة بارثلميو للسلطان قلاوون حول تملك طرابلس على أن تكون المدينة مناصفة بينه وبين السلطان. ذكر ابن تغرى بردى أن سيركي وهو من أقارب صاحب جبيل وألزامه وكان أيضاً من أعيان الفرنج، بعد اشتداد الكراهية بينه وبين بوهمند السابع قبل وفاته أرسل للسلطان قلاوون يطلب منه المساعدة لكى يجعل من نفسه كونتا على طرابلس، وطلب من السلطان أن يكتب إلى الأمير سيف الدين بليان الطباخى ليساعده على تملك طرابلس [٢]. وتشير هذه الرواية أن المراسلات بين السلطان المصرى والفرنج أصحاب جبيل لم تكن فقط بعد وفاة بوهمند السابع واختفائه من مسرح الأحداث داخل طرابلس، ولكن كانت هناك أيضاً مراسلات مسبقة فى حياة بوهمند والدليل على ذلك عندما اشترط قلاوون على بوهمند خروج أسرى جبيل من برج مرقية. فإن ما أشارت إليه المصادر العربية من أن هؤلاء الجبلين هم مسلمون فقط أمر فيه تحيز للمسلمين، لأن كل الطوائف داخل جبيل اشتركت إلى جانب جاى ابمرياكى فى صراعه ضد بوهمند السابع. ولذلك من المسلم به أن السلطان طلب خروج كل أسرى جبيل سواء أكانوا افرنج أم مسلمين . وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على التفاهم بين قلاوون وسادة جبيل أو على الأقل تعاطفه مع قضيتهم ضد صاحب طرابلس، وهو يكشف لنا من ناحية أخرى عن سياسة التسامح الدينى التى عرفت عن السلطان قلاوون. ويؤكد من ناحية ثالثة أن المصالح الخاصة عند الصليبيين كانت فوق أى اعتبار آخر.

وقد حدث أن لجأ بارثلميو بعد هذه الرسالة إلى التسويف والمغالطة، وأراد أن يتحكم فى الموقف من كافة أطرافه. فقام بمراسلة الأميرة لوسيا سراً على أن تساعده فى تملك طرابلس ليكون نائباً عنها [٣]، وذلك دون علم حكومة جنوة أوبنيتو زكريا. وقد أحس السلطان بالمماطلة من جانب بارثلميو، وكان قد عقد العزم على أخذ طرابلس. وقد روت بعض المصادر الأجنبية

١- ورد فى المصادر العربية تحت اسم بارتليه، وسيرجى ، وسيركى ، ولكن الأقرب إلى الصواب بارثلميو صاحب جبيل آنذاك. أنظر ابن تغرى بردى المنهل الصافى ، جـ٣ ، ورقة ٣٨ .

٢- ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، ج٣ ، ورقة ٣٨ ، وأيضاً: مصطفى الكنانى : العلاقات بين جنوة والشرق والأدنى، ص١٦٧ .

٣- Grousset, Op. cit, t. III, p. 738 .

أن الرسالة التى وصلت للسلطان قلاوون لحقت بها رسالة أخرى من البنادقة قاموا بتحذيره من التعاون مع حكومة جنوة، إذا ما وضعوا أيديهم على طرابلس ، مما قوى من عزم السلطان على تملك المدينة لنفسه، ومحو أثر الفرنج فيها. فاتجه بقواته نحو طرابلس وقد لجأ إلى السرية المطلقة حتى لايعلم الجنوية أو أصحاب طرابلس بنواياه . ولكن وصل إلى مسامع وليم بوجيه مقدم الداوية أمر هذه الحملة ، فقام بتحذير أهل طرابلس والجنوية بقدوم قلاوون . ونظراً لأنه كان ذا سمعة سيئة، فلم يصدقه أحد ولم يستعد جيش طرابلس لهذا الحصار، مما سهل مهمة قلاوون فى تقدمه نحو أسوار المدينة. ولم يتمكن أحد ممن بداخلها من حمايتها فى الوقت الذى اشتد فيه الصراع بين جنوة والبندقية، حين اتهم زكريا البنادقة بسرقة بعض سفنه الحربية فاشتد القتال بينهما كالعادة، وانسحب الجنوية على الفور من أمام طرابلس وتركوا المدينة نهباً لسيوف قلاوون. وقد لقى بارثميو امبرياكو مصرعه ، بينما سبى النساء والأطفال وتدفقت جموع المماليك داخل المدينة واستولت على ثرواتها. ثم قام قلاوون بتسويتها بالأرض حتى لايعاود الفرنج محاولتهم فى الاستيلاء عليها مرة أخرى، وكان ذلك فى ٤ من ربيع الآخر ٦٨٨هـ / ٢٧ من أبريل ١٢٨٩م [١]. ثم اتجه نحو أنفه [٢]. والبترون واستولى عليهما. كما منحت له لوسيا بعض القرى داخل أنفه .

وهكذا لعبت مدينة جبيل دوراً لايستهان به فى تقرير مصير إحدى الامارات الضخمة التى شيدها الصليبيون منذ أن وطأت أقدامهم أرض الشام، أذ أنهت أسرة امبرياتشى كل الوجود الفرنجى داخل طرابلس بهذه الرسالة التى شجعت السلطان قلاوون على أخذها وقد اقتفى المسلمون أثر الصليبيين فى كل مكان من أرض الشام الوقت تمركز فيه الفرنج فى عكا وجبيل وبعض المدن الساحلية الأخرى. وكان سقوط طرابلس هو بداية النهاية لكل الوجود الصليبى المنهار ببلاد الشام.

١- اختلفت الروايات حول يوم سقوط طرابلس فى قبضة قلاوون، فقد ذكر السلامى، ابن دقماق أنه كان يوم ١٩ ربيع آخر فى حين أشار ابن تغرى بردى أنه يوم ٤ ربيع آخر، وهو ما أجمعت عليه باقى المصادر العربية . أنظر : السلامى: مختصر التواريخ ، ورقة ٦٨، الكتبى: عيون التواريخ ، ج٢١ ، ورقة ٢، الفيومى: نثر الجمان، ورقة ٣٢٤ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين، ورقة ١٢٨ ، العينى : عقد الجمان ، ج١٢ ، ق١ ، ورقة ١٠ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى، ج٣، ورقة٣٨، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣٢١ .

٢- أنفه : بلدة صغيرة تقع على ساحل البحر جنوبى طرابلس فى الطريق المؤدى إلى جبيل وبيروت ، كان بها حصن منيع، أنظر الإدريسى ، نزهة المشتاق، ص١٧ .

وعلى الرغم من أن بعض المراجع الأجنبية الحديثة ذكرت أن ابنى جاى امبرياكو هما بيير وبسوف اللذين سبقت الإشارة إليهما لم يحكما جبيل، إلا أن بعض المصادر العربية روت أنه بعد أن فتح قلاوون طرابلس اتجه منها إلى جبيل ولم يتعرض للمدينة عسكريًا، بل أقام بها حكمًا جعل على قيادته سيركى ابن جاى امبرياكو الذى قتله بوهمند السابع يقول المقريزى: «إن السلطان قلاوون أقامه حاكمًا على المدينة على مال يدفعه سنويًا أى جزية قررت على صاحب جبيل »(١). وأن السلطان قد حباه بهذه المعاملة لتعاونه معه من قبل ، وكان قد شكا إليه كل ما فعله بوهمند بأبيه. وقد عطف عليه السلطان وأقره على حكم جبيل ويرجح أن الذى تفاهم مع سلطان مصر هو بيير وليس سيرجى كما ذكرت المصادر العربية . فبعد أن استطاع قلاوون قمع أصحاب طرابلس وأخذ مدينتهم، عاد بيير إلى حكم المدينة بسبب المعاملة الطيبة التى عامله بها السلطان مما أدى إلى ظهور أسرة امبرياتشى على مسرح الأحداث مرة أخرى ولكنها لم تبق لفترة طويلة كما سنرى فيما بعد .

لقد استقر الوضع داخل جبيل، ثم واصل السلطان تقدمه للقضاء على القوى الصليبية المتبقية ببلاد الشام. وانشغل ببناء مدينة أخرى قرب طرابلس بعيدة عن الساحل وذلك حتى لاتتعرض لمواجهة الفرنج المتكتلين فى عكا وقبرص (٢). هذا فى الوقت الذى حصل فيه الجنوية على الكثير من المزايا والحقوق من قبل قلاوون ، لموقفهم المحايد منه أثناء صراعه ضد المغول، أيضًا أثناء فتح طرابلس لم يكن موقفًا معاديًا قدر ما هو دفاعًا عن النفس حين فاجأهم السلطان. فقد وجد الجنوية أنفسهم مضطرين إلى القتال إما طوعًا أو كرهًا، وذلك للحفاظ على ثرواتهم والدفاع عن حياتهم . وقدر لهم هذا، لأنهم لو كانوا قد أعدوا عدتهم لهذا الموقف لتغيرت الظروف تمامًا بالنسبة للمسلمين . فقد كان قومون جنوة على استعداد تام لتعضيد

١- المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق٣ ، ص٧٤٨ ، الفيومى : نثر الجمان، ورقة ٣٢٤، ابن دقماق الجوهر الثمين، ورقة ١٣١ وأيضًا .

Les Gestes des Chipois , p. 805 ; cf, also Setton: Op. cit., t. II, p. 593 , Nante, Op. cit., p. 74 ; Bruc, Op. cit., p. 139 .

٢- ابن أيبك : درر التجان، ص٤٤٩، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٨٩، القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٣٥ ، البغدادى : عيون الأخبار، جـ٢ ، ورقة ٤٣٦ .

الجنوية عسكريا فى الشرق لحفظ طرابلس فى مثل هذه الظروف المضطربة التى مرت بها الكونتية. وكان الثمن الذى طيب قلاوون به خاطر الجنوية هو عقد معاهدة معهم فى مايو ١٢٩٠م/ جمادى الأولى ٦٨٩هـ حتى يفيد من حيادهم حيال طرفى الصراع أو وقوفهم إلى جانبه فى خطوته الكبرى المقبلة وهى تحرير عكا. ولعل هذا الموقف الذى اتخذه قلاوون حيال الجنوية عامة وأصحاب جبيل بصفة خاصة يتعارض مع قول ابن تغرى بردى من أن آل امبرياتشى قد ماطلوا قلاوون بخصوص الاستيلاء على طرابلس، وأنه قد عزم على قتالهم قبل أن يستفحل أمرهم (١). والعكس هو الصحيح . فآل امبرياتشى أصحاب جبيل كانوا من أكثر الجماعات الفرنجية التى تعاطف معها قلاوون ووقف إلى جوارها ، بل وثبت أقدامها داخل جبيل وخارجها بالعديد من الامتيازات . يضاف إلى هذا أن ذلك التصرف من قلاوون يعبر عن دهاء ودراية كبيرين تميز بهما . فقد أدرك قيمة العنصر الجنوى على مسرح الأحداث آنذاك. ولم تكن اتفاقيته معهم مصدر ضعف منه، أو خوف منهم، قدر اهتمامه بالاستفادة منهم فى تحقيق هذا الهدف الكبير وهو الحصول على عكا، وليوفر على جنود المسلمين الكثير من عناء الحصار والقتال. ثم أنه ضمن بذلك عدم وقوفهم ضده أثناء انشغاله عنهم. وبالفعل تقدم قلاوون نحو عكا وضرب الحصار حولها . لكن القدر لم يمهله طويلاً، فمات أثناء ذلك الحصار فى ١٦ من ذى القعدة ٦٨٩هـ / ٢٠ من نوفمبر ١٢٩٠م.

وقد استكمل الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ / ١٢٩٠-١٢٩٣م) جهود أبيه السلطان قلاوون، ولم يكن أقل منه خبرة ودراية. فقد شاركه فى الكثير من أمور الحكم خاصة بعد وفاة أخيه الصالح علاء الدين (٢). ولم يضيع وقته هباء، فبدأ بالإطاحة بكل معارضيه ، وتخلص من كافة

١- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٧، ص٣٢١ .

٢- اختلفت الروايات حول تاريخ وفاة قلاوون وتوليه ابنه الأشرف ، فقد انفرد ابن أيبك بقوله بأنه توفى فى ٦ ذى القعدة وأن الأشرف تولى يوم ٧ ذى القعدة ، فى حين ذكر ابن أبى السرور أن وفاته كانت يوم ١٢ ذى القعدة . ولكن باقى الروايات أجمعت على أنه توفى يوم ١٦ ذى القعدة وولى إبنه يوم ١٧ ذى القعدة ٦٨٩هـ. وللمزيد أنظر ابن أيبك : درر التيجان : ص٤٥٠، بيبرس الداودار : زبدة الفكر، جـ٩ ، لوحة ١٧٥ ، الكتبى: عيون التواريخ ج١٢ ، ورقة ١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣، ص٣١٣، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٣٥ ، ابن أبى سرور : النزهة الذكية، ورقة ١٨٠ ، البغدادى: عيون الأخبار، ج٢، ورقة ٤٣٦ .

٣- ابن أيبك : درر التيجان ، ص٤٤٩ .

المؤامرات التقليدية التى أعقبت وفاة أبيه. ثم تفرغ بعد ذلك لفتح عكا ورفض توقيع أية معاهدات أو اتفاقيات صلح مع الفرنج، بينما ظلت جبيل على وضعها بمقتضى الاتفاقية المبرمة بين صاحبها والسلطان قلاوون ، والتى كانت مدتها عشر سنوات ، ولهذا السبب لم يبدأ السلطان بها وتركها طالما أصبحت تابعًا خاضعًا لسلطانه، بالإضافة إلى أن الأموال التى كان يدفعها آل امبرياتشى جزية للسلطان، كانت ذات نفع كبير لمعركته الحاسمة ضد عكا [١]. وقد صمتت المصادر ، من عربية وأجنبية ، عن الحديث عن أى دور للجنوية وآل امبرياتشى بصفة خاصة لصالح الصليبيين أثناء فترة الحصار، باستثناء بعض السفن الجنوية والتى قامت بإنقاذ ملك قبرص ونقله إلى جزيرته [٢]. وفى مثل هذه الظروف أعلن الجنويون عن رغبتهم فى الحصول على أية مكاسب تجارية مقابل تعاونهم مع الفرنج. فعندما اشتد الحصار حول عكا تزاحم الناس على السفن الراسية بالمينا وكان معظمها للجنوية الذين قاموا بنقلهم على الفور إلى أوربا. وقد أثرى الجنوية كثيرًا فى مثل هذه الظروف ، ونسوا تمامًا كل اتفاق كان يربطهم بالمسلمين فمصلحتهم الذاتية كانت فوق أى اعتبار ، سواء أكان ذلك بتحالفهم مع بنى جلدتهم من الفرنج ضد المسلمين، أو باتفاقهم مع المسلمين ضد الفرنج . بمعنى أن المصلحة الخاصة كانت تتحكم فى مواقفهم وسياستهم حيال طرفى الصراع .

على أية حال ، بعد حصول الأشرف خليل على عكا تقدم نحو جبيل واستولى عليها دون قتال. وقد مر المؤرخون العرب واللاتين مرور الكرام على استيلاء الأشرف عليها، ولم يذكروا أية محاولات لمقاومة حصار الأشرف لها . كما لم يذكروا السبب الرئيسى الذى من أجله أعاد الأشرف المدينة لسلطته، ولكن يرجح أن ما قام به الجنوية من المشاركة فى نقل الفرنج من عكا قد أثار حنق الأشرف، وشعر بحنين الجنوية الدائم لبنى جلدتهم، فقرر تطهير الساحل بأجمعه من الفرنج . وإن كان هذا لايمنع من القول بأن الأشرف كان قد عقد العزم على القضاء على آخر المعاقل والجيوب الصليبية فى الأراضى المقدسة امتدادًا لسياسة قلاوون وبيبرس، فى وقت كان فيه الثقل فى الصراع بين المسلمين والصليبيين يميل بقوة ووضوح لصالح المسلمين، وفى وقت كانت دولة المماليك البحرية تمثل قلب العالم العربى الإسلامى النابض بالحركة والحياة

١- سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص١١٧٥ .

٢- مصطفى الكتانى : العلاقة بين جنوة والفاطميين، ص١٧٣ .

ومراكز إمداده الدائم بالمال والرجال والمؤن والسلاح وكيفما يكن، فقد اتجه الأشرف نحو صيدا وبيروت وحيفا وصور وعثليت وتمكن من الاستيلاء عليها جميعها[١]. وقد جذب سقوط عكا انتباه كثير من المؤرخين [٢]، لدرجة أنهم لم يتحدثوا بتفصيل عن سقوط المعاقل الأخرى ، وخاصة جبيل التي وقعت في قبضة الأشرف في ١٨ من مايو ١٢٩٢م / ١٧ من جمادى الأولى ٦٩٢هـ .

وقد ذكر ابن كثير أن الأشرف لم يفتح جبيل بنفسه، بل أرسل قائده الأمير علم الدين سنجر الشجاعي لفتحها [٣]. ومما يؤكد أيضًا عدم تعرض مدينة جبيل لهجوم عسكري من قبل المسلمين، هو ما أشار إليه ابن بهادر وابن الشحنة بقولهما «أنه بعد سقوط عكا أصاب الفرنج الرعب وقاموا بإخلاء مدن صور وانطرطوس وجبيل وعثليت ودخلتها جيوش المسلمين [٤]. وهذا يدل على فتح المدينة سلمًا وليس بقوة السلاح. وعلى الفور قام الملك الأشرف بإصدار أوامره بهدم أسوار جبيل وباقي المدن الأخرى وتسويتها بالأرض حتى لايعاود الفرنج الأمل في استردادها . وكانت هذه هي السياسة العامة التي سار عليها المسلمون بالنسبة لكل الموانئ والمدن والمعاقل التي استردها من الصليبيين .

وبعد ذلك بقليل توفي السلطان الأشرف خليل في ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م[٥] وهكذا وبوفاته وضعت النهاية الحقيقية لحركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين . وعلى الرغم مما حققته الحركة

١- حول سقوط باقي مدن الشام الفرنجية أنظر: ابن دقماق : الجوهر الثمين، ورقة ٣٥٥، بيبرس الداودار: زبدة الفكرة ، ج٩ ، لوحة ٢٨٩ ، ابن بهادر : فتوح النصر، ورقة ٣٦٥ ، ابن الشحنة : روض المناظر: ورقة ١٦٣ أ، ابن الفرات : تاريخ الدول ، جـ١٥ ، ورقة ٨٤ ، العليمي: الأنس الجليل ، ص٣٣٥، البغدادي: عيون الأخبار ، ج٢ ، لوحة ٤٣٦ وأيضًا :

Annales de Terre Sainte , A.O.L., t. II, pp. 460-61 ; Testament de Notre Seigneurs, R.O.C., t. I., p. 270 ; Reinaud, Op. cit. p. 563 .

٢- أشار ابن خلكان إلى سقوط عكا أنه كان بعد سقوط جبيل، وفي هذا يقول «أنه بعد أن فتح قلاوون طرابلس اتجه منها إلى جبيل واستولى عليها . وفي الواقع فإن قلاوون اتجه نحو جبله وليس جبيل التي أبقاها كما هي تحت حكم صليبي إلى أن فتحت بعد عكا. وللمزيد : أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٥، ص٨٨ .

٣- ابن كثير: البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٣٢١ .

٤- ابن بهادر : فتوح النصر ، ورقة ٣٦٥ ، ابن الشحنة : روض المناظر ، ورقة ٣٦٣ .

٥- ابن أيبك : كنز الدرر، ج٨ ، بيبرس الداودار : زبدة الفكرة ، ج٩ ، لوحة ٣٠٩ ، العيني : عقد الجمان ، ج٢١ ، لوحة ٢٠ ، ٢١ ، السلامي: مختصر التواريخ ورقة ٦٩ .

الصليبية من نجاح فى بدايتها ، فإن هذا كان مرجعه أولاً وأخيراً إلى حالة الضعف التى كانت تنتاب المعسكر الإسلامى من ان لآخر ، وما صحبه من خلافات مذهبية وسياسية ودسائس ، بالإضافة إلى أن المساعدات الضخمة التى كان يتلقاها الفرنج بين وقت وآخر من المدن الإيطالية، وهى بيزا وجنوة والبندقية، كانت ذا أثر بالغ الأهمية، لدرجة القول إنه لولا تلك المساعدات ما استطاع الفرنج تحقيق شئ من وجودهم ببلاد الشام(١).

وهكذا فإن سقوط عكا ورحيل آل امبرياتشى أصحاب جبيل من مينائها هو آخر ما ذكر عنهم فى بلاد الشام. وقد روى أحد المؤرخين الغربيين الحديثيين وهو كنج King أن صاحب جبيل رفض آنذاك الخروج من المدينة بعد أن توجه إليها المسلمون ، وتمسك بالأرض التى عاش عليها أجداده قرابة قرنين من الزمان ، منذ عهد وليم وهيو امبرياكو ، حين كانت دفة الأمور تتجه بشدة ناحية الصليبيين (٢). واضطروا أخيراً لمغادرة جبيل ولكنهم اتجهوا بعد ذلك إلى جزيرة قبرص وبدأوا يمارسون نشاطهم التجارى فى حين اتجه بعض أفراد أسرة امبرياتشى إلى جنوة مباشرة وبدأوا يستعيدون ذكريات الماضى البعيد يوم أن كان لهم الجاه والسلطان فى جبيل وغيرها من مدن الشام. وقد ظلت أسرة امبرياتشى تحمل نفس اللقب الخاص بأمير جبيل، أو صاحب جبيل ، سواء فى قبرص أو جنوة ، وعمل أفرادها على تدعيم نفوذهم داخل قبرص ، واستمروا حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (نهاية القرن التاسع الهجرى) حيث قام صراع عنيف بين آخر فرد من أسرة امبرياتشى وبين أحد البنادقة . وقد قبض البنادقة عليه حيث نقلوه إلى البندقية ، وفى الطريق انتحر آخر سلالة أسرة امبرياتشى ، وبموته ماتت ألقاب امبرياتشى وانتهت من الوجود داخل إيطاليا وخارجها (٣).

ولعله من المفيد هنا الإشارة إلى النظام الذى اتبعته أسرة امبرياتشى لحكم جبيل فى فترات خضوعها للفرنج . فمن المعروف أن جنوة منحت أفراد هذه الأسرة النبيلة المعروفة بأسرة الفيكونتات Viconts ، الكثير من النفوذ والهبات وذلك بموافقة كنيسة القديس لورنزو St.Loranzo وكانت مدينة جبيل هى الرائدة فى التواجد الجنوى بأجمعه فى الشرق الأدنى.

١- مصطفى الكنانى: العلاقات بين جنوة والفاطميين ، ص١٧٤ .

٢- King, Op. cit., p. 299 .

٣- مصطفى الكنانى : المرجع السابق ، ص٢١١-٢١٢ .

فبعد موت مؤسس الأسرة ، توافدت أعداد لاحصر لها كان من الجنوية عامة وآل امبرياتشى بصفة خاصة على جبيل ، وكان ذلك سعياً وراء الجاه والسلطان الذى كانوا يحلمون به ليس فى جبيل وحدها بل فى كل مدن الشام. ولاجدال أن جنوة تدين بهذا النفوذ أولاً وأخيراً إلى الأمير ياتشين . فمن جبيل انطلق الجنوية إلى كافة المراكز والأملاك الجنوية ببلاد الشام. وبلغ من نفوذ تلك الأسرة ، حسبما أوضحنا سابقًا أن قومون جنوة عقد معها العديد من عقود الإيجار لإدارة أملاكه بالشام. مثال ذلك عقد إيجار أملاك القومون فى عكا لمدة عشرين سنة ، والذى وقع فى عام ١١٥٤م / ٥٤٩هـ (١). لذلك حصلت تلك الأسرة على أملاك ضخمة داخل عكا وأنطاكية واللاذقية وغيرها من مدن الشام، مما أدى إلى اتساع نفوذها وتعزيز كيانها ، لدرجة أنها رفضت دفع أية مستحقات تدين بها لجنوة الأم.

لقد ازداد سلطان أسرة امبرياتشى داخل جبيل وخارجها منذ أوائل القرن الثانى عشر الميلادى / أوائل القرن السادس الهجرى، لدرجة أن طغى آل امبرياتشى وتكبروا على جنوة الأم نفسها، وأهملوا كل احتجاج تقدمت به البابوية لحثهم على دفع مستحقات قومون جنوة. ومما لاشك فيه أن الحرب الأهلية التى حدثت داخل جنوة نفسها بينها وبين بيزا حول جزيرة سردينيا ، كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى استمرار أسرة امبرياتشى فى سياستها الانفصالية عن جنوة. ونتيجة للظروف الاقتصادية السيئة التى مرت بها حكومة جنوة فى هذه الفترة ، فقد أرسل قومون جنوة سفارة إلى أسرة امبرياتشى عام ١١٦٨م / ٥٦٤هـ عقدت بمقتضاها معاهدة كفلت فيها أسرة امبرياتشى الحرية التجارية للجنوية واعفائهم من كافة الرسوم فى جبيل وتوابعها(٢) مما يدل على مدى النفوذ التى تمتعت به أسرة امبرياتشى فى بلاد الشام وليس فى جبيل فحسب .

وتعد فترة الحكم الصليبى الثانى لجبيل بعد استعادتها من المسلمين فى ١١٩٧م / ٥٩٣هـ، من أكثر الفترات التى شهدت فيها جبيل نفوذ تلك الأسرة أكثر من ذى قبل، لدرجة أن قومون جنوة لم يعد له أى سلطان عليها(٣)، لقد كان تمركز آل امبرياتشى فى جبيل فرصة سهلت

١- Byrn, Op. cit., p. 149 .

٢- مصطفى الكنانى : جنوة والشرق الادنى، ص٢١٠ .

٣- Byrne , Op. cit., p. 160 .

مـهمة كل تاجر جنوى بالشرق الأدنى بطريق غير مباشر ولم تكن أسرة امبرياتشى مـخلصة تماما تجاه قومون جنوة، ولكن أفرادها لم يبخلوا بأية مساعدات لبنى جلدتهم [١]. لتسـهيل مهمة وجودهم ببلاد الشام، خاصة أنه كان وراء هذا قدر من المصالح الخاصة لهم، حقيقة أنه بعد استيلاء صلاح الدين على جبيل تضاءل نفوذ آل امبرياتشى داخل جنوة وخارجها ، ولكن مع بداية عـام ١٢٠٠م / ٥٩٦هـ حين قـامت ثورة الأسـر النبـيلة داخل جنوة، تمكن آل امـبرياتشى من استـعادة نفـوذهم على جنوة مـرة أخرى. وقـامت الأسـرة بتـعيين جـودكس كاستيللو Judex Castillo للإشراف على الوجود الجنوى بعكا وتحصيل الإيجارات باسم أسرة امبرياتشى وليست باسم قومون جنوة ، فضلا عن الحصول على ثلث دخل ميناء عكا[٢].

أما عن نظام حكم أسرة امبرياتشى لجبيل ، فقد حكمتها باعتبارها أحد المراكز الجنوية الخاضعة إداريًا لهيئة على رأسها القناصل والفيكونتات الذين كانوا بمثابة السلطة المحلية القضائية، وأصبح من حق أسرة امبرياتشى أن تنظر فى شئونها الداخلية فى محاكم خاصة بها ، وقد أقيمت تلك المحاكم بعد مجئ الحملة الثالثة إلى بلاد الشام. وسمح لها بذلك نظرا للدور الخطير الذى لعبه الجنوية وآل امبرياتشى فى هذه الحملة، فكانت تلك المحاكم بمثابة امتياز جديد حصلت عليه الأسرة يضاف إلى امتيازاتها الأخرى العديدة[٣].

وهكذا تمتعت جبيل تحت حكم أسرة امبرياتشى بقدر كبير من الاستقرار الاقتصادى والازدهار الذى لم تشهده أى مدينة إفرنجية أخرى فى الأراضى المقدسة فى عصر الحروب الصليبية، مما يلقى الضوء على الظروف التى أحاطت بجبيل دون غيرها فقد أصبح لها مكانة مـرموقة وثقلاً عظيمًـا بين الفرنج . واستـمرت المدينة على هذا الوضع حتى نهاية الوجـود الصليبى بها، بعد أن فشل فى تحقيق أهدافه، وبعد أن نجح المسلمون فى ازاحته من المنطقة . وعادت جبيل إلى حكامها الأصليين من المسلمين لتنتهى بذلك تلك الصفحة من العلاقات الصليبية الإسلامية ، ومع ذلك فإن الصراع الصليبى الإسلامى لم ينته بقضاء الأشرف خليل على جبيل وآخر المعاقل الصليبية على الساحل الشامى فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى/

١- Byrne, pp. 155-159 .

٢- Byrne, p. 157 .

٣- Byrn , pp. 165-166 .

أواخر القرن السابع الهجرى، إذ قامت محاولات أخرى فى القرن الرابع عشر الميلادى/ القرن الثامن الهجرى، ولم يكن مصيرها بأفضل من سابقتها . لقد منيت تلك المحاولات كلها بالفشل، ولم يبق للفرنج من وراء ذلك كله سوى ذكريات أليمة لماض سحيق ، بعد أن دق آخر مسمار فى نعش الحركة الصليبية فى موقعة نيكوبوليس Nicopolis الشهيرة ١٣٩٦م / ٧٩٩هـ، التى قامت بها أوروبا بأسرها لا لإخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول إلى قلب دولة المماليك فى بيت المقدس أيضًا . وكان الحصاد هو تلك الهزيمة الساحقة التى منيت بها الحملة وإسدال الستار على عصر الحروب الصليبية [١].

١- للمزيد من المعلومات عن دعاة القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثالث من الهجرى) لأحياء الفكرة الصليبية، والحملات الصليبية التى قامت فى ذلك القرن، أنظر:

Atiya, A.S., The Crusade of Nicopolis, London , 1934 , Idem. The Crusade in the Later Middle Ages, London , 1938 ; Idem, Crusade, Commerce and Culture , Bloomington, 1962

الخاتمـــة

استعرضنا على امتداد الفصول السابقة الدور السياسى لمدينة جبيل وأثره على العلاقات الصليبية الإسلامية، ومواقفها حيال طرفى الصراع التى تأرجحت بين السلم والحرب، وإن كان الطابع العدائى هو الغالب عليها. كذلك تناولنا بالدراسة التحليلية العديد من القضايا الهامة التى فرضت نفسها ، والكثير من التساؤلات التى ألحت فى طلب الاجابة عنها. واتضح أن صاحب جبيل أثناء خضوعها للفرنج كان مناصرًا لبنى جنسه من أهل الغرب اللاتينى وعدوا لدودا للمسلمين . وفى بعض الأحيان انفرد صاحب جبيل باتخاذ موقف عدائى من المسلمين دون أية مساعدة من قبل افرنج الشام. وفى أحايين أخرى اتسمت علاقته بالمسلمين بطابع سلمى. بل لقد بذل قصارى جهده لإبرام اتفاقيات سلام مع المسلمين حين ساءت علاقاته مع بنى جلدته من الفرنج ومن وراء ظهورهم . وفى بعض الأحيان كان صاحب المدينة يتنصل من الوقوف إلى جوار الصليبيين أملاً فى الانضمام إلى قوة لها وزنها وثقلها لحمايته ضد الخطر المغولى الذى هدد بلاد الشام فى وقت من الأوقات. بل شجع المسلمين على تملك واحدة من أكبر الإمارات الصليبية بالشرق وهى طرابلس [1].

وإذا أمعنا النظر فى هذه المواقف التى اتخذها صاحب جبيل اللاتينى حيال كل من المسلمين والصليبيين، والتى قد يبدو فيها التناقض والتطرف ، فإننا سوف نجد أنها كانت أولا وأخيرا تتكيف لتتمشى مع مصالح حكام جبيل من اللاتين من أسرة امبرياتشى الجنوية أولا وقبل أى شئ آخر، وإذا عرفنا أن شعار الجنوية أثناء الحروب الصليبية هو «نحن جنوية أولا وأخيرا»، فسوف نتفهم لماذا تلونت جبيل أثناء حكم آل امبرياتشى لها فى سياساتها حيال الصليبيين والمسلمين، ولماذا ناصرت طرفًا ضد الآخر أو العكس. وأيضا لماذا اتخذت أحيانا موقف الحياد حيال الطرفين. كانت مصالحها الخاصة هى التى تتحكم فى تكييف مواقفها إزاء الطرفين وطبقًا لمقتضيات الظروف والأحوال السائدة فى وقت ما من سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها فى العالمين الإسلامى والمسيحى بعامة وفى الأراضى المقدسة بصفة خاصة.

١- انظر الفصل الخامس من الكتاب .

كذلك توصلنا إلى العديد من النتائج الهامة التى حددت دور جبيل فى خضم هذا الصراع. وقبل الإشارة إلى هذه القضايا التى تناولناها والنتائج التى توصلنا إليها، يجدر الإشارة إلى الشذرات المتناثرة هنا وهناك فى بطون المصادر العربية والأجنبية ، عن أنواع أخرى من العلاقات التى قامت بين جبيل والمسلمين فى مصر والشام إبان الفترة موضوع الدراسة، من اقتصادية وثقافية وغيرها. وهى إما تتحدث عن جبيل مباشرة وإما ضمنا عند الحديث عن العلاقات التى كانت قائمة بين كونتية طرابلس اللاتينية والمسلمين باعتبار جبيل كانت تابعًا قويًا لها فى أغلب فترات الحركة الصليبية. ونظرًا لوقوع جبيل على ساحل البحر المتوسط وبالقرب من نهر إبراهيم ، كان يزرع بها شتى أنواع المحصولات التى اشتهرت بها مصر والشام . فزرعت قصب السكر والنارنج والموز والموالح والتمر، وقامت فيها العديد من الصناعات على هذه المحصولات ، مثل صناعة السكر الذى كانت تصدره إلى أوروبا. كما استخلصت زيت النخيل وأنتجت الورق الذى اشتهرت به وتفوقت فيه على طرابلس [١]، والأصباغ القرمزية وقد اشتهرت بها منذ العهد الفينيقى . كذلك اشتهرت جبيل بصناعة المنسوجات الحريرية وغيرها. وقد وصفها ناصر خسرو بأنه كان يوجد بها شتى أنواع الأطعمة والمأكولات الشهية لم يوجد مثيلها لدى المسلمين. كذلك شهدت جبيل تقدما رائعا فى مجال فن العمارة ، منذ عهد بنى عمار فقد زود الفاطميون مدينتى طرابلس وجبيل بشتى أنواع الفن المعمارى، وبنى بها المساجد والمدارس والخانقاه والمنشآت المدنية المختلفة كالحمامات والخانات والأسواق والجسور وغيرها. كما بنى بها فى العصر الصليبى العديد من الكنائس والكاتدرائيات والأبراج والأسوار الدفاعية بالإضافة إلى القلعة الشهيرة داخل جبيل والتى بناها آل امبرياتشى .

كذلك تبادلت جبيل شتى أنواع المعاملات التجارية مع مسلمى مصر والشام. فقد كان لها ميناء واسع يتسع لعدد كبير من السفن . وإن اشتهارها بانتاج الكثير من المحاصيل الزراعية تطلب ضرورة تصريف الفائض منها إلى الخارج. وفى الواقع لم تكن جبيل حديثة العهد فى ازدهارها الاقتصادى ومعاملاتها التجارية، بل كانت منذ أقدم العصور مرتعًا خصبًا لقدوم السفن لاستيراد الأخشاب والورق وتصديرها لكافة الممالك العريقة المعاصرة لعصرها

١- ناصرو خسرو : سفر نامة ، ص١٢ .

الفينيقى المزدهر. وعلى هذا أضحت جبيل معقلاً لايستهان به فى الناحية الاقتصادية (١). ولكن هذا الازدهار لم يلبث أن اندثر بعد استيلاء الأشرف خليل عليها . فقد قام بتحطيم الكثير من منشآتها ولم يعد لها مكانتها المرموقة التى اشتهرت بها فى عصر التوسع الصليبى.

كذلك شهدت جبيل إزدهاراً علميا رائعًا منذ عهد بنى عمار وحتى نهاية العصر الصليبى(٢)، فقد أصبحت منذ الفتح الإسلامى لها وحتى إستيلاء الصليبيين عليها مركزًا علميًا مرموقا للكثير من الباحثين والدارسين. فقد شيدت فيها دور للعلم وخزائن للكتب وكانت تجتذب العلماء والباحثين والدارسين (٣). وقدم إليها شيوخ الأدب والشعر بل كثيراً ما قدم إلى هذه المراكز العلمية القادة والمحاربون من الفرنج الذين حاولوا الإلمام باللغة العربية . وكان من عوامل إزدهارها ما تمتعت به مدينة طرابلس أيضا فى هذا المضمار من شهرة كبيرة فى مجال العلم والمكتبات حتى إن مكتبتها كانت من كبرى المكتبات الثقافية فى مصر والشام، وحوت على العديد من الكتب النادرة التى دأب بنو عمار فى الحصول عليها(٤). ونظراً لتبعية جبيل لطرابلس فى فترات ممتدة أثناء عصر الحروب الصليبية ، فقد انعكس ازدهار طرابلس العلمى على مدينة جبيل .

على أى حال ، لقدأحب مدينة جبيل كل من زارها من الرحالة العرب والأجانب نظرا لكل نواحى الإزدهار الذى عاشته المدينة منذ فتح المسلمين لها وحتى استيلاء الأشرف خليل عليها .

أما عن الدور السياسى لجبيل وموقفها حيال كل من المسلمين والصليبيين فقد تعرضنا فى الفصل الأول من الكتاب لقضية هامة وهى الخلط الذى وقع فيه المؤرخون القدامى ، وبخاصة العرب حول تاريخ سقوط جبيل، وعما إذا كان قبل طرابلس أم بعدها، وهل تعرضت المدينة للغزو الصليبى قبل سقوطها . ولماذا تأخر وقوع مدينة جبيل فى أيدى الفرنج حتى عام ١١٠٤م / ٤٩٧هـ. وهل حقيقة ما أبداه فخر الملك ابن عمار من تنازلات للفرنج مقابل الرحيل عن ممتلكاته بطرابلس وجبله وجبيل. كما ناقشنا مختلف الآراء التى ثارت حول تاريخ سقوط جبيل

١- الإدريسى: نزهة المشتاق ، ص١٧ .

٢- أنظر المسرح الجغرافى لمدينة جبيل .

٣- The Encyclopaedia of Islam , vol ., I , p. 1057 .

٤- السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، ص٢٨٦ .

وتوصلنا إلى تاريخ محدد بهذا الخصوص. ومن النتائج التى توصلنا إليها فى هذا الفصل تحديد المقصود بمدينة جبيل محور هذا البحث وغيرها من المدن التى حملت نفس الاسم فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى ، والخلاف الذى وقع فيه بعض المؤرخين القدامى حينما خلطوا بين جبيل وجبلة.

ومن القضايا التى تعرضنا لها فى الفصل الثانى قضية عما إذا كانت تبعية جبيل للملك الصليبى تبعية مباشرة أم عن طريق كونتية طرابلس، وهل كانت مساهمة جبيل فى حصار صور عام ١١١١م / ٥٠٥هـ، وصيدا عام ١١١٠م / ٥٠٤هـ، وكانت تابعتين للمسلمين ، قد تم بارادتها أم بحكم تبعيتها لكونت طرابلس ومن ثم للملك الصليبى فى بيت المقدس. كذلك ناقشنا الدافع من وراء هجمات صاحب جبيل الصليبى على سهل البقاع رغم وجود علاقات طيبة بين طغتكين أتابك دمشق وبرتراند صاحب طرابلس والسيد الأعلى لآل امبرياتشى الذى لم يتمكن من كبح جماح هيو امبرياكو حاكم المدينة . ومن بين النتائج التى توصلنا إليها أن آل امبرياتشى لم يكونوا منذ البداية على استعداد لقبول وصاية أحد ولكنها كانت مسألة تقاليد من الإقطاعيات الصغيرة تجاه الإمارات الكبيرة فحسب . وأوضحنا أن مشاركة آل امبرياتشى فى هذه الصراعات ضد المسلمين لم يكن رغمًا عنها بل طوعًا وحبًا فى المزيد من الامتيازات الاقتصادية والاستراتيجية داخل أى مدينة يستولى عليها الفرنج . وأصدق مثل على ذلك وجود اسم امبرياتشى على كل المراسيم والوثائق التى أبرمت طوال عصر الحروب الصليبية، وهذا غنى عن أى إيضاح .

أما الفصل الثالث من الكتاب فمن القضايا التى ناقشناها ، اشتراك أخى صاحب جبيل وليس هيو نفسه فى موقعة مرج عيون عام ١١٧٩م / ٥٩٣هـ ، الأمر الذى اختلف حوله المؤرخون العرب. وبينا أن عدم اهتمام الكثيرين بالتعرض لاسم حاكم جبيل من قبل صلاح الدين بعد حطين، أوجد فجوة بالنسبة لنا تتلخص فى الظروف التى عاشتها جبيل فى ظل الحكم الإسلامى والموضع الإدارى فيها وقتذاك . وقد نوهنا فى هذا الفصل لقضية هامة هى أن سقوط جبيل لم يكن المسئول عنه أولا وأخيرا حاكم المدينة من قبل المسلمين الذى تآمر مع الفرنج وسلمهم المدينة عام ١١٩٧م / ٥٩٣هـ ، ولكن المسؤلية الحقيقية لضياع جبيل من قبضة المسلمين تقع على أمراء البيت الأيوبى بعد وفاة صلاح الدين بسبب الخلافات التى ثارت بينهم. وكان هذا إيذانا باندثار قوتهم وسقوط قلاعهم ومدنهم فى أيدى الفرنج مرة أخرى . وكان هذا

من بين النتائج التى توصلنا إليها حيث أنها تعد صورة مكررة لعصر الضعف الفاطمى والذى أدى إلى سقوط المدينة من قبل عام ١١٠٤م / ٤٩٧هـ فى أيدى الصليبين .

أما الفصل الرابع فمن أهم النتائج التى توصلنا إليها هو بداية الشقاق الذى ظهرت بوادره عام ١٢٠٨م / ٦٠٥هـ بين إفرنج الشام، والذى يتعلق بمشاركة جاى الأول امبرياكو فى حملة رينارد دى دامبيير ضد المسلمين ببلاد الشام فى الوقت الذى رفض فيه باقى الفرنج الوقوف إلى جواره . وتوصلنا أيضا إلى أنه على الرغم من عدم ورود إشارات عن الدور العسكرى المستقل لجبيل فى الحملة الخامسة لصالح الفرنج ، إلا أن هذا لم يمنع مشاركتها فيها. والدليل على ذلك أن جاى امبرياكو كان على رأس السفارة المرسلة من قبل الصليبيين إلى الملك الكامل لإبرام الصلح. وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على المكانة المرموقة التى تمتع بها حكام جبيل اللاتين آنذاك. كما استنتجنا أن موقف جبيل من الامبراطور فردريك الثانى حين قدم إلى بلاد الشام، ثم موقفها منه أثناء رحيله إلى قبرص ومنحه الأموال اللازمة التى طلبها ، وأيضا مشاركة أخى صاحب جبيل فى الصراع الدامى فى قبرص كأحد نواب الامبراطور ضد آل ابلين- كل هذا أثر على علاقة جبيل بالمسلمين، ولم تعد تسلك منهم الموقف العدائى المألوف ، لإنشغالها بالصراع الصليبى فى كل من قبرص والأراضى المقدسة.

وتوصلنا فى الفصل الخامس إلى العديد من النتائج الهامة التى ترتبت على الصراع القائم بين جبيل والفرنج بعامة وبينها وبين مدينة طرابلس والبنادقة بخاصة. فقد اشتد الصراع ، لدرجة أن كونت طرابلس كان سببًا فى مقتل أحد حكام جبيل وهو جاى الثانى، ومن قبله برتراند امبرياكو . والقضية الهامة هنا هى رغبة المدينة فى الاستقلال بشئونها ، مما يدل على السطوة والقوة التى تمتعت بها جبيل فى ظل الحكم الصليبى لها فى أواخر عصر الحروب الصليبية. وقد أشرنا أيضا إلى محاولة تقرب جبيل فى هذه الفترة من المسلمين أكثر من مرة ، الأولى عند اشتداد الخطر المغولى على عهد السلطان قطز ، والمرة الثانية حين ارسل بارثلميو امبرياكو رسالته للسلطان قلاوون يشجعه على تملك طرابلس على أن تكون مناصفة بينهما بعد مقتل بوهمند السابع كونت طرابلس، الأمر الذى ترتب عليه ضياع طرابلس من الفرنج، وبالتالى تفويض النفوذ الفرنجى بأجمعه فى الشام منذ عهد قلاوون وحتى حكم الأشرف خليل الذى استولى عليها بصفة نهائية وأخيرة عام ١٢٩٢م / ٦٩٤هـ .

أما عن جبيل على عهد المماليك فلم تعد تحظى بنفس المكانة التى كانت تتمتع بها فى عصر

التوسع الصليبى ، فقد حطم الأشرف خليل معظم مبانيها وتحصيناتها حتى لاتكون مطمعا مرة أخرى ، ولم يبق إلا على البرج القريب من الميناء وبعض الحصون الممتدة على الساحل من طرابلس إلى جبيل [١]. وهذا يعكس الحال بالنسبة لطرابلس الجديدة التى أنشأها قلاوون، فقد ازدهرت على عهد المماليك وتركزت بها شتى النشاطات التجارية، ومعها بيروت واللاذقية ، خاصة بعد تلاشى أمر عكا وصور وجبيل وأنطاكية[٢]. والدليل على ذلك هو عدم ورود أية اشارات عن جبيل ودورها الاقتصادى فى العصر المملوكى .

وعلى الرغم من إندثار أمر جبيل وسقوطها ومن قبلها أعظم القلاع الصليبية وهى عكا فى قبضة المماليك، فإن ذلك لايعنى انتهاء المطامع الصليبية فى بلاد الشام أو مصر. إذ أخذ قادة الدعوة للحركة الصليبية يمارسون نشاطهم من جديد من أجل الاستحواذ على تعاطف القادة والأمراء الأوربيين معهم، وإن كانت ضغوطهم الدبلوماسية قد أخذت طابعًا جديدًا خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين/ القرنين الثامن والتاسع الهجريين، ذلك أن دعوتهم لم تعد تعتمد على المجالس الدينية مثل مجلس كليرمونت ومجلس ليون الكنسى وغيرها ولكن على المؤلفات والكتب والمذكرات والرسائل الشخصية للقادة بالغرب الأوربى، لشرح أهداف الحركة الصليبية، ووسائل تمويلها وتتبع أخبارها، وسبل انجاحها . ومن هؤلاء الدعاة بطرس ديبوا Pierre Dubois، وبيركارد من جبل صهيون Burcardde Mountsion ورامول لاى Ramol Lay ، وبطرس دى توما Pierre de Thomas وفيليب دى مزيير Philipe de Méziere ، وغيرهم [٣].

وأضحت جزيرة قبرص مرتعًا خصبًا لنمو هذه الفكرة وترعرعها بعد أن أصبحت الملاذ الذى تجمع فيه كل طريد من الفرنج بعد أن استولى المماليك على بقايا حصونهم ومعاقلهم بالساحل الشامى. وقد عمل بطرس لوزنيان ملك قبرص اللاتينى (١٣٥٩- ١٣٦٥م / ٧٦١-٧٦٧هـ) على تجسيد هذه الدعوة فى شكل حملة جديدة كان هدفها مدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ. وما يهمنا فى شأنها هو عدم ظهور ما يدل على اشتراك آل امبرياتشى

١- الإدريسى: نزهة المشتاق، ص١٧ ، ١٨، وأيضًا : السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام، ص٣٩٧ .

٢- السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام، ص٣٨٣ .

٣- جوزيف نسيم يوسف: دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ص٤٦ .

أصحاب جبيل السابقين فيها. فعلى الرغم من هجرتهم إلى قبرص ، إلا أن تلك السلالة اندثرت تماما بمقتل آخرهم على أيدى البنادقة (١). ولكن هذا لايعنى أن عدم اشتراك فرع من الجنويين ، أن كل الجنوية أحجموا عن ذلك. فمن الطبيعى أن تشارك مدينة جنوة بالمال والعتاد لتدعيم الحملة تطبيقا لمبدأها الذى سارت عليه. كما لانستبعد اشتراك بعض الجنويين الذين حملوا لقب امبرياتشى فى الحملة المذكورة ، لأنه ورد فى دورية الشرق اللاتينى Revue Orient Latin أن اسم امبرياتشى انقسم إلى أكثر من فرع، ظهر الفرع الثانى وترعرع فى قبرص منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادى / أوائل القرن الثامن الهجرى، ولكن هذا الفرع لاعلاقة له بسادة جبيل السابقين(٢)، الذين تناولنا تاريخهم على صفحات هذا البحث.

ومهما يكن ، فقد أخذت مدينة جبيل تنكمش وتتقوقع بالتدريج، ولم تعد لها الأهمية التى كانت تتمتع بها فى الفترة الزمنية موضوع البحث. وهكذا أسدل الستار على صفحة من تاريخ الصراع الصليبى الإسلامى، يرتفع عن صور ومشاهد أخرى للصراع بين الشرق والغرب تشكلت لتتلائم مع الظروف والأحوال.

١- أنظر الفصل الخامس من الكتاب.

٢- Les Seigneurs de Giblet, in R. O. L., t. III, p. 407 ; Bruc, Op. cit., p. 136 .

أسماء سادة جبيل والتسلسل الزمنى لمدد حكمهم بالتقويمين الهجرى والميلادى

نقلا عن :

Grousset, R., Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, t. III.

١- وليم امبرياكو Guillaume I (١١٠٩-١١١٨م / ٥٠٣-٥١٢هـ) (١).

٢- هيو الأول امبرياكو Huge I (١١٢٧-١١٣٥م / ٥٢١-٥٣٠هـ)(٢) .

٣- وليم الثانى امبرياكو Guillaume II (١١٣٥-١١٥٩م / ٥٣٠-٥٥٤هـ) .

٤- هيو الثانى امبرياكو Huge II (١١٥٩-١١٨٤م / ٥٥٤-٥٨٠هـ) .

٥- هيو الثالث امبرياكو Huge III (١١٨١-١١٨٦م / ٥٨٠-٥٨٢هـ) .

٦- جاى الأول امبرياكو Gyu I (١١٩٣-١٢٣٣م / ٥٩٠-٦٣١هـ) (٣).

٧- بوهمند الخامس Bohémond V (١٢٣٣-١٢٥٢م / ٦٣١هـ - ٦٥٠هـ) (٤).

٨- هنرى امبرياكو Henry (١٢٥٢-١٢٦٢م / ٦٥٠-٦٦١هـ) (٥).

٩- جاى الثانى امبرياكو Guy II (١٢٧١-١٢٨٢م / ٦٧٠-٦٨١هـ) .

١٠- بارثلميوا امبرياكو Barthélemy (١٢٨٧-١٢٨٨م / ٦٨٦-٦٨٧هـ) .

١١- بيير امبرياكو Pierre (١٢٨٨-١٣١٠م / ٦٨٧-٧١٠هـ) (٦).

١- لم يحدد جروسيه بدقة تاريخ تولى أول فرد من أسرة امبرياتشى حكم جبيل وذكره بأنه وليم. ولكن أول حاكم هو هيو امبرياكو ، وحكم منذ عام ١١٠٤ وليس ١١٠٩، أى بعد سقوط جبيل مباشرة فى أيدى الصليبيين. وللمزيد انظر الفصل الأول من الكتاب .

٢- لم يتسن لنا معرفة من حكم من أسرة امبرياتشى من الفترة ١١١٩-١٢٢٦م .

٣- الفترة من ١١٨٧-١١٩٢ كانت فيها جبيل فى حوزة المسلمين ولذا لم يذكر جروسيه من حكم فيها من أسرة امبرياتشى لابتعادهم عن المدينة. وللمزيد أنظر الفصل الثالث من الكتاب .

٤- حكم بوهمند الخامس جبيل بصورة غير مباشرة ، وذلك بحكم أنه ابن بلايسانس سيدة جبيل والتى كانت زوجة لبوهمند الرابع. أنظر الفصل الرابع من الكتاب .

٥- الفترة من ١٢٦٣-١٢٧٠م لم يحدد جروسيه من حكم جبيل فيها ، سوى أنه ذكر أن هنرى امبرياكو قد تزوج من ايزابيلا ابنة باليان ابلين سيد بيروت .

٦- اختلفت الروايات الأجنبية والعربية حول اسم آخر حاكم لجبيل . فقد جاء فى دورية الشرق اللاتينى أنه بيير ابن جاى امبرياكو الذى هرب إلى قبرص، فى حين ذكرت المصادر العربية أن «سيرجى» أو جاى. والمرجح أنه بيير ابن جاى الثانى الذى عاد من قبرص بعد استقرار الأمور داخل جبيل على عهد السلطان قلاوون. وللمزيد أنظر : الفصل الخامس من الكتاب .

قائمة المصادر والمراجع

بيان بالمختصرات

A. O. L	Les Archives de L'Orient Latin
Bib. des Crois	Michaud Biblothé que des Croisades .
Encyc. American	Encyclopaedia American, editor in chief A.H. 1945.
Encyc. Brit.	Encyclopedia Britannica .
Encyc. of Islam	Encyclopedia of Islam .
G.D.F.	Bongars, Gesta Dei Per Francos .
P.P.T.S.	Palestine Pilgrims Text Society .
R.H.G.F.	Recueil des Historiens des Gaules et de la France .
R. H. C. Doc. Arm	Recueil des Historiens des Croisades Documants Armeniens .
R. H. C.- H. Occ	Recueil des Historiens des Croisades Historiens Occidentaux .
R. H. C.- H.	Or. Recueil des Historiens des Croisades Historiens Orientaux .
R. O. C.	Revue de L'Orient Chrétien .
R. O.L.	Revue de L'Orient latin .

مجموعات الحروب الصليبية

Recueil des Historiens des Croisades, publie par le Soins de L'Académie des Inscriptions et Belles - Lettres, in 16 huge folio vols , Paris, 1841-1906 .

I . Historiens Occidentaux, 5 tomes (1844-1895) .

II. Historiens Orientaux (Arabes), 5 tomes (1872-1906) .

III. Historiens Grecs, 2 tomes (1875-1881) .

IV . Documents Arméniens, 2 tomes (1869-1906) .

V. Loisou Assiser de Jerusalem , 2 tomes (1869-1906) .

Bouquet , **M** (ed) . Recueil des Historiens des Gaules et de la France , 24 Vols., Paris, 1738- 1904 .

Reinaud, M., Extraits des Historiens Arabes relatife aux guerres des Croisades, Paris , 1829 .

Les Archives de L'Orient latin, Pupilees Par la Societé de L'orient latin, 2 vols ., Paris , 1881 et 1887 .

Textes, inventaires, et études originales.

Palastine Pilgrims' Text Society . 13 vols. and general Index, London, 1887-1897 .

Revue d'L'Orient latin , Pupliée sous la direction de MM. le marquis de vogué et ch. Schefer Paris , 1893-1991 .

Revue de L'Orient Chrétien , dirigée par R. Craffin et F. Nau Paris, 1905-1924 .

المصادر الأصلية الأوروبية

Actes du Notaire Genois lumberto De Sambuceto ., in R. O. L., t, II , Paris, 1893 .

Actes Genois d'Armenie, in A. O. L., t. I, Paris . 1884. p. 434 .

Albert d'Alix, Histoiria Hierosolymitana, Ed. R.H. C.H. Occ, t. IV, Paris , 1879 , pp. 265-713 .

Ambroise , The Crusade of Richard Lion - Heart , Translated from the old french by Merton Jerome Hubert , with notes and documantation by . J.L. lamonte New York , 1941 .

Annales de Terre Sainte , 1095-1291 , Pupliceé's par R. Rohricht et G. Raymond, in A.O.L., t. II, Paris, 1884, pp. 429-461 .

Anonymous , Gesta Francorum , R.H.C.- H. Occ, t, III, Paris. 1866, pp. 122-163 .

Auctor Radulfo Codomensi, Gesta Tancredi In Expeditione Hieroslymitane, A. H. C.- H. Occ, t. III, Paris , 1866, pp. 603-716 .

Assises de la Haute Coure, in Assises de Jerusalem, t. I, Paris 1841 , pp. 475-571 .

Baldrici Episcopì , Histoire Jeruslimitana, R. H. C., - H. Occ , t , IV , Paris , 1879 , pp. I-III.

Caffaro Caschifelone , De Liberatione Civitatum Orientis Liber . Ed. R.H.C.- H. Occ., t. V. pp. 747-73 .

Chartes des Comtes de Dampierre , in A. O. L., t., II, Paris 1884, pp. 184-207 .

Eracles , L. Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer, Ed . R.H.C.- H. Occ., t. II, Paris , 1859, pp. I- 181 .

Fetellus, Description of the Holy Land . Cf . P. P. T. S., vol . V London 1892 .

Fouchere of Chartres, A History of Expedition to Jerusalem (1095-1127). Trans . by Frances Rita, Ryan (Sister of St. Joseph), Edited with Introductions by Garlod S. Fink- knouville, U. S. A., 1969 .

Guberti Abbatis , Gesta Dei per Francos, R.H.C.- H. Occ., t. IV , Paris 1879 . pp. 124-201 .

Hethoum , comte de Groigos , Table Chronlogique , Ed. R. H .C.- Doc Arm., t. I, Paris. 1869 , pp. 469-490 .

Histoire des Princes d'Antioche , Bohemond V. in , R.O.L. t. 4, Paris , 1893 , p. 398 .

Historia Gotfridi, Anonymi Rhcn . Hist, Et Gesta Ducis Gotfribi , R.H.C.- H. Occ, Paris , 1879 , pp. 439-452 .

Jeane dIblin , Assises de Jeruslem, 2 toms, Paris, 1841, pp. 5-499 .

Imaginibus Historiarum , R.H.G.F., t. 17 , Paris, 1868 , pp. 615-659 .

Jaques de Vitry , Bishop of Acrc Subsequently Cardinal Bishop Tuscubusm legate in France and Germany in P.P.T.S., vol , II, London , 1896, p. 19 .

John Poloner's Descripition of the Holy Land , in P.P.T.S., vol . 6 London, 1893 , p. 33 .

Joinville , Jean de , Memoris of Louis IX King of France (Commonly called Saint Louis) . An English translation by colonel Johns of hafod . Cf. chronicles of Crusades Bohn's ed. London , 1948 , pp. 341-556 .

Les Gestes des Chiprois , Ed , R.H.C.- Doc Arm, t. II, Paris 1906, pp. 654-871 .

Les lignages d'Outremer , in Assises de Jerusalem , t. II, Paris 1843, pp. 449-474 .

Marino Sanuto's , Secretes for true crusades to help them to recover the Holy land , trans. by Amury Stewart , in P.P.T.S., vol . 12 , London 1895 , p.6 .

Mathew d'Edesse . Chronique . (962-1136) in Bibiotheque Historique R.H.C- Doc. Arm, C.I Paris, 1869, pp. 1-149 .

Mathew of Westminster , the Flowers of History , 2 vols., London 1953 .

Michel Le Syrian , Extrait de la chronique de Michel le syrien R. H. C. - Doc . Arm , t. I, Paris , 1869, pp. 310-411 .

Oliver of Padenborn, The Capture of Damietta , trans by John J. Gavigan, phila delphia, 1948 .

Robert Monachi, Historia Iheraslimitane, R. H. C. H. Occ., t. III, Paris , 1866-, pp. 756-882 .

Roger of Hoveden, Annals, Comprising the History of England and other countries of Europe from A. D., 732 to A. D. 1201 , Ttans . from the latin with notes and illustrations by Henry T. Riley , 2 vols ., London 1883 .

Rothelin , Continuation de Guillaume de Tyre , dite du manuscrit de Rothelin (1229-1261) ed. R.H.C.O. Occ., vol II, Paris , 1859 , pp. 49-639 .

Sur , La Prise De Jérusalem, R. H.C.H. Doc. Arm., t. I., Paris , 1869 , pp. 224-30 .

Testament de Notre Seigneures R. O. C.I, I, Paris , 1906 , p. 270 .

Tudebodus, Imitatus et continuatus , Historia Peregrinorum , R. H. C.- H. Occ., t. III , Paris , 1866 , pp. 170-228 .

Vita Henrici II Angliae Regis, R.H.G.F, t. 17 , Paris 1873, pp. 437-545 .

William of Tyre, Ahistory of the Deeds done beyond the sea trans , and annotat ed by E.A. Babcock and A.C. kery , 2 vols ., New York , 1943.

المخطوطات والمخطوطات المصورة

ابن أبى السرور : (١٠٢٨هـ / ١٦٩٦) محمد بن محمد بن أبى السرور زين الدين البكرى:
«عيون الأخبار ونزهة الإبصار» ، دار الكتب المصرية، رقم ٧٢ تاريخ .

ابن أيبك : (ت ٧٣٢هـ- ١٣٣١م) أبوبكر بن عبدالله :

١- «درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان» ، مكتبة البلدية، رقم ٣٨٢٨هـ،

٢- «كنز الدرر وجامع الغرر»، ج٩، دار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ .

ابن بهادر : (عاش فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى) محمد بن محمد بن بهادر:

«فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر»، دار الكتب المصرية، رقم ٤٩٧٧ تاريخ .

ابن الجوزى «سبط» (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٧م) أبو الظفر شمس الدين يوسف ابن قزاؤغلى
«مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان»، ج٨، دار الكتب المصرية، رقم ٢١٨١ تاريخ.

ابن دقماق : (ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٧م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن إيدمر العلائى .

١- «نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام» الموجود منه قطعتان : إحداهما تبتدى من عام ٦٢٨هـ وتنتهى بعام ٦٥٩هـ، وهى التى رجعنا إليها، دار الكتب المصرية رقم ١٧٤٠ .

٢- «الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين، دار الكتب المصرية رقم ١٥٢٢ تاريخ .

ابن الشحنة الحلبى: (ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م) أبو الوليد محب الدين محمد بن محمد «روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر» دار الكتب المصرية، رقم ٤٥ تاريخ .

ابن الفرات : (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠١م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم على «تاريخ الدول والملوك» ، ١٨ مجلداً، دار الكتب المصرية ، رقم ٣١٩٧ .

أبو المحاسن : (٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى:

«المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى»، ٣ ج، دار الكتب المصرية، رقم ٢٣٥٥ .

بامخرمة : (عاش فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى) أبو محمد بن عبدالله بن أحمد بن على :

«قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر» ، ٦ج ، دار الكتب المصرية ، رقم ٤٤١٠ تاريخ .

البغدادى : (ت ١١٠٢هـ / ١٦٩٠م) أحمد بن عبدالله :

«عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصر والأزمان»، ٢ ج، دار الكتب المصرية، رقم ٣٨١٠ تاريخ .

بيبرس الداودار : (٧٢٥هـ / ١٣٣٥م) الأمير ركن الدين بيبرس المنصورى:

«زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة»، ج٩ ، مكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٨، ٢٤ تاريخ .

الذهبى : (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز شمس الدين.

«تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام» قطعتان فى مجلد واحد : الأولى منها تشتمل على الطبعة ٢٧ سنة ٢٦١هـ : سنة ٢٧٠هـ، والثانية من سنة ٥٤٦هـ إلى سنة ٦٥٠هـ، دار الكتب المصرية، رقم ١٤٥٢ تاريخ .

السلامى : (تاريخ الوفاة غير معروف) شهاب الدين أحمد:

«مختصر التواريخ»، دار الكتب المصرية، رقم ١٤٣٥ تاريخ .

الصفدى : (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) صلاح الدين أبو الصفا خليل:

«الوافى بالوفيات»، ٧ ج فى ١٧ مجلد - دار الكتب المصرية، رقم ١٢١٩ تاريخ.

العينى: (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م) بدر الدين أبو محمد بن أحمد بن موسى.

«عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» ٢٣ جزء فى ٦٩ مجلداً ، دار الكتب المصرية، رقم ١٥٨٤ تاريخ .

الفازانى : (عاش فى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى) فضل الله أبو الخير الملقب بالرشيد.

«تاريخ الفازانى»، ٤ جزء، دار الكتب المصرية رقم ٥٤٢٦ تاريخ .

الفيومى : (حوالى ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م) أحمد بن محمد بن على:

«نثر الجمان فى تاريخ الأعيان»، المجلد الثانى، يبدأ من أثناء سنة ٦٢٣هـ وينتهى إلى أثناء سنة ٦٨٩هـ، دار الكتب المصرية، رقم ١٧٤٦ تاريخ .

الكتبى : (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن فخر الدين.

«عيون التواريخ»، ١٦ مجلد، يهمنا منها مجلد مكتوب عليه أنه الجزء العشرون ويبتدئ من سنة ٦٤٥هـ وينتهى إلى سنة ٦٧٠هـ، دار الكتب المصرية، رقم ١٤٩٧ تاريخ .

النويرى الكندى: (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد:

«نهاية الأرب فى فنون الأدب»، ٥٥ مجلداً، دار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٩ .

المصادر الأصلية العربية

ابن الأثير الجزرى : (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٢٤م) أبو الحسن بن أبى الكرم الملقب عز الدين :
«الكامل فى التاريخ»، طبعة بيروت، ١٩٩٦ .

ابن بطوطة : (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) أبوعبدالله بن محمد عبد الله: «مهذب رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» ، ٢ ج، القاهرة ١٩٣٧ .

ابن تغرى بردى : (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف:
«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»، ١٢ ج، القاهرة ١٩٢٩-١٩٥٦ .

ابن حوقل : (عاش فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى) أبو القاسم محمد:
«صورة الأرض» ، بيروت ، بدون تاريخ .

ابن خرداذبة : (ت فى حدود ٣٠٠هـ)«المسالك والممالك» بريل ١٨٨٩م.

ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) عبد الرحمن محمد:
«العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» بيروت، ١٩٦٨ .

ابن خلكان : (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م) شمس الدين أبو العباس أحمد ابن إبراهيم: «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٢، بيروت ١٩٧٠ .

ابن شاهين : (ت ٧٨٢هـ/ ١٤٦٧م) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى:
«كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» اعتنى بنشره وتحقيقه بولس راديس، باريس، ١٨٩٤م.

ابن شداد : (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٨م) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة :
«سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماه بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، القاهرة ١٩٦٤ .

ابن عبد الظاهر : (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) محى الدين :

١- «الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر»، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياط، ١٩٧٦م.

٢- «تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور» ، تحقيق د. مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م.

ابن العديم : (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م) أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله «زبدة الحلب من تاريخ حلب» ٢ ج ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥٤ .

ابن العماد : (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٩م) أبو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب» ٨ج ، بيروت، بدون تاريخ للطبع .

ابن القلانسى : (ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) أبويعلى حمزة بن أسد بن على بن محمد «ذيل تاريخ دمشق » بيروت ، ١٩٠٨م.

ابن كثير القرشى : (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ابن عمر:

«البداية والنهاية فى التاريخ »، ١٤ ج، القاهرة ١٣٥١- ١٣٥٨هـ.

ابن منقذ : (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م) مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة ابن مرشد.

«كتاب الاعتبار» نشر فيليب حتى ، بوسطون ، ١٩٣٠ .

ابن ميسر : (ت ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) كمال الدين ابن ميسر:

«منتخبات من تاريخ ابن ميسر» باريس، ١٩٥١ .

R.H.C.- H. Or. t. III.

ابن واصل : (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) جمال الدين أبوعبدالله محمد بن سالم بن واصل :

«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» الأجزاء ١-٣ .

تحقيق د. جمال الدين الشال، القاهرة ، ١٩٥٣-١٩٦٠ ، جزء من ٤-٥ ، تحقيق د. حسنين محمد ربيع ومراجعة د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٧ .

أبوشامة : (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم ابن عثمان شهاب الدين :

١- كتاب «الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية» جزءان فى مجلد واحد، القاهرة ١٢٧٨-١٢٨٨هـ .

٢- «تراجم رجال القرنين السادس السابع المعروف بالذيل على الروضتين» نشر السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٤، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٧ .

أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ابن علي:

١- «المختصر في أخبار البشر ، ويعرف بتاريخ أبي الفدا»، ٤ أجزاء ، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٠٦ .

٢- «تقويم البلدان» نشرة رينو وديسلان، باريس ١٨٤٠ .

أبو اليمن العليمي : (ت ٩٢٧هـ / ١٥٢١م) أبو اليمن عبد الرحمن بن مجير الدين «الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل» المخطوط بمكتبة البلدية تحت رقم ٣٠٩٠ .

البغدادي : (ت ٦٦٨هـ / ١٣٦٩م) الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث العامية بأرض مصر» القاهرة ١٢٨٦م.

البكري الوزيري : ابن عبدالله بن عبدالله ابن الوزير ابن مصعب البكري: «معجم ما استعجم - رجعنا للجزء الأول، باريس، ١٨٧٦م.

بنيامين التطيلي : (ت ٥٦١هـ / ١١٦٥م) الرحالة العربي بنيامين بن يونة التطيلي البناري الأندلسي، ترجمة عن الأصل العبري وعلق على حواشيه عزار حداد، بغداد ١٩٤٥م.

السيوطي : (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» ، ٢ ج ، القاهرج ١٣٢٧هـ .

الأصفهاني : (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد «الفتح القسي في الفتح القدسي»، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة ١٩٦٥م.

البنداري : (ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) الفتح بن علي:

«سنا البرق الشامي»، (اختصار كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب) تحقيق د. فتحية النبراوي القاهرة ١٩٧٩م.

الدمشقي: (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م) محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي المعروف بشيخ البروة والمكنى بالدمشقي .

«نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر»، كوبنهاجن ١٨٠٤م.

القلقشندى: (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أحمد بن على بن أحمد عبدالله «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» ، ١٤ ج القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠ .

المقدسى : (عاش فى القرن الرابع الهجرى/ القرن العاشر الميلادى) شمس الدين أبو عبدالله المعروف بالبشارى:

«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» الطبعة الثانية، ليدن، أبريل ١٩٠٦م.

المقريزى : (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقى الدين أبو العباسى أحمد:

١- «السلوك لمعرفة دول الملوك»، الجزءان ١، ٢، كل جزء فى ثلاثة أقسام . تحقيق د. مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٤-١٩٤٢ .

٢- «المواعظ الاعتبار بذكر الخطط والآثار» ، ٢ ج، القاهرة ١٣٢٥هـ .

٣- «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين والخلفا» ج١، نشر وتحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٣، ج٢،٣ نشر وتحقيق د. محمد حلمى أحمد، القاهرة ، ١٩٧١ .

ناصر خسرو علوى: (ت ٤٥٣هـ / ١٠٦١م) أبو معين الدين :

«سفر نامة» نقله إلى العربية وعلق عليه د. يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٥م.

ياقوت الحموى: (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) أبوعبدالله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين:

«معجم البلدان» ، ٤ أجزاء، ط، بيروت ، ١٩٥٦، الجزء الرابع ق٢ طبعة ليبزج ١٨٦٩م.

المراجع الثانوية الأوربية

Atiya, A. S., The Crusade of the later Middle Ages London , 1938 .

Barthold, W., Historie des Turces d'Asia centrale, Adoptation Francaise par Mme M; Donekis, Paris, 1915 .

Besant, W., & Palmer , E., Jerusalem , The city of herod and Saladin, London , 1899 .

Bouchier , E., A Short history of Antioch , Oxford , 1221 .

Bréhier , L., Histoire de la premiere Croisade London 1938 .

Bruc, C., Byblos , Jebail , Beirut, 1956 .

Byrne , E, H., The Genoese Colonies in Syria , New York , 1928 .

Cahen, C., La Syria de Nord a Epoque des Croisades et la Principauté franque d'Antioche Paris, 1940 .

Calmette, J., Le Mond Féodal, Paris , 1937 .

Campbell, G., The Crusades, London , 1935 .

Chalandon, F., Histore de la Premiere Croisade , Paris 1925 .

Conder , C.R., The latin Kingdam of Jerusalem. London , 1897 .

Daru, Le Comte, Histoire de la Répubique de Venice 10 toms, Bruxelles, 1840 .

Gibbon, E., The Crusades, A. D. 1095-1291, London, 1870 .

Grousset. R., Histoire des Croisades et du Royame Franc de Jerusalem , 3 toms. Paris, 1948 .

Iorga, N., Bréve Histoirc des Croisades et de leure Fondations en Terre Sainte, Paris , 1924 .

King, E.J., The Kinghts Hospitallers in the Holy land London , 1931 .

Lamb, H., The Crusades the Flame of Islam London 1939 .

Lane - Poole, St. , Sladin and the fall of the kingdom of Jerusalem, New-York , 1898 .

Nante, J. Histore de Liban, Paris, 1936 .

Richard, J., The latin Kingdom of Jerusalem translated by J. Shirley , 2 vols, Oxford, 1953 .

Rohricht, R., La Croisade du prince Edouard Angletterre (1270-1274) in , A. O .L., t. I, Paris, 1881 .

Rey, E. G., Les Seigneurs de Giblet , in R.O.L., t. III, Paris 1900-1901 , pp. 399-425 .

Runciman , S., The History of the Crusades, 3 vols , London 1971 .

Setton , (ed.), A History of the Crusades, 2 vols, Philadelphia, 1958 .

Smail , R. C., The Crusades in Syria and the Holy land London , 1973 .

Treece, H., The Crusades, New York , 1914.

Waston, C. M., The Story of Jerusalem , New York, 1912 .

Williams, Jay , Knights of the Crusades, New York, 1962 .

المراجع الثانوية العربية

اميل آدة : جبيل مهد الابجدية، بيروت ١٩٦٩ .

بيير سمالى: المؤرخون فى العصور الوسطى، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، القاهرة ١٩٧٩م.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١- العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، ط. ثانية ، الإسكندرية ١٩٦٧ .

٢- العدوان الصليبى على مصر : هزيمة لويس التاسع فى المنصورة، الإسكندرية ١٩٦٧ .

٣- العدوان الصليبى على بلاد الشام: هزيمة لويس التاسع فى الأراضى المقدسة، الإسكندرية ١٩٧١ .

٤- الوحدة وحركات اليقظة العربية أبان العدوان الصليبى، الإسكندرية ١٩٦٧ .

٥- الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى، اسكندرية ١٩٦٦ .

حسن حبشى (دكتور) :

١- نور الدين محمود والصليبيون، القاهرة ١٩٤٨ .

٢- الحرب الصليبية الأولى، دار الفكر العربى، ط. ثانية ١٩٥٨ .

حسن عبد الوهاب حسين : قيسارية تحت حكم اللاتين وعلاقاتها السياسية بالمسلمين فى الشرق الأدنى (١١٠١-١٢٦٥م / ٤٩٤-٦٣٣هـ) .

درويش النخيلى (دكتور) : السفن الإسلامية على حروف المعجم ، القاهرة ١٩٧٩ .

الرمزى : تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، ٢ ج، أوربنورغ (المطبعة الكريمية والحسينية) ١٩٠٨ .

السيد الباز العرينى (دكتور) مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢ .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

١- طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى، الاسكندرية، ١٩٦٧ .

٢- دراسة فى تاريخ صيدا فى العصر الإسلامى، بيروت ١٩٧٠ .

٣- البحرية الإسلامية فى عصر الضعف الفاطمى، فى تاريخ البحرية المصرية، الاسكندرية، ١٩٧٣ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : الحركة الصليبية- صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، جزءان ، القاهرة ١٩٦٣ .

مجلة المشرق : الأب لويس شيخو اليسوعى، السنة العاشرة ، ط. بيروت ١٩٠٧ .

محمد جمال الدين سرور (دكتور) :

١- دولة الظاهر بيبرس فى مصر والقاهرة ١٩٦٠ .

٢- سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧ .

محمد كرد على : كتاب خطط الشام، ٦ أجزاء فى مجلدين ، دمشق ١٩٢٥ .

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الاسكندرية ١٩٧٤ .

محمد مصطفى زيادة (دكتور) : المؤرخون في مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (القرن التاسع الهجرى)، القاهرة ١٩٤٩ .

محمود فهمى: البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر ، القاهرة ١٣١٢ .

مصطفى حسن محمد الكنانى (دكتور) :

١- العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق الأدنى (١٠٩٥-١١٧١م / ٤٨٨-٥٦٧هـ) .

٢- العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى (١١٧١-١٢٩١ م / ٥٦٧-٦٩٠هـ) .

يوسف غوانمه : امارة الكرك الأيوبية، عمان ١٩٨٢ .
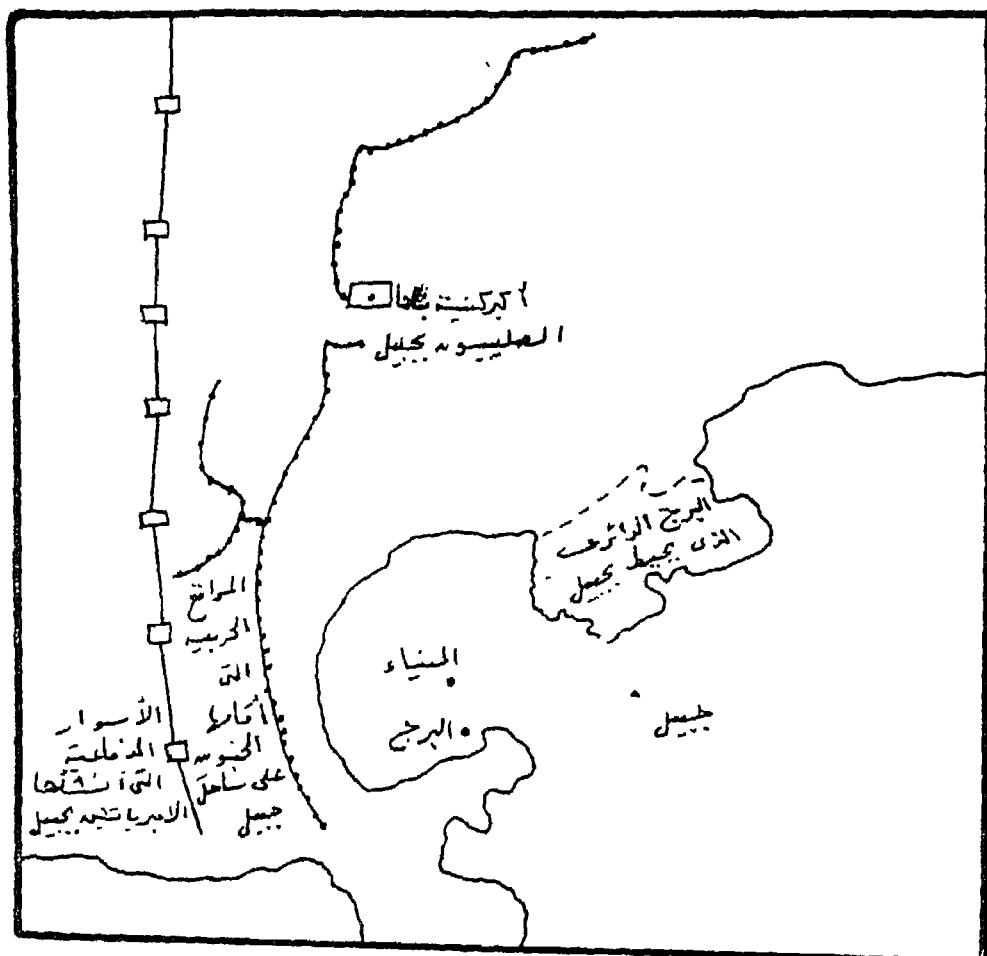
موقع ميناء جبيل والأبراج التى انشأها الصليبيون بها

١ ‏<——— خط سير قوات ريموند الصنجيلي ومحاصرة طرابلس من ناحية البر.

٢ ‏<..... تقدم الأسطول الجنوي من اللاذقية نحو جبيل ومحاصرتها بحراً.

خط سير قوات ريموند الصنجيلي والأسطول الجنوى لحصار جبيل
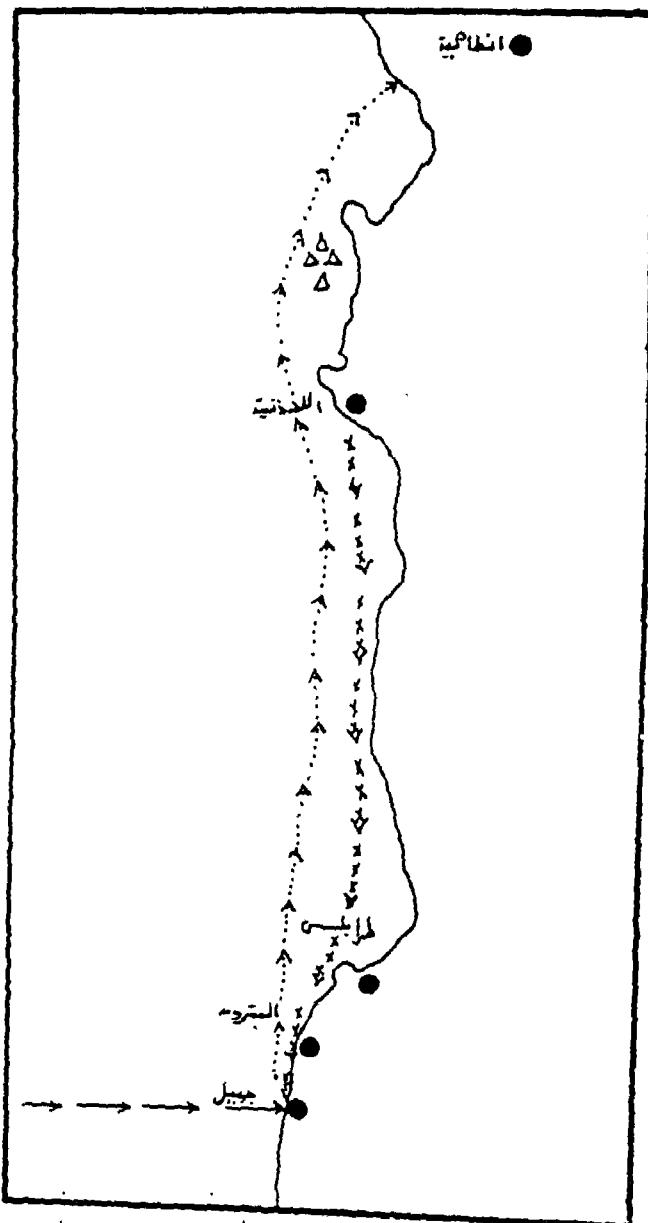
١ ←—— خط سير اسطول رينارد دى دامبير بالقرب من جبيل.
٢ ....> تقدم قوات جاى امبرياكو وقوات رينارد دى دامبير نحو انطاكية
٣ xx> خط عودة جاى امبرياكو من ميناء اللاذقية بعد هزيمتهم.
٤ ΔΔΔ قوات المسلمين المتركزة بين انطاكية واللاذقية.

خط سير قوات رينارد دى دامبير بمعاونة جاى امبرياكو

صاحب جبيل والتقدم نحو انطاكية ١٢٠٨م / ٦٠٥هـ

خط سير هاي امبرياكو من جبيل حتى طرابلس لحصارها.

خط عودة هاي امبرياكو بعد فشل حصار طرابلس.

خط سير هاي امبرياكو وقواته من جبيل حتى مواقع الداوية شمال البترون

مواقع الداوية المتمركزة شمال البترون.

خط سير بوهمند السابع من طرابلس حتى مواقع الداوية شمال البترون.
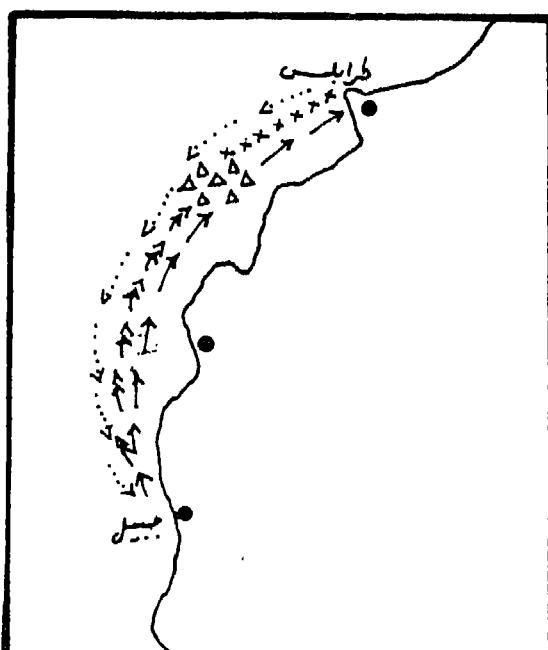
موقعة البترون بين بوهمند السابع كونت طرابلس ضد كل

من جاى الثانى صاحب جبيل ووليم بوجيه مقدم الداوية

المحتويات

صفحة